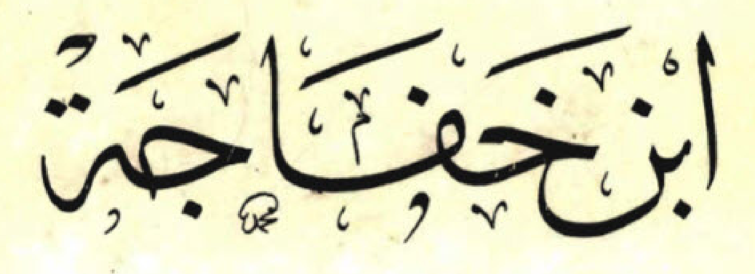
حمدان حجاجي

حياة وآثار الشاعر الأندلسي

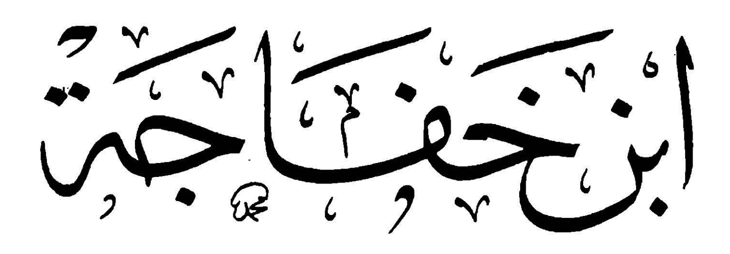




الشركة الوطنية للنشر والتوزيع
الجزائر

حمدان حجاجي

حياة وآثار الشاعر الأندلسي



الشركة الوطنية للنشر والتوزيع
الجزائر

رقم النشر 284/72

المصادر والمراجع المعتمد عليها فى هذا البحث

داوود الأنطـاكي :

ـ تزيين الاسواق

القاهرة ـ 1350 ، وفى الهامش ، ديوان الصبابة لابن ابي حجلـة .

ابن الأبـــار :

ـ التكملة لكتاب الصلـة : 1

طبعة بال وابن ابي شنب . الجزائر 1920 ج 1

1 و 2 من الجزء الرابع والخامس من المكتبة العربية الاسبانية

طبعة كوديرة ـ مدريد 89 ـ 1886 ج 2

ـ **المعجـــم**

طبعة كوديرة ـ الجزء الرابع من المكتبة العربية الاسبانية مدريد : 1886

ـ الحلـة السيراء

طبعة مؤنس ـ القاهرة 1963 ج 2

ـ تحفة القـادم

فى مجلة « المشرق » عدد 3 سنة 1947

الادريســي :

طبعة دوزي ودوقاج ـ ليد 1866 ج 1

الاسكنـــدري :

ـ ابن خفاجة الاندلسي
فى المجلة الاكاديمية : دمشق (الجزء الحادي عشر والثاني عشر 1931

عبد الله بلقـين :

ـ ذكريــات
طبعة وترجمة ليفي بروفنصال ، فى مجلة الاندلس 36 ـ 1935 ، الجزء 3 و 4

بستاني (ب) :

ـ دائــرة المعــارف
بيروت 1900 ـ 1876 11 ج

بروكلمــان :

ليــدن 49 ـ 1937

كونزاليس بالنسية :

ـ تاريخ الادب العربي الاسباني
بونوزار وبرشلون 1928 1 ج
ترجمه الى العربية ، مؤس

ابــن بســام :

ـ الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة .
الجزء الاول : طبعة القاهرة 1943 2 ج
ـ « الثاني : نسخة بالمكتبة الوطنية ـ باريس
قائمة دى سلان رقم 3321
نسخة بالقاهرة رقم 26022
ـ الجزء الثالث : نسخة بالمكتبة الوطنية . باريس رقم 3321
« مادريـد رقـم 12

» نواكشط
» القاهرة رقم 26022

ـ الجزء الرابع : فى جزئين :
الاول ، طبعة القاهرة 1945
الثاني ، نسخة بالمكتبة الوطنية ، باريس رقم 3321

ابن بشكوال :

ـ الصلــة
الجزء الاول والثاني من المكتبــة العربيــة الاسبانيــة
طبعة كوديرة ـ مادريد 1883 ج 2

ليفي بروفنصــال :

ـ الحضارة فى اسبانيــا
باريس ـ 1938 ج 1

ـ خواطر حول الدولة المرابطة فى أوائل القرن الثاني عشر .

ـ آلفونس والاستيلاء على طليطلة 1085
فىمجلة : ايسبريس سنة 1931

ـ السيد فى التاريخ .
فى المجلة التاريخية . باريس 1937

بيراس هنرى :

ـ الشعر الاندلسي فى القرن الحادي عشر
باريس 1937

ـ الشعر بفاس فى عهد المرابطين
فى مجلة اسبريس 1934

ابو بكر التجيبي :

ـ زاد المسافــر
طبعة محداد ، بيروت 1939 ج 1

الثعالبـــي :

ـ يتيمة الدهـــر .
دمشـــق : بلا تاريخ — 4 ج

عبد الرحمن جبير :

ـ الطبيعة فى شعر ابن خفاجة
فى مجلة « الرسالة » السنة الاولى عدد 25 ، 24 ، 23
سنة 1933

حاجي خليفـــة :

ـ كشف الظنون
طبعة فلوقل . لبزيق ولندرة 58 ـ 1935 — 8 ج

الحصـــــرى :

ـ زهر الآداب
القاهرة 1925 — 4 ج

ابن ابي حجلـــة :

ـ ديوان الصبابـــة
القاهرة 1328 — 1 ج

ابو بكر بن خير :

فهرست
القاهرة 1963 — 1 ج

الخـــوري :

ـ ابن خفاجة الاندلسي والادب : وصف الطبيعة عند العرب
فى مجلة الطليعة عدد 4

عبد الجليل خليفة وبلافريج :

ـ الأدب الأندلسي

طيطـوان 1941 — 1 ج

ابن خفاجـــة :

ـ ديـــوان

طبعة غازي ـ الاسكندرية 1960 — 1 ج

ابن خلــدون :

ـ كتاب العبــر

بيروت 1961 — 7 ج

ابن خلكــان :

وفايات الأعيــان

القاهــرة ـ 1948 — 6 ج

ابن خاقــان :

ـ قلائــد العقيــان

القاهرة ـ 1283 — 1 ج

ابن الخطيب :

ـ الاحاطة فى اخبار غرناطــة

القاهرة 1319 — 2 ج

ـ اعمال الأعــلام

طبعة ليفي بروفنصال 1956 — 1 ج

ـ الحلل الموشيــة

طبعة تونس 1911 — 1 ج

داغـــــر :

ـ مصادر الدراسة العربيـــة
بيروت ـ 1950 ، الجزء الاول والثاني

ديرانبـــور :

ـ المنسوخات العربية يلوسكريال
باريس 1884 — 1 ج

دوزي :

ـ تاريخ مسلمي اسبانيا الى فتح المرابطين 1110 ـ 711
الطبعة الثانية ليد 1932 — 3 ج

ـ ابحاث حول تاريخ وادب اسبانيا فى القرون الوسطى
باريس وليــد 1881 — 2 ج

ـ السيــد
ليــد 1860 — 1 ج

دائرة المعارف باللغة الفرنسية :

الطبعة الاولى والثانيــة

ابن دحيـــة :

ـ المطرب فى أشعار اهل المغــرب
طبعة عوض الكريم ـ خرطوم 1957 — 1 ج

عدنــان الذهبــي :

ـ ابن خفاجة فى مرآة نفســه
مجلة « الأديب » عدد 9 ـ السنة الرابعــة

ابن رشيــق :

ـ العمــدة
القاهرة 1925 — 2 ج

شرف الدين الرامي :

ـ انيس العشـــاق
ترجمه من الفارسـية الى الفرنسـية كلود هوآر
مكتبة الدروس العليا الجزء 25 باريس 1875

جودة الركابي :

ـ فى الأدب الأندلسي
القاهرة 1960 — 1 ج

ابن ابي زرع :

ـ روض القرطاس
طبعة تورنبارق ابســـال 1849 — 1 ج

ابن الزبـير :

ـ صلـة الصلـة
طبعة ليفي بروفنصال ـ الرباط 1937 — 1 ج

الزركلـي :

ـ الاعـــلام
القاهـرة ـ 1959 — 10 ج

ابـن ظافــــر :

ـ بدائع البدائـة
القاهرة 1316 — 1 ج

ـ غرائب التنبيهـات
نسخة ليسكوريال رقم 425

كنـون عبد اللـه :

ـ النبوغ المغربي فى الأدب العربي
الطبعة الثانية ـ بيروت 1961 — 1 ج

بشير محمد مهدي :

ـ ابن خفاجــة

فى مجلة (المعلم الجديد) رقم 1 السـنة الرابعة 1939

ابن عبد المنعــم :

ـ الروض المعطــار

طبعة وترجمة ليفي بروفنصال ـ القاهرة 1938 ـ 1 ج

المراكشـــي :

ـ المعجــب

الفرقة المغربيـــة 1938 ـ 1 ج

المقـــري :

ـ نفح الطيب

طبعة دوزي دوقات ... ليد 61 ـ 1855 ـ 1 ج

طبعة عبد الحميد ـ القاهرة 69 ـ 1967 ـ 5 ج

ـ أزهار الريــاض

طبعة السقاء ـ القاهرة 1940 ـ 1 ج

ابن خالد الناصري :

ـ كتاب الاستسقــاء

الدار البيضــاء ـ 1954 ـ 4 ج

النواجــي :

ـ حلبــة الكميت

القاهرة 1299 ـ 1 ج

النويـري :

ـ نهايــة الأرب

القاهرة ـ 38 ـ 1923 ـ 1 ج

سيــد نوفــل :

ـ شعر الطبيعة فى الأدب العربي
القاهــرة ـ 1945 ‏ 1 ج

الصفـــدي :

ـ وافي الوفيــات
نسخة باريس رقم 5860 طبع جزءان باسطنبول
ـ الغيث المنسجــم
القاهــرة 1305 ‏ 1 ج

الضبــي :

ـ بغية الملتمس ـ الجزء الثالث من المكتبــة العربية
الاسبانية مدريد 1885 ‏ 1 ج

احمد ضيف :

ـ بلاغــة العــرب فى الأندلس
القاهرة 1924 ‏ 1 ج

احســان عبــاس :

ـ باريخ الادب الاندلسي ـ عصر الطوائف والمرابطين
بيروت ـ 1962 ‏ 1 ج

العباسي (عبد الرحيم) :

ـ اخبــــار
بيروت ـ 1963 ‏ 1 ج
ـ معاهد التنصيص
القاهــرة 1936 ‏ 2 ج

ابن عــذارى :

ـ البيــان المغــرب
طبعة كولان وليفي بروفنصال ـ الجزء الاول 1948
الجزء الثاني 1951 ـ طبعة ليفي بروفنصال
الجزء الثالث طبعة باريس 1930

عبد الله عنــان :

ـ دول الطوائف
القاهـــرة 1960 — 1 ج

العاملــي :

ـ الكشكــول
بدون تاريـــخ — 1 ج

العمـــري :

ـ المسالــك
القاهرة 1342 ـ طبع الجزء الاول .

بهائي الغزولي :

ـ مطالع البـــدور
القاهرة 1299 — 2 ج

الغرناطـي (ابو القاسم) :

ـ رفع الحجب المستورة
القاهــرة 1344 — 1 ج

غرسية غومث :

ـ الشعر الاسباني
بونوزار ـ 1942 — 1 ج

ابــن القطـان :

ـ نشـر الجمـان
طبعة علي مكي (طيطوان) بدون تاريخ — 1 ج

ابن سعيـــد :

ـ المغرب فى حلى المغرب
طبعة شوقي ضيف ـ القاهرة 1955 — 1 ج

ـ رايـات المبرزين
طبعة قارسية قوماز ـ مدريد 1949 1 ج

ـ عنوان المرقصات
طبعة محداد ـ الجزائر 1949 1 ج

سـلان :

ـ قائمة المنسوخات العربية بالمكتبة الوطنية
باريس ـ 93 ـ 1883 3 ج

ـ ملاحظات حول المعاني المجازية لبعض المفردات فى الشعر العربي فى المجلة الآسيوية ـ الجزء السابع ص 175 ـ 169

ابن مبارك شـاه :

ـ السفينة ـ نسخة اسطنبول رقم 1611

الشقنـدي :

ـ رسالة ، فى كتاب « نفح الطيب » للمقري ج 2 ص 126 وما بعدهـا .

ياقـوت :

ـ معجـم البلـدان
لبزيـق 73 ـ 1866 6 ج

المصـــادر

ا ـ التراجـم :

ترتيبها حسب تاريخ وفاة اصحابها .

1) ابن خاقـان :

كان معاصرا لابن خفاجة وصديقه . وقضى حياته كلها فى اللهو والمجون . مات قتيلا بمراكش سنة 529 تحتوي ترجمته لابن خفاجة فى كتابه قلائد العقيان ص 241 على :

ـ مدح الشاعر ، وذكر سيرته فى شبابه وفى شيخوخته .

ـ قصة طويلة حيث التقى ابن خفاجة بالشاعر ابن وهبون فى طريقـه بين مدينة لورقة والمرية .

ـ رسالتين لابن خفاجة رد بهما على ابن خاقان .

ـ قصة التقاء ابن خفاجة بالامير المرابطي ابي اسحاق ابراهيم بن يوسف .

ـ استشهاد بعشر مقطعات شعرية لابن خفاجة مجموعها 142 بيت .

انها ترجمة رغم استعمال السجع مفيدة لما احتوت عليه من اشارات الى بعض نواحي شخصية الشاعر ، وابن خاقان لم يذكر تاريخ ولادة ابن خفاجة ولا تاريخ وفاته .

2) ابن خفـاجة : توفي سنة 533 بجزيرة شقر .

مقدمتـه لديوانـه :

ـ تكوينه الشعري . التقليد لشعراء القرن الرابع .

ـ الشاعر
ـ توقفه عن الشعر وعودته اليه
ـ جمعه لديوانـه
ـ نظريتـه فى الشعـر .
ـ استشهاده بست عشرة مقطعة ، مجموعها 78 بيتا وهذه المقدمة لها قيمة عظمى ، وتعتبر أساسية لدراسة ذوق ابن خفاجة وتكوينه الفني .

3) **ابن بشكوال :** مؤرخ مشهور ولد بقرطبة وتوفي سنة 578 .

الصلـة :

ـ مدح ابن خفاجة الذي تعرف به فى بشاطبة .
ـ واشار الى تكوينه الفقهي مع ذكر احد شيوخه . القاضي أبو يوسف .. بن صحيح .
ـ استشهاد ببيت واحد لابن خفاجة .

4) **الضبـي :** من مؤلفي التراجم . توفي حوالي 599 .

بغيـة الملتمـس

ـ مدح الشاعر وقد زعم ان ابن خفاجة كان خبيث الهجاء فى شعره . وينبغي أن نلاحظ أن الضبي انفرد بهذا القول .
ـ أورد أقاصيص تتعلق بأخلاق ابن خفاجة ومزاجه ونفسيته.
ـ استشهد بمقطعتين من شعر ابن خفاجة مجموعها 7 أبيات . أبيـات .

5) **ابن الأبار :** كان مؤرخا ، محدثا ، أديبا ، شاعرا . ولـد ببلنسية سنة 599 .

وقد احرق مع كتبه بتونس سنة 628 .

التكملة :

تضمنت :

ـ تعريفا بابن خفاجة .

ـ ذكر اربعة من شيوخه .

ـ مدح الشاعر .

ـ ذكر أقوال بعض معاصريه : الرشاطي وابن بسام .

ـ ذكر سبعة رواة لشعر ابن خفاجة .

ـ قصة حول رواج شعر ابن خفاجة . فقد التقى هذا الاخير بالشيخ ابي القاسم بن حبيش حوالي 520 بجزيرة شقر فأنشد له قطعة شعرية اي سبعة ابيات ذكرها ابن الأبار .

ـ يذكر ابن الأبار مصادره لوضع تاريخ ولادة ابن خفاجة فيثبته سنة 451 هـ .

انها ترجمة ذات أهمية كبرى لما تضمنته من معلومات قيمة حول التكوين الثقافي لابن خفاجة وقيمته الشعرية .

المعجم :

فيه مقالة تحتوي على اهم ما يوجد فى « كتابه » التكملة وفيه :

ـ التعريف بابن خفاجة .

ـ اشارات الى اعتناء ابن خفاجة بالفقه ورواية الحديث . وذكر مناقشة جرت حول حديث نبوي .

ـ ذكر خمسة عشر من رواة شعر ابن خفاجة والكثير من اسمائهم مذكور فى « التكملة » .

ـ ذكر تاريخ ولادة الشاعر والمدينة التي توفي بها .

ـ استشهاد بمقطعتين . مجموعهما تسعة أبيات .

ابن خلكان : مؤرخ ولد بأربلة . وقد تولى القضاء بالقاهرة وبدمشق وتوفي سنة 681 وهو أستاذ بالمدرسة الآمنية .

وفيات الأعيان : وجاء فيه :

ـ رواية قول ابن بسام فى الشاعر .

ـ استشهاد بثلاث مقطعات مجموعها 8 ابيات

ـ التحديد الجغرافي لجزيرة شقر حيث ولد ابن خفاجة .

ب ـ المصادر التي تضمنت شعرا او نثرا لابن خفاجة :

1) **ابن بسام :** كان معاصرا لابن خفاجة وقد توفي سنة 542 .
الذخيرة : القسم الثالث : نسخة تواق الشط قام بتحقيقها السيد حمزاوي وسمح لنا ان نطلع عليها .

وهي فى : (33 ورقة) .

وجاء فيها :

ـ التعريف بالشاعر .

ـ استشهادات :

78 رسالة . كل رسالة فى حوالي عشرة اسطر .

156 قطعة شعرية مجموعها 1247 بيت .

وروايتان :

الرواية الاولى : تدور حول عودة ابن خفاجة الى الشعر بعدما توقف عنه .

الرواية الثانية : وهي نفس القصة التي نجدها فى قلائد العقيان حيث التقى ابن خفاجة بالشاعر ابن وهبون فى طريقه بين لورقة والمرية . وهي مقالة هامة جدا بالنسبة الى القدر الوافر من الشعر والنثر الذي خص به ابن بسام شاعرنا . وفضلا عن هذا فاننا نعثر فى هذه المقالة على ابيات او على قطع شعرية اصلحها ابن خفاجة أو غيرها او حذفها عندما عزم على جمع الديوان الذي بين ايدينا .

2) **ابن ظافر** : ولد سنة 567 بمصر ـ قد درس المذهب المالكي بالمدرسة القومية بالقاهرة توفي سنة 613 .

بدائع البدائة جاء فيه :

ـ استشهاد بخمس مقطعات شعرية مجموعها 16 بيتا .
ـ اربع روايــات .

الاولى هي التي اوردها ابن خاقان وابن بسام حول التقاء ابن خفاجة بالشاعر ابن وهبون فى طريق بين لورقة والمرية .

الثانية : نقلها عن ابن دحية وتدور حول التقاء ابن خفاجـة والشاعر ابن وهبون فى عودته من العدوة .

الثالثة : تدور حول التقاء ابن خفاجة الفقيه ابن أبي تليد بمدينة شاطبة .

الرابعة : نقلها عن ابن بسام وتدور حول التقاء ابن خفاجة بابن عائشـــة .

3) **الشقندي** : اصله من شقندة ـ وكان رجلا واسع الثقافة ـ وكان من ملازمي المنصور المرابطي وقد ولاه الامير القضاء ببائزة لورقة ـ توفي باشبيلية سنة 629 .

الرســـالة : جاء فيها

ـ مدح ابن خفاجة .
ـ استشهاد بثمان مقطعات شعرية مجموعها 32 بيتا .

4) **ابن دحية** : ولد ببلنسية سنة 598 سافر الى افريقية والى الشرق ـ وقد تولى القضاء بدانية وكان مهذب ولد الأيوبي العادل من سنة 595 الى 615 توفي سنة 623 .

المطـرب : فيه

ـ مدح ابن خفاجة وذكر بعض المعلومات مبعثرة تتعلق بحياة شاعرنــا .

ـ أورد قصة موضوعها التقاء ابن خفاجة بالشاعر ابن وهبون في طريقه بين لورقة والمرية ، وهي نفس القصة التي توجد في الذخيرة والقلائد .

ـ استشهد بمقطعات شعرية مجموعها 38 بيتا .

5 ـ ابن سعيد :

ولد بغرناطة سنة 610 .

وكتابه « المغرب » الذي بدأ في تأليفه الحجاري تحت عنوان « المسهب » سنة 530 يعتبر ثمرة خمسة اجيال ـ فابن سعيد بن موسى هو الذي ختمه سنة 645 ـ ثم سافر الى المشرق حيث الف كتابه « المشرق » ثم عاد الى تونس ومات حوالي 685 .

المغرب : فيه :

ـ روي ابن سعيد اقوال ثلاثة مترجمين لابن خفاجة : ابن بسام وابن خاقان والحجاري .

ـ استشهد بسبع عشرة مقطعة شعرية مجموعها 52 بيتا .

عنوان المرقصات : فيه

ـ استشهد بثلاث مقطعات شعرية مجموعها 5 أبيات .

6 ـ ابن عبد المنعم الحميري : لم نعثر على معلومات كثيرة تتعلق بترجمة هذا الكتاب . وأصله ربما من سبتة ويظن انه توفي آخر القرن السابع أو في أوائل القرن الثامن الهجري .

الروض المعطار : فيه :

ـ رسالة أبي المطرف بن عميرة التي وجهها الى ابن الأبار ردا على رسالته ، وفيها شيء قليل يتعلق بحياة الشاعر ، ثم اقوال في مدح ابن خفاجة .

ـ استشهد بمقطعتين مجموعها 17 بيتا .

7 ـ النويري : مؤرخ واديب ولد سنة 677 بمصر وقد شغل عدة وظائف في عهد المالك الناصر ـ واليه اهدى كتابه « نهاية الأرب » وقد توفي بالقاهرة سنة 732 .

نهـاية الأرب : فيه :

ـ استشهد بمقطعات نثرية من رسائل ابن خفاجة .

» » بعشرين مقطعة شعرية مجموعها 81 بيتا .

8 ـ الغرناطي : اديب ومحدث ـ نشأ بسبتة سنة 577 . كان قاضيا وكاتبا بغرناطة . توفي سنة 760 .

رفـع الحجب : فيه :

ـ استشهد بثلاث مقطعات شعرية مجموعها 6 ابيات .

9 ـ الصفدي : نشأ سنة 696 من نسل تركي وشغل وظيفة كاتب فى القاهرة وفى حلب وفى رحبة ثم وظيفة خازن فى دمشق حيث توفي سنة 764 .

الغيث المنسجـم : فيه :

ـ اطراء على ابن خفاجة وذلك تعليقا على ثلاث مقطعات شعرية استشهد بهـا .

ـ استشهد بـ 22 مقطعة شعرية مجموعها 62 بيتا .

10 ـ ابن ابي حجلة : ولد بتلمسان سنة 725 شاعر مقلد ابن الفريض سكن القاهرة حيث توفي سنة 776 .

الصبـابة : تضمن :

ـ مدح الشاعر وتعليق حول أسلوبه .

ـ استشهاد بست مقطعات شعرية مجموعها 18 بيتا .

11 ـ النواجي : ولد فى القاهرة سنة 785 ـ فكان نحويا اديبا شاعرا ـ وكان شافعي المذهب ومحدثا مشهورا درس الحديث بالجمالية الحسينية الى يوم وفاته سنة 859 .

حلبـة الكميت : فيه :

ـ استشهاد بست مقطعات شعرية مجموعها 14 بيتا .

12 ــ ابن مبارك شاه : لا نعرف عنه شيئا وتوفي حوالي سنة 862.

السفينة : نسخة استانبول وصفها غازي محقق ديوان ابن خفاجة ، وقال انه خص ابن خفاجة بست واربعين صفحة من جزئه الثالث وكل صفحة فيها 14 او 16 سطرا .

مصدر ذو اهمية فيما يبدو الا اننا لم نستطع ان نطلع عليه

13 ــ عباسي : توفي سنة 963 .

معاهد التنصيص : فيه :

ــ مدح الشاعر وتعاليق حول أسلوبه .

ــ استشهاد بست مقطعات شعرية مجموعها 16 بيتا .

14 ــ الانطاكي : داوود الضرير . ولد فى انطاكية فى سنة لم تتحقق : سافر الى دمشق والى القاهرة وتوفي بمكة سنة 1008 .

تزيين الاسواق : فيه :

ــ استشهاد بمقطعتين مجموعها 5 ابيات .

15 ــ العاملي : اصله من بعلبك . ولد سنة 953 ــ والف كتبا بالعربية وبالفارسية ، توفي بأصفان سنة 1030 .

الكشكول : فيه :

ــ استشهد بمقطعتين مجموعهما 10 ابيات .

16 ــ المقري : مترجم واديب مغربي ولد بتلمسان حوالي سنة 1000 . وجلس للافتاء بمسجد القرويين .

سافر كثيرا واستقر مدة طويلة بالقاهرة حيث توفي سنة 1041

نفح الطيب :

نعثر فى هذا الكتاب على أشعار ومقطعات نثرية مبعثرة مع تعليقات المؤلف ترجع الى حياة الشاعر والى مزاياه الشعرية .

وجاء فيه :

1) رواية عشر مقطعات نثرية من رسائل ابن خفاجة وكل مقطعة فيها نحو عشرة اسطر .

ب) رواية 60 قطعة شعرية مجموعها 296 بيت .

ت) رواية اربع قصص .

الرواية الاولى : شبه ابن خفاجة الأندلسي بالجنة فاتهمه السلطان ابو عنان بالكفر .

الرواية الثالثة : موضوعها التقاء ابن خفاجة بالفقيه ابن أبي تليد بشاطبة .

الرواية الرابعة : موضوعها التقاء ابن خفاجة بالفقيه ابن العنق الفضة بمرسية فى ناد من الاندية .

ت ــ ديوان ابن خفاجة :

ــ نسخة الاسكوريال رقم 378 .

نسخة بدون تاريخ ــ ويقول ديرامبور قد نسخت فى القرن السابع معتمدا فى ذلك على « غزيري » رقم 376 . (راجع ديرامبور الجزء الاول ص 249 م)

فالورق والكتابة مغبريان ــ وبها 81 ورقة و 22 سطرا فى كل ورقة طولها 4×19 سانتمتر وعرضها 5ر13 سانتمتر .

نسخة مشكولة فى بعض الأماكن ولا سيما فيما يخص الشعر وقد أضاف اليها الناسخ بعض التصحيحات فى الهوامش .

فهي أحسن نسخة وقد اعتمد عليها الدكتور غازي فى تحقيقه ديوان ابن خفاجة .

نسخة لندن : المتحف البريطاني رقم 416 تاريخها سنة 1164 – كتابة فارسية وتعد فيها 68 ورقة وكل ورقة فيها 19 سطرا .

نسخة ناقصة مفعمة بالاغلاط النحوية . وفيها فساد فى البحور الشعرية ، مما يجعل هذه النسخة صعبة الاستعمال .

وقد لاحظ الدكتور غازي فى طبعته ان الناسخ اضاف قصيدة ليست لابن خفاجة .

نسخة باريس : المكتبة الوطنية رقم 3135 .

تاريخ النسخة 1167 . وتحتوي على 67 ورقة وكل ورقة طولها 5ر24 سنتمتر وعرضها 15 سنتمتر وفيها : 29 سطرا .

ونعثر احيانا على تعليقات وشرح بعض المفردات فى الهوامش، بكتابة مخالفة لخط الناسخ .

نسخة فيها اغلاط اقل عددا من التي فى نسخة لندن ومع ذلك فهي دون نسخة الاسكوريال .

– نسخة يملكها الأستاذ بيراسي ولم يساعدنا على مطالعتها .

2 – الطبعات :

– طبعة مصطفى النجاري –

القاهرة 1869 فى جزء واحد يضم 135 صفحة ، ويشير النجاري الى وجود ديوان لابن خفاجة بالقاهرة بدون أن يذكر تاريخا ، ولا اسم المحقق . ونسختين الأولى محفوظة بالمدينة والثانية بالاستانة وكلتاهما منسوخة عن أصل واحد مصدره غير معروف .

– أورد النجاري فى المقدمة ما نجده عند ابن خاقان فى قلائد العقيان ، وعند ابن خلكان فى كتابه وفيات الأعيان .

وجمع ما عثر عليه فى كتاب نفح الطيب للمقري .

فى هذه النسخة 256 قصيدة مجموعها 2855 بيتا ، مرتبة حسب الحروف الابجدية . وهي طبعة غير مشكولة ، وقد جاء النجاري ببعض شروح لغوية فى الهوامش .

وقد حذف النجاري فى طبعته رسائل ومقدمة ابن خفاجة وبعض المقدمات للقصائد .

وفى الجملة فهي طبعة غير مرضية . وفضلا عن عدم وجود الفهارس فالدكتور غازي اثبت لها أغلاطا كثيرة تحرف فى بعض الأحيان معنى الأبيات .

طبعة كرم البستاني :

بيروت سنة 1951 جزء واحد ـ فى 351 صفحة . يبدأ المحقق بترجمة قصيرة لابن خفاجة ـ واتخذ طبعة القاهرة أساسا . ـ

وقد رتب البستاني الديوان أبوابا ، وقسمه الى ستة أبواب :

- وصف وغزل
- عتاب وتشوق وشكوى
- اعتبار وزهد
- مدح
- رثاء
- أغراض مختلفة

وجاء النص مشكولا فى بعض الاماكن ـ وقد اتى البستاني ببعض الشروح اللغوية ـ وبفهرس على أساس العناوين التي ابتكرها .

غير أن الدكتور غازي اثبت له أغلاطا زائدة عما فى طبعة النجاري من اغلاط .

ـ **طبعة صادر** : بيروت 1961 . جزء واحد فى 284 صفحة . اتخذ صاحبها نص طبعة النجاري واضاف اليه فهرسه .

ـ **طبعة مصطفى غازي** : الاسكندرية 1960 جزء واحد فى 453 ص . اتخذ غازي مخطوط الاسكوريال اساسا لطبعته واعتمد كذلك على مخطوطي لندن وباريس والمصادر التي تضمنت شعرا او نثرا لابن خفاجة .

ففي مقدمته للديوان درس مصطفى غازي حياة ابن خفاجة واكد على اهمية مقدمة الشاعر لديوانه ـ ثم تعرض للطبعات السابقة ذكرها ووصف مخطوطات الديوان . وحلل مصدرين وهما كتابا الذخيرة لابن بسام ، والسفينة لابن مبارك شاه .

وجاء النص كله مشكولا . وهذه الطبعة تحتوي على :

ـ مقدمـة ابن خفـاجـة وقد تستغـرق 15 صفحـة والقصائد لم تأت مرتبة حسب الحروف الأبجدية وقد تخللها رسائل ابن خفاجة : فكل قصيدة او قطعة شعرية أو نثرية قد وردت مسبوقة بمقدمة قصيرة ، يلخص فيها الناسخ الظروف التي قيلت فيها مع ذكر الغرض ـ فى غالب الأحيان ـ الذي يتعرض اليـه الشاعـر .

ويمكن ان نحصي فيها :

243 قصيدة مجموعها 2913 بيتا .
16 رسالـة
4 تعليقات نحوية أو ادبيـة .
25 بيتا مذكورة فى الهوامش

وقد اضاف المحقق ذيلا للديوان حيث نجد :
66 قطعة شعرية . مجموعها 356 بيتا
23 رسالـة .

هذه الطبعة اذن تحتوي فى النهاية على :
309 قصيدة مجموعها 3304 أبيات .
43 رسالة ،وكل رسالة فيها حوالي عشرة اسطر .

وتمتاز هذه الطبعة بالفهارس التالية :
ـ فهرس القوافي .
ـ فهرس المضمنات والمعارضات
ـ فهرس الأغراض .
ـ فهرس الرسائل والتعليقـات
ـ فهرس الأعـلام
ـ فهرس الأماكـن
ـ فهرس مصادر تراجم اعلام الاندلس .
ـ فهرس مصادر تحقيق الديـوان
ـ استـدراك .

البـــاب الاول

ابن خفـــاجة : الشـاعر ـ شخصيته وبيئته

الفصـــل الاول
شباب ابن خفــاجة وتكوينه

ـ بعد أن تلاشت الدولة الاموية فى منتصف القرن الخامس الهجري أصبحت بلاد الأندلس ميدان فتن داخلية عنيفة ، كانت غايتها تشتيت الوحدة الأرضية والسياسية معا ـ

ـ فتكونت حينئذ عدة دويلات صغيرة متباينة تتفـاوت قـوة يسوسها ملوك وأمـــراء يمتازون بطموح كبير وبغيرة شديدة على استقلالهم .أولئك هم الذين خلدهم التاريـــخ تحت لقب « ملوك الطوائف » وقد تميز عهدهم بالفوضى وعدم الأمـــن والاضطراب . فلم يكن همهم جميعا اذ ذاك الا الاحتيـــال فى البقاء على رأس الحكومة وفى توسيع أراضيهـــم وتحصينهـــا بالاستيلاء على أراضي جيرانهم ـ مما كان سببا فى نشـــوب حروب مستمـــرة سمحت بالفوضى فى الميـــدان الاقتصـــادي والاجتماعي وبالانحلال الخطير فى الأخلاق ... كانت سياسة كل ملك تتطلب نفقات ضخمة لابتياع الأسلحة ، ودفع أجور العسكر وجزية للأقوياء المتجبرين ـ مسيحيين كانوا أو مسلمين لاتقاء شرهم مدة ما من الزمان . وفضلا عن هذا فان كل ملك كان يعيش

بطبيعة الحال عيشة رفاهية وبذخ متظاهرا بالقوة وبالأموال الوفيرة حتى تطمئن بادىء الأمر نفسه ثم حتى لا يجرؤ أي عدو أن يعتدى عليه ، ولنا فى دولة العبابدة (1) مثل جلي .

ولنتساءل الآن كيف كانت حالة الجماهير الشعبية وماذا كان موقفهم ، وحظهم من العيش أمام هذه الأريسطوقراطية العسكرية؟ يقول المثل السائر اذا تنازع الأقوياء فالخاسرون هم الضعفاء . وهذا ما وقع لشعب الأندلس ، فكانوا على أسوا حال ، يعانون المصائب والاحزان الناتجة عن الحروب القاسية ، فذاقوا مرارة الاحتياج والفقر والاهانة .

وهذه الحالة غيرت لا محالة شخصية الاندلسيين وأخلاقهم تغييرا شديدا . فان الملوك مثل رعيتهم قد أعرضوا ولأسباب مختلفة عن الامر الواقع فلم يفكروا الا فى الخلاص بأنفسهم مما كان يحرجهم ويقلقهم وتضيق منه صدورهم . وذلك بالانغماس فى الشهوات والتمتع باللحظة الحاضرة ، واستفادت المرأة المنتمية الى الخاصة من هذه الحالة المضطربة واغتنمت الفرصة لتتحرر من بعض التقاليد القديمة فى مجتمعها وهكذا نجد من النساء من كن مثقفات فنانات يشاركن فى المجالس ويحضرن فى الأندية . ونخص بالذكر من بينهن ولادة (2) بنت المستكفي حبيبة الشاعر ابن زيدون (3) والتي تمثل الغاية فى هذا المجال .

ومن المعلوم أن الفن يساير دائما حياة اللهو ، فلا غرو اذن أن تكون الحركة الثقافية مزدهرة زاخرة فى ذلك العهد ، ومن

المعلوم أيضا أن المجـون حركـة رجعية تؤثـر فى الاخـلاق كما تؤثر فى الافكار . وقد خرجت الى الوجود ، أهم المؤلفات فى هذا الجـو .

ونفس الأمر نلحظه فى الأزمنة المضطربة التي عرفتها فرنسا فى عهد شارل السادس ثم فى القرن السادس عشر . لقد تميز المجان بنشاط وحذاقة فكرية وبسيرة مغايرة لسيرة معاصريهم ، وبآراء راقية متقدمة وعصرية . (4)

« فمجالس الأمراء كانت حافلة « بالشعراء والادباء » والفنانين والعلماء والفلاسفة والاطباء والمتخصصـين فى الرياضيـات . وهؤلاء كلهـم كانوا يشتغلون فى حواشي الملـوك متمتعـين بمساعدات مادية .» (5) وان عدد الشعراء لم يبلغ فعلا هذا القدر من قبل وقلما رأينا مثل هذا الشغف بالشعر . فما من انسان الا ويتذوق هذا الفن ويطرب بتوقيع أبيات شعرية (6) ، والذين ينتمون الى الطبقات الشعبية الضعيفة كانوا يعتبرون الشعر من أحسن الوسائل للارتقاء فى السلـم الاجتماعي ، أو للتخلص من براثن الفقر والحاجة .

« ولقد رأينا أمثال الشاعر ابن عمار قد ارتقى الى قمة المجد والشرف » وان لم يدم ذلك الا مدة قصيرة من الزمان ـ بفضل عبقريته الشعرية فأصبح وزيرا للامير ، شاعر اشبيلية ، المعتمد بالله ، هذا المثل كان جديرا بأن يدفع عددا كبيرا من الشعراء المادحين لكي يقتدوا به ، آملين أن ينالوا مناله ، ويرتقوا مرتقاه»

× ومثل هذا الامر يصدق بطبيعة الحال على الجهة الشرقية من بلاد الاندلس ، أي على مدينة بلنسية ونواحيها ، التي كان لها دور هام فى الميدان السياسي والثقافي فى عهد ملوك الطوائف .

لقد كانت تعتبر هذه المنطقة من أحسن مناطــق الاندلـــس بمراكزها الحضرية ، واشتهرت بخيراتها حتى أصبحت يضرب بها المثـــل .

فبعد اضمحلال الخلافة الأموية أصبحت مدينة بلنسة مركزا لامارة على رأسها الصقلبيان (7) مبارك ومظفر ثم بعد أمــد قليل انتقلت الرئاسة الى حفيد الحاجب المشهور المنصور ابن أبي عامر : عبد العزيز المنصور وقد دام على عرشه مدة أربعين سنة من سنة 412 الى سنة 452 هجرية فكانت لعبد العزيز شيــم الزعماء فتمتعت بلنسية فى عهده بالسلم والأمان والهدوء ورغادة العيش وذلك الى يوم وفاته .

أما ابنه وخليفته عبد الملك المظفر فلم يبلغ من السن ما يسمح له أن يتحمل مسؤوليات السلطة ، فقام مقامه وزير أبيه عبد الله بن مروان ، الذي أدى واجبه على أحسن حال وذلك بفضــل مهارته وخبرته الطويلة بالحكم ، غير أن عبد الملك لم يرث من أخلاق أبيه وسداد رأيه شيئا فلم تسمح له حياة اللهو والملاذ بأن يهتم بشؤون الدولة وقد وصفه المؤرخ ابن حيان بقوله : « وكان منهمكا فى الشراب غاربا عن الخصال المحمودة مع رقة الديانة ونقص المروءة وكثرة الاستعمال والانحطاط فى مهاوي

اللذات » (8) وعواقب سيرة كهذه لا تكون الا سيئة ففقدت بلنسية بسبب الاهمال مكانتها من القوة والمنعــة وأصبحت هدفا لمطامع الدويلات المسيحية والاسلامية المجاورة لها فكاد أن يستولى عليها فردنان الأول صاحب قشتالة وليون ، بعد ما أذاق جماهير بلنسية ، وقد خرجت لمقاومته ، مرارة الهزيمة وعندئذ طلب الملك عبد الملك لانقاذ بلنسية يد المساعدة من المأمــون صاحب طليطلة ولكن ما برح هذا أن اغتنم الفرصة فعزل داعيه عبد الملك وأضاف بلنسية الى مملكته وأقام حاكما عليها الوزير الرزين أبي عبد الله بن مروان وذلك سنة 457 ـ فلما توفي المأمون سنة 467 خلفه ابنه يحيى القادر وكان رجلا معروفا بالسفاهة فلما أحس بانفلات بلنسية من يده ، تحمل مسؤولية عظمى بدعوة الملك ألفونس السادس ليســاعده على استرجاعها ولم يخف على الفونس ما فى ذلك من فوائد فدبر فى الامر تدبيرا حسنا ، حتى بلغ الغاية المنشودة ، وهي الوصول بصاحبه يحيى القادر الى أن يسلم له فى النهاية مدينة طليطلة بعينها ، فاعتبر المسلمون هذه الواقعة مصيبة عظمى وغدرا شنيعا . ولاسيما فى عهــد أصبحت المسيحية فيه قوة ، ودأبت على مهاجمة المسلمين راغبة فى استرجاع بلادها . وقد كتب أمير غرناطة الزيري اثر هــذا الحادث ما يلي :

« فوقع من ذلك فى الأندلس رجة عظيمة وأشرب أهلها خوفا وقطع رجاء من استيطانها » (9) .

بلنسية : كانت لمدينة بلنسية **(10)** أهمية كبرى جعلت منها ــ بطبيعة الحال ــ عاصمة المنطقة الشرقية . وتميزت بموقعها الطبيعي فهي على مسافة أربع « كيلو مترات » من البحر المتوسط ومرساه « الجراو » وانها وسط سهل « واري » المشهورة التي تستمد مياهها من النهر الابيض . وسميت بلنسية بباقة الاندلس لكثرة حدائقها ولخصب أراضيها وخيراتها المتنوعة ازدحمت بالسكان وتجمع فيها عدد كبير منهم وقد امتازوا بالجد والنشاط ومن ثم بلغت بلنسية درجة عالية من الازدهار بفضل مصانعها وما شهرت به النسيج البلنسي الجيد الذي يرسل لأقطار المغرب وقد تعرب أهل بلنسية سريعا بفضل قيام قبائل قيسية (11) كانت تقطن بينهم ولعبت هذه دورا هاما فى نشر العربية طيلة الوجود الاسلامي ببلاد الاندلس : ومع هذا فاننا نجد قبائل بربرية كانت تستوطن قمم الجبال القائمة وراء الساحل

وكان أهل بلنسية فضلا عن مستواهم الثقافي الراقي يتميزون بأخلاق حسنة ، كما يشهد لهم بذلك المقري فى كتابه نفح الطيب فيقول : « وأهلها أصلح الناس مذهبا وأمتنهم دينا وأحسنهم صحبة وأرفقهم بالغريب » . (12)

وكانت بلنسية فعلا فى منتصف القرن الخامس مركزا لحركة ثقافية زاهرة ولا سيما فى عهد الأمير العامري عبد العزيز ، الذي كان يميل الى العلم ويرغب فى سبيله فقرب العلماء والشعراء .

ولم تكن هذه الحركة الثقافية وقفا على العاصمة ، بل انتشرت الى مراكز أخرى ذات أهمية ، والجدير من بينها بالذكر مرسية وشاطبة اللتان كان مصيرهما السياسي مرتبطا بمصير العاصمة .

شاطبة : تقع مدينة شاطبة (13) على مسافة 56 كيلو متر من بلنسية ، موقعها لا يقل جمالا وروعة عن موقع هذه اذ كانت ملازمة جبل برنسية مشرفة على السهول الخصبة الممتدة تحتها ـ وكانت تعتبر مدينة شاطبة من أهم قلاع الاندلس لمناعة موضعها وفضلا عن هذا فانها مدينة تتمتع بالسعة والرخاء ونواحيها بالارزاق والخيرات الغزيرة المتنوعة وقد اشتهرت كذلك مدينة شاطبة بمصانعها ولاسيما مصانع الكاغد المعروف بالملكي الذي كان يسفر الى مصر .

أما أهل المدينة فلم يحتفظ لنا التاريخ بمعلومات عنهم تشفي الغليل فمن المحتمل أن تكون شاطبة قد ضمت عددا وافرا من السكان ، ومن المحقق أنها كانت فى المنزلة الثانية أهمية فى منطقة بلنسية ، وان لم يتجاوز عدد سكانها فى ذلك الوقت 12 ألفا .

مرسية : أما مدينة مرسية (14) فكان موقعها يستلفت الانظار كذلك بروعته ، فهي مدينة محاطة بالاسوار ممتدة وسط (لهورطة) بين الجنات والحدائق . حتى شبهها أبو الفدا باشبيلية ، فرغم قلة الامطار فانها تعد من أخصب نواحي اسبانيا وذلك بفضل النهر الابيض (السيقورة) الذي يسقيها بمياهه فلا غرو اذن أن تمتاز بوفرة مزارعها وبأشجارها الثمرية خصوصا شجر التين والدوالي . وبانتاجها من الحبوب ... ولا سيما القمح

حيث أنه كان يوجد ، كما فى مدينة سراقوسطة مطاحن على زوارق تنتقل من حافة الى الحافة الاخرى لانه من أراد أن يدخل المدينة مر بجسر مكون من زوارق ، فمدينة مرسية بفضل مرسى قرطجة ـ تصل الى البحر المتوسط فكانت لها مواصلات بحرية مع الخارج ـ وهذا المقرى الذي يروي لنا ما قاله الشقندي فى شأنها « وعلى واديها من البساتين المتهدبة الاغصان والنواعير المطربة الالحان والاطيار المغردة والازهار المتنضدة ما قد سمعت ... وهي بلدة تجهز منها العروس التي تنتخب شورتها ، لا تفتقر فى شيء من ذلك الى سواها وهي للمرية ومالقة فى صنعة الوشي ثالثة وقد اختصت بالبسط التنتيلية التي تسفر لبلاد المشرق وبالحصر التي تقلف بها الحيطان المبهجة للبصر ... » (15)

ومعلوماتنا فى العهد الذي نحن بصدد دراسته ناقصة فيما يتعلق بعدد سكان عمالة مرسية . الا أنه من المعلوم أنها كانت حافلة بالسكان . وقد بلغ عددهم 150 ألف بينما كان عدد سكان المدينة يبلغ ثلاثين ألفا وقد حدثنا الشقندي مرة ثانية عن أخلاق أهلها قائلا : « ولاهلها من الصرامة والاباء ما هو معروف مشهور ... وأهلها أكثر الناس راحات وفرجا لكون خارجها معينا على ذلك بحسن منظره » (16)

كانت مرسية مركزا لمسجد وجامعة ، فامتازت بحركة ثقافية كما يدل على ذلك عدد العلماء والشعراء المرسيين وقد روى لنا أسماءهم المؤرخون والمترجمون .

جزيرة شقر : توجد على مسافة 18 ميلا من بلنسية فى الجنوب الغربي وهي مدينة تستحق اهتمامنا لأن الشاعر ابن خفاجة الذي هو موضوع بحثنا قد ولد بها . وكلمة شقر فى الحقيقة ترجمة لكلمة « خوكار » ، اسم النهر الذي يقع منبعه فى جبل الكوأنسة ــ من الجهة الشمالية الشرقية ــ فيسقي هذه المدينة ثم يتابع مجراه الطويل الملتوي حتى ينتهي الى البحر المتوسط غير بعيد عن « كوليرا » فى جنوب بلنسية . وقبل وصوله الى البحر فانه يتفرع الى فرعين يحيطان بجزيرة سماها العرب « جزيرة شقر » أو « الجزيرة » باختصار وهي نفس الكلمة التي نجدها فى التسمية الحالية « السيرة » (17)

فهي مدينة قديمة التأسيس ، وقد أقيم بها فى عهد الرومان مركز استراتيجي ذو أهمية كبرى . ولحسن الحظ فان التاريخ احتفظ لنا بوصف هذه العمالة لمؤرخين ، أولهما الجغرافي الادريس الذي كان معاصر ابن خفاجة ، اذ يقول « وجزيرة شقر حسنة البقاع كثيرة الاشجار والانهار وبها ناس وجلة وهي على قارعة الطريق الشارع الى مرسية » . (18)

والثاني الجغرافي عبد المؤمن الحميري من أواخر القرن السابع الهجري . فهي مقالة أطول من الاولى فيقول فيها « جزيرة بالاندلس قريبة من شاطبة وبينها وبين بلنسية ثمانية عشر ميلا . وهي حسنة البقعة كثيرة الاشجار والثمار والانهار وبها أناس وجلة وبها جامع ومساجد وفنادق وأسواق وقد أحاط بها الوادي

والمدخـل اليهـا فى الشتـاء علـى المراكب وفى الصيف عـلى مخاضة » (19) . ويشعر الحميري بما أسلوبه من جفاء فيعمد الى الشعراء الذين تغنوا فى شعرهم بهذه الجزيرة فيذكر أولهم ، أي ابن خفاجة نفسه ، فى قصيدة رائعة سيأتي الكلام عنها ثم أبا المطرف بين عميرة .

وفى منتصف القرن الخامس الهجري تمتعت المنطقة بازدهار مادي عظيم ، وفى القرن التالي عندما أصبحت تحت سيطـرة المسيحيين اعتنوا بتنمية خصوبة أراضيها فحفر بها جاقمة الاول قناة لجلب الماء وارواء نواح بعيدة ومضاعفة انتاجها .

ولا نعلم ، بطبيعة الحال ، كم كان عدد سكان جزيرة شقر غير أن من المحتمل أن يقدر عددهم فى القرن الخامس بما يقرب من 30 ألف ساكن (20) ومن المحتمل أيضا أن مستواهم الثقافي كان راقيـا .

فهذه المدينة الصغيرة الغنية الرائعة المناظر ، قدر لها أن تكون مسقط رأس الشاعر ابن خفاجة عاشق الطبيعة . وقد كـانت تتمتع ، الى جانب ذلك ، بطقس مثالي ، لأنها محمية عن الرياح الداخلية بجبال عالية تجاه البحر المتوسط . وكانت اذ ذاك من أنزه المدن يتوجه اليها الناس ليتمتعوا بهوائها وعذوبة العيش فيها . وهذا المقري الذي يروي لنا ما يلي :

« وكان الوزير أبو بكر بن عبد العزيز فى زمان عطلته ، ووقت اصفراره، وعلته، ومقاساته من العيش أنكده، ومن التخوف كثيرا

ما ينشرح بجزيرة شقر ويستريح ، ويستطيب هبوب تلك الريح ، ويجول فى أجارع واديها ، وينتقل من نواديها الى بواديها ، فانها صحيحة الهوا ، قليلة الادوا ، خضلة العشب والأزهار ، قـد أحاط بها نهرها كما تحيط الاسوار ، والأيك قد نشرت ذوائبا على صحفيحه ، والروض قد عطر جوانبا بريحه » . (21)

وفى النصف الأول من القرن الخامس الهجري كانت جزيرة شقر مقر أسرة تنتسب حسبما يبدو الى طبقة اجتماعية غير وضيعة وكانت تعرف باسم (خفاجة) . فاذا أردنا أن تتعرف الى من كان يحمل هذا الاسم فاننا لا نجد الى ذلك سبيلا لقلة ، أو قل لعدم ، وجود معلومات فى شأنه . أما ابنه أبو الفتح بن خفاجة فيبدو أنه كان من أعيان المدينة عاش فى سعة بفضل أراض كان يملكها . فتمتع ورثته من بعده بما خلفه لهم (22) وهذه جملة ما نعرفه عن هذه الشخصية ...

واذا أردنا من جهة أخرى أن تتعرف الى الاسرة التي أسسها أبو الفتح فلا نجد من المعلومات ما يشفي الغليل ، فلا نعرف عنه الا أنه ولد له ابن اسمه ابراهيم . وهو الشاعر الذي تتعرض لدراسته ــ وبنت سيكون لها (23) ولد سنتكلم عنه فيما بعد

فتاريخ ولادة أبي اسحاق ابراهيم المعروف بابن خفاجة قد بلغنا مضبوطا لا مجال للشك فيه ... فمن الذين ترجموا لــه نخص بالذكر ابن خاقان الذي لازمه وقد يصرح بأن ابن خفاجة ولد سنة 450 هـ . الموافقة لسنة 1058 مسيحية ويحيط الغموض

التام بسنوات طفولته الا أنه من المحتمل أن يكون قد حفظ القرآن ودرس الاحاديث النبوية كجميع أقرانه فى هذه المرحلة من حياته حسب طريقة التعليم المعروفة فى ذلك العهد .

أما وقد ولد فى أسرة كانت تتمتع بالسعة والرخاء كما ذكرناه آنفا ، فمن المتوقع أن يكون معدا ليتلقى تربية حسنة وتكوينا ملائما لمرتبته ومواهبه ـ ففي أي مدينة تكون وفى أي عهد ؟ لا ريب أن يكون ذلك فى المدينتين المجاورتين : مرسية وشاطبة ، فبهما كان يقيم أدباء وفقهاء ذوو علم وكفاءة ـ واننا لنجهل الوقت الذي غادر فيه ابن خفاجة مسقط رأسه والمحتمل أنه كان يتردد على المدينتين المذكورتين . وعلى كل حال فان بعض المترجمين احتفظوا لنا بمعلومات تمس تكوين صاحبنا .. وهذا ما يسمح لنا أن نميز بين تكوينه الديني الاسلامي وتكوينه الادبي ، لا لغاية علمية ، وانما رغبة فى أن يأتي عرضنا واضحا مرتبا . وقد يرجع الفضل فى ذلك الى المؤرخ ابن الأبار الذي احتفظ لنا ببعض أسماء شيوخ ابن خفاجة فى التفسير والحديث والفقه . ومن بينهم ابن أبي تليد (24) الذي نشأ بشاطبة سنة 444 هـ . وحسبما يظهر فانه لم يغادر قط مدينته هذه ، حيث كان مفتيا بها فالمحتمل أن يكون ابن خفاجة قد انتقل الى شاطبة واتصل بهذا العالم ـ الذي لا يكبره فى العمر الا ببعض السنين ـ واستفاد من دروسه . وابن تليد كان من أولائك العلماء الذين يثيرون الاعجاب بعلمهم وثقافتهم الواسعة (25) . فكان له الأثر الكبير على الشاب ابن خفاجة وعلى غيره ، وبقيت شهرته تتزايد

فى السنوات الموالية ، فهذا الفقيه لم يقتصر على العلوم الدينية اذ كان كذلك أديبا وشاعرا . ولا ريب أن ابن خفاجة قد تأثر به فى هذا الميدان ...

وقد يذكر ابن الأبار شخصية ثانية وهو الفقيه أبو بكر بن الأسود (26) الذي لم نوفق فى بحوثنا الى تعريفه ، الا أنه من المتوقع أن يكون قد لعب دورا هاما فى تكوين ابن خفاجة بحيث أصبح هذا الاخير راوية لأستاذه .

أما مشايخه فى تكوينه الادبي فقد عثرنا على اسم شخصية بارزة كان لها الدور الاساسي فى هذه الفترة من حياة ابن خفاجة الشاب رغم عجزنا عن الاحاطة بها على نحو ما يحب ونعني بذلك الاستاذ ابن صواب (27) الذي نشأ بمدينة شاطبة حوالي سنة 430 هـ .

ومما لاشك فيه هو أن ابن خفاجة تتلمذ عليه . أكان ذلك بمدينة شاطبة ؟ معلوماتنا الحالية لا تسمح لنا بالاجابة عن هذا السؤال ، لأن الاستاذ ابن صواب كان يحب السفر ، وقد سافر مرارا داخل بلاد الاندلس قبل أن يرحل الى المغرب حيث توفي بمدينة مكناس . وأما السنة التي تابع فيها ابن خفاجة دروس ابن صواب فلم نوفق الى اثباتها ، فلم يبق لنا الا أن نفترض ان ذلك كان حوالي سنة 470 أي عندما بلغ ابن خفاجة العشرين من عمره ــ فابن صواب قبل أن يدرس الطب اهتم بالبحث وتدريس النحو واللغة والادب ــ وقد خصه ابن خفاجة بالذكر فيما بعد بقصائد

شعرية يبوح فيها بعواطفه الودية ومعترفا للأستاذ بفضله الجزيل ، قصائد لم تحفظ لنا ، الا أننا نعثر فى الديوان على رسالة (28) بعث بها ابن خفاجة الى ابن صواب تفيض مودة وتدل على وثاقة العلاقات التي كانت بين الرجلين اذ اصبحا صديقين حميمين .

وقد يخطر بالبال ان ابن خفاجة بدأ بدراسة النحو واللغة والأدب قبل دراسته الفنون الفقهية ، وذلك حسب طرق التعليم الشائعة فى بلاد الاندلس حينذاك (29) ومهما كان الأمر قد أعرض ابن خفاجة عن العلوم الفقهية والدينية بعد ما حصل على المهم فى مدة من الزمان قصيرة ، وذلك رغم امتيازه فى هذه الفنون وتفوقه، فالمؤرخ ابن الآبار يأسف على اعراض ابن خفاجة عن هذه العلوم وهو يتمتع بمواهب تسمح له بالارتقاء الى أعلى درجة فى حلقة مشاهير الفقهاء ، يقول فى كتابه التكملة : « وروي عن أبي بكر بن أسود ولو اعتنى بهذا الشأن لروي عن شيوخ شيوخه » ويشير الى ذلك مرة ثانية فى كتابه المعجم حيث يقول: « ولم يكن الحديث شأنه ، ولو عني بذلك لأمكنته الرواية عن العذري وغيره من شيوخ أبي علي » .

وأول سؤال يتبادر الى فكر القاريء هو أنه لماذا أعرض ابن خفاجة عن العلوم الفقهية بعد ما تعرض لها .

ما هو السبب أو الأسباب التي رغبته عنها ، الجواب لا يمكن أن يكون الا ثمرة اجتهاد شخصي فمن المحتمل آن نجد علتين نحاول بهما تفسير هذه المشكلة . الأولى هي ان ابن خفاجة كره

الوسط الذي كان يعيش فيه ، واشمأزت نفسه من بعض الفقهاء ، وأصحاب الدين ، حينما أطلع على قلة مروءتهم وعدم همتهم ، وعبثهم بالمبادىء الدينية ، واستعمالهم الدين وسيلة من الوسائل لبلوغ أهدافهم وارضاء رغباتهم الشخصية المادية ، فهذا الشاب المتحمس لم يملك نفسه فاضطرب وضاق صدره ، وأوى الى الهجاء هجاء لاذع مرير ــ وأمثال ابن خفاجة من الشعراء كثيرون يقول معرضا برجال الدين ساخطا على سيرتهم الشنيعة :

درسوا العلوم ليملكوا بجد الهم فيها صدور مراتب ومجالس

وتزّهدوا حتى أَصابوا فرصة . في أَخذ مال مساجد وكنائس(30)

وهو سبب يجعل من شاعرنا رجلا تقيا مخلصا ، متصفا بالأخلاق المحمودة أما العلة الثانية ، فننظر من خلالها الى ابن خفاجة كأي رجل من الناس ، مع ما للانسان من غرائز محمودة ومذمومة، فمن المحتمل أن يكون قد درس الفنون الفقهية ليستعين بها على الارتقاء الى درجة عالية فى السلك الاجتماعي وليرضي رغبات شخصية ، فلم يوفق لسبب ما فى سعيه هذا ، ومن خاب سعيه تغيرت عواطفه ، فنظر الى طبقة الفقهاء نظرة ساخطة ، وأراد أن يشنع بهم لينتقم منهم لأنه لم يستطع أن يحل محلا فى صفوفهم، ولذلك جاء بهذين البيتين . وعلى ضوء هذا نفسر سفره الى المهدية ليتصل بالشيعي الفاطمي الأمير تميم بن المعز (32) فى محاولة لبلوغ غايته . ويلاحظ المستشرق بيريس أن ابن خفاجة

مدح بقصيدة (33) أبا الحسن بن الحداد (34) الذي لا نعرف عنه أشياء كثيرة الا انه كان شاعرا ونحويا من المقربين لدى تميم بن المعز . ومع هذا يبقى السفر مشكوكا فيه ، لأنه لم يرو لنا الا مرة واحدة فى التكملة ، ولم يقيد ابن الأبار خبره بأي تاريخ ، وفضلا عن هذا فان التعبير الذي جاء به صاحبه ورد مبهما : فاستعماله العبارة « فى صباه » تدعونا الى الاعتقاد بأن ابن خفاجة لم يكن بعد شاعرا بأتم معنى الكلمة ومع هذا فان المستشرق بيريس رأى من الممكن أن يقول : فان ابن خفاجة شاعر الجزيرة زار تميم بن المعز بمهدية وذلك بعد ما نزل بحنين قادما من تلمسان » .

ومهما كان الأمر فمما لا سبيل الى الشك فيه هو ان ابن خفاجة عندما عاد الى الاندلس عــاد الى المذهب السني . وسنــرى أن ديوانه خال من أية اشارة تدل على انتمائه الى مذهب الشيعة ومع ذلك فقد كان يميل الى بعض فحول شعراء الشيعة .

على ان ابن خفاجة ، فيما يبدو ، توجه نحو الأدب والشعــر ليختبر سبلهما ويتخذهما وسيلة لبلوغ غايته . فمن المسلم به انه كان يميل الى الشعر ويتذوقه ، ولكن ليس فى وسعنا أن نحدد التاريخ الذي بدأ ينتهج فيه منهجه الشعري . ومن حسن الحظ أن الايام خلفت لنا مقدمة لديوانه حيث يرسم هو بنفسه الخطوط العريضة لحياته الشعرية اذ يقول : « فانني كنت والشباب يرف غضارة ، ويخف بي غرارة ، فأقوم طورا وأقعد تارة ــ قد جنحت الى الادب أرتاده مرتعا ، وأرده مشرعا ، فما تصفحت مثل شعر

الرضي ، ومهيار الديلمي ، وعبد المحسن الصوري ـــ ومن حذا حذوه وأخذ مأخذه ـــ حتى تملكني من تلك المحاسن الرائعة الرائقة ، والألفاظ الشفافة الشائقة ، ما يناسب برد الشباب رقة ، وبرد الشراب ريقة ، فما كان الا أن ملت اليه وأقبلت عليه ، أروقه وأرويه ، وأحاول التشبه بواحد واحد فيه (35) ومن ثم يبدو لنا أن الشاب ابن خفاجة وقد تذوق الادب سعى فى طلب ثقـــافة واسعة ، وذلك بمطالعة دواوين شعرية عديدة متنوعة . وانا لنجد فى ديوانه أبياتا أو سطورا لعدة شعراء ضمن شيئا من شعرهم ، ومنهم مجنون ليلـــى (36) والفـــرزدق (37) وأبو تمـــام (38) والبحتري (39) وأبو نواس (41) الشاعر المجدد الذي راج شعره بين الاندلسيين رواجا لم يعرفه غيره ، أو قطعا شعرية مقلدا فيها ابن الرومي (42) الشاعر المعروف بقصائده فى الوصف ولا سيما قصيدته فى وصف الورد التي كانت تعتبر من أروع ما قيل فى هذا الموضـــوع .

فهذه المحفوظات كلها أو ما بقى منها تبين لنا مدى تأثر شاعرنا بهؤلاء الا أننا عاجزون عن بيان مدى هذه التأثرات بدقة ، فأما الشعراء الذين سجل ابن خفاجة أسماءهم والذين اقتدى بهـــم فتعيننا على تعرف ذوق الشاعر فى خطواته الأولى .

فالأول من بينهم هو المتنبي (43) شاعـــر البلاط ، الكوفي المنشأ ، الذي قضى سنين عديدة بالشام . وانتماؤه الى الشيعة فى شبابه غير مستحيل ، أما انتماؤه الى فرقة الاسماعيلية فأمر ثابت ، وديوان شعره كان متداولا بين الاندلسيين منذ قرن ،

وابن خفاجة لا محالة كغيره ، كان يجد فى شعر المتنبي ما يستولي على حواسه لما فيه من فخامة وعظمة فهو يقول فى مقدمته : (44) « ذلك فيما يشوق ويهز ويروق من لف الغزل بالحماسة وهي من أساليب أبي الطيب . »

وهذا شاعر آخر لا يقل شهرة عمن سبق ذكره ألا وهــو الشريف الرضى (45) الشاعر الشيعي صاحب الاخلاق اللطيفة المعروف بانشراحه ورحابة صدره وقد قضى حياته كلها ببلاط الدولة البويهية فى العراق . وكان لشعره رواج عجيب ببــلاد الأندلس فاستحسن ابن خفاجة تلك اللطافة وذلك الحنان اللذين امتاز بهما شعر الرضي ولا سيما فى مرثياته .

وهذا شاعر آخر لا زال غير معروف الا انه حسب ما يبدو كان من الشعراء المجيدين فى عصره ــ وهــو عبــد المحســن الصوري (46) شامي الأصل ، عاش فى القرن الرابع الهجري وديوان شعره وان لم يحتفظ به لنا التاريخ ، كــان معروفــا بالأندلس وذلك فى منتصف القرن الخامس ، فمهما كان الامر فان ابن خفاجة درس هذا الشعر واستحسنه ولا سيما الغزل الذي كان يمتاز باناقة الأسلوب ، وانسجام التركيب ، وموسيقى الابيــات .

ولنذكر فى النهاية مهيار الديلمي (47) ، المقتــدي بشريف الرضى ، المعجب بشعره ، وقد اشتهر هو كذلك بمرثياتــه . كان فارسي الاصل ، وقضى حياته ببغداد فى عهد الدولة البويهية

وأصبح شاعرا مشهورا، وامتاز شعره بالدقة ، وصرامة الأسلوب، وطول النفس مما جعل مهيار الديلمي شاعرا جدليا وقد تفرغ لفرقة الرافضية رافعا لواءها ، مقاوما عنها بعنف وحماسة واخلاص وذلك ارضاء لعقيدته الصادقة بهذا المذهب . ان اطلاع الأندلسيين على ديوانه الضخم غير مشكوك فيه ولكن لا علم لنا بالظروف التي سمحت بانتشاره ، وعلى أي حال فان شعره كان مستحسنا لدى أهل الأندلس وقد تأثر به ابن خفاجة تأثرا ما .

٫ خلال دراستنا لهؤلاء الشعراء الذين كان يميل اليهم ابن خفاجة ، ويتذوق شعرهم لم نعثر على شاعر من شعراء الطبيعة ، مثل الصنوبري (48) أشهرهم ، لنتبين مدى تأثر ابن خفاجة به فى هذا الفن . فهلا يثير هذا تعجب القاريء ؟ . ان الصنوبري كان معاصرا للمتنبي ، عاش بالشام ، وأجاد كل الاجادة فى وصفه الطبيعة شعرا ، وكان ديوانه مشهورا فى الشرق منذ زمن ، وعرف فى بلاد الأندلس فى النصف الثاني من القرن الرابع الهجري ، وذلك بفضل أبي الحسين بن فارس الرواية (49) الذي جاء به فى سفره الى الغرب ثم اتصل بالمستنصر بالله (50) وتفرغ الى التعليم فساعده ذلك على اذاعة مؤلفات شرقية عديدة ببلاد الأندلس وكان شعر الصنوبري يمتاز بنوع من الأناقة والتنسيق فى الاسلوب ، وبموسيقى الابيات وانسجامها ، وهي أوصاف تستميل ــ لا محالة ــ شاعرنا الحساس .

من المحتمل آن يكون ابن خفاجة قد تعمد اغفال هذا الشاعر ، ألا ترى انه استقى منه بصفة مفرطة حتى خشي ألا يعترف لـه بأي فضل سوى فضل المحاكاة لشاعر أقدر منه . وقد لاحـظ المستشرق بيراس : « انه ليس من العسير أن نبين كم كان ابـن خفاجة مدينا للبحتري والصنوبري، ألم يلقب هو نفسه بصنوبري اسبانيـا ؟ » (51) .

والآن فما الخلاصة التي نريد أن ننتهي اليها على ضوء ما سبق لنا من الكلام ؟ من المفيد أن ننبه الى أن ابن خفاجة اقتصر فى ذكره على شعراء من الشرق عاشوا كلهم فى القرن الرابع الهجري وأعرض عن آخرين من اصحاب المؤلفات والدواوين ـ شرقيين وغربيين ـ كانوا معروفين لدى الأندلسيين ، وقد جاءت أسماءهم مسجلة فى فهرسه المؤرخ ابن خير . هل من المحتمل ألا تكـون هناك أسباب تعلل تفضيل ابن خفاجة أولائك الشعراء عـلى غيرهم ؟ أفلا يجوز لنا أن نقول ان ابن خفاجة نظـرا لتكوينـه الكلاسيكي لم ير من يحتذيه الا من الشرقيين ، وهذا الاعتقاد راسخ عريق فى بلاد الأندلس ، فكانت رغبة كل واحد هي أن يعادل شخصية من الشخصيات البارزة فى الشرق ومن هنـا نفهم ما معنى تعداد الالقاب المستعارة من المشرق التي يتلقب بها الأمراء والوزراء والشعراء فأصبح ابـن هانيء (52) متنبي الغرب ، وابن زيدون بحتري الغـرب ، فسراب الشرق مستمر دائم لا سبيل الى التخلص منه ، وذلك رغم ان كتابا أندلسيين حاولوا صد مواطنيهم عن هذا الاعتقاد المزيف ، ولنذكر مـن

بينهم ابن حزم (53) وكتابه « فضائل الاندلس » وأبا الوليد الحميري (54) فى « البديع فى وصف الربيع » وبعدهما ابن بسام فى ذخيرته . فلم يوفق أيهم فى سعيه ، ولكن حسب ما يبدو ، وكما يشير اليه المستشرق بيراس ، كان جيل ابن خفاجة قد خطا خطوة جديدة ، وكون شيئا فشيئا مدرسة شعرية تمتاز بخصائص أندلسية (55) ونلحظ أن الشعراء الذين ذكرهم ابن خفاجة فى مقدمته ينتمون الى مذهب الشيعة وهذا مما لا يخلو من فائدة ولا سيما اذا راعينا ان مذهب الشيعة كان فى ذلك العهد يمر بمرحلة التدهور فى المغرب والمشرق . فهل تأثر ابن خفاجة بهذا المذهب فى صباه ؟ قد يبقى هذا مجرد سؤال ، لأن العناصر التي لدينا لا تتضمن ما يسمح لنا باثبات ذلك ، ومن جهة أخرى فابن خفاجة فى ديوانه لم يشر ولو مرة الى هذا المذهب ، ويبدو أنه كان يجهل حتى ابن هانيء ، ذلك الشاعر السياسي ، رافع لواء الشيعة فى المغرب .

وفضلا عن هذا التعليل العاطفي فان شاعرنا حاول أن يلتمس دروسا فى الفن حتى يتكون فى هذا الميدان تكوينا حسنا فاهتم كثيرا بالأسلوب متفقدا الصور البلاغية والبيانية الأنيقة فيحكم عليها ويتذوقها فيستسلم طربا الى ما فى البيت الشعري من موسيقى وانسجام .

وفى هذا المقام فاننا نعثر فى ديوانه على قصتين لهما أهمية ما

حيث تبينان لنا مدى شغف شاعرنا بالأسلوب ، ففي الخبر الاول يذكر ابن خفاجة بيتا من الشعر للمتنبي ، هو :

نزلنا عن الأَكوار نمشي كرامة لمن بان عنه أن نلم به ركبًا

ثم ينتقده بقوله :

« وفى بيت المتنبي لفظة تغض من شرفه وهي لفظة « من » وهي ها هنا مستجفاة لا مستحلاة ولو أنه قال :

نزلنا عن الأَكوار نمشي كرامة لأَهليه ان نغشى رسومهم ركبا

لجاء البيت أتم حلاوة وجزالة لكن أبا الطيب انما كان يهتبل بالمعاني ولا يبالي بالالفاظ ، وربما قال قائل : للفظة « بان » معنى فى البيت فيقال له : ان لفظة « الرسوم » تعطي ما تعطيه لفظة « بان » من اقواء المنزل فاللفظان متساويان هنا وربما أنكر علينا منكر ما أوردناه فى لفظة « من » اما لاعتياده انشاد البيت حسب ما وقع حتى ألفته نفسه وطبعه واستساغه لسانه وسمعه واما لجساوة فى حسه وغباوة فى نفسه وذلك ما ليس فى رفع أوده من أمل ولا عمل . والدليل على ما ذكرناه فى لفظة « من » انك تجد قولك « لقيت من ضرب زيدا » ينزل عن قولك « لقيت الذي ضرب زيدا » وقولك « لقيت الذي ضرب زيدا » ينزل عن قولك « لقيت ضارب زيد » وكل ذلك انما ينزل فى النفس عن مرتبة الجلالة لا عن المعنى .

وربما حمل علينا حامل فقال : ان هذا الرجل يتعاطى رتبة الشعر فوق رتبة المتنبي وليس الأمر كذلك لأنه لم يعترضه فى جملة شعره وانما اعترضه فى لفظة وهذا ليس بمستنكر ولا بمستكبر . » (56)

والقصة الثانية يقول فيها ابن خفاجة :

« ذهبت يوماأريد باب السمارين بشاطبة ابتغاءالفرجة علىجرية ذلك الماء بتلك الساقية وذلك سنة ثمانين وأربع مائة واذا الفقيه أبو عمران بن أبي تليد ـ رحمه الله ـ قد سبقني الى ذلك فالفيته جالسا على مصطبة كانت هناك مبنية لهذا الشأن فسلمت عليه وجلست اليه متأنسا به وبتلك الحال فأنشد أثناء ما تناشدناه قول ابن رشيق (57) رحمه الله :

يا من يمر ولا تمر   به القلوب من الحُرَقْ
بعمامة من خدّه   أَو خدّه منها استُرِقْ
فكأَنه وكأنها   قمر تعمّم بالشفَّق
فاذا بدا وإذا مشى   وإذا رنا وإذا نطق
شغل الجوانح والجوا   رح والخواطر والحدق

فقال وقد أعجب بها جدا ، وأثنى عليها كثيرا : أحسن ما فى القطعة حسن سياقة الأعداد فقلت له : هي حسنة ولكنها دون موقعها منك والا ألست تراه قد استرسل فلم يقابل بين ألفاظ

البيت الأخير والبيت الذي قبله فينزل بازاء كل واحد منها ما يلائمها ؟ وهل يحسن أن ينزل بازاء قوله :

واذا « نطق » قوله « شغل الحدق » ؟ وكأنه نازعني القول فى هذا غاية الجهد فقلت أنسج على ذلك المنوال :

ومهفهفٍ طاوي الحشى خَنِثِ المعاطف والنظرْ
ملأَ العيون بصورة تُلِيَت محاسنها سُوَرْ
فإذا رنا وإذا شدا وإذا سعى وإذا سفر
فضح المُدامة والحما مة والغمامة والقمر

فاستحسنها ابن أبي تليد » (58)

فاهتمام ابن خفاجة بالأسلوب البلاغي لم يصده عن « الأغراض الشعرية التي تعرض لها الشعراء السابق ذكرهم — — لأنه كما سنراه كان شاعر الطبيعة ، متأثرا بمن وصفها قبله ، ولا سيما الصنوبري كما ذكرناه ، ثم شاعر بلاط بعد الكهولة متأثرا بالشعراء المادحين.

لذلك ، فيما يبدو ، ما طلبه ابن خفاجة لدى شيوخه ولدى الشعراء الذين كان معجبا بهم ولذلك عندما خطا الخطوات الاولى فى العالم الشعري جاءت قصائده اقتداء بهم وتقليدا لهم ، وفى نظرنا فان ثقافته الواسعة وتعلقه الشديد بالشعر لا يسمحان له أن يترعرع ويبلغ الغاية لو لم ينشأ فى تلك الجزيرة الرائعة

المناظر ، بحدائقها اليانعة الخلابة . وانا لنجد فى الديوان ما يؤيد قولنا وهو ما كتبه الناسخ فى مقدمته وقد كان من المعجبين بابن خفاجة فيقول : (59) اكثار هذا الرجل فى شعره من وصف زهرة ، ونعت شجرة ، وجرية ماء ، ورنة طائر ، ما هو الا لأنه كان جانحا الى هذه الموصوفات لطبيعة فطر عليها وجبلة ، واما لأن الجزيرة كانت داره ، ومنشأه وقراره ، وحسبك من مـاء سائح ، وطير صادح ، وبطاح عريضة ، وأرض أريضة ، فلم يعدم هنالك من ذلك ما يبعث مع الساعات أنسه ، ويحرك الى القول نفسه ، حتى غلب عليه حب ذلك الأمر ، فصار قوله فيه عن كلف لا تكلف ، مع اقتناع قام مقام اتساع ، فأغنـاه عـن تبـذل وانتجـاع » (59) .

وخلاصة القول فان ابن خفاجة أقبل على الشعر معتمدا على ذوقه الجبلي وعلى طبيعة جزيرته الساحرة الفتانة التي أوحت له بأسرارها .

* * *

ها هو شاعرنا قد بلغ الآن عنفوان الشباب ، وكمل تكوينا فلنسايره حتى نطلع على حياته فى هذه الفترة من الزمان . وأول ما نلحظه ان ابن خفاجة لا يكاد يغادر مستقره بجزيـرة شقر ، فنراه منبسطا متنعما فى أحضان هذه المنطقة التي امتازت كمـا ذكرنا بمحاسنها الخالدة ، والتي تعلق بها تعلق المحب بحبيبته . وفضلا عن هذا فان ابن خفاجة كان نحيلا ، فلم يرغب فى الترحال لما يسببه له ذلك من مشاق وتعب. يتحدث عن نفسه فى رسالة

بعث بها الى ابن صواب بالعدوة 60 فيقول : « ومما آخل بعهد المطالعة ان الجزيرة ــ حرسها الله ــ بحيث لا يسافر عنها ولا يورد عليها هذا الى ما أنا بسبيله من ضعف طبيعي ، وكسل يتشبه بعي » ، فمن اليسير أن تتخيل ابن خفاجة سعيدا فى جولاته الطويلة فى نواحي جزيرته منغمسا فى أحلامه ، معتمدين فى ذلك على كاتب آخر حساس مثله ، ألا وهو الكاتب المشهور الفرنسي جان جاك روسو الذي وصف لنا الاوقات الفريدة فى نوعها التي عاشها فى وحدته بين أحضان الطبيعة .

فابن خفاجة لم يسافر اذن الا قليلا . وفى غالب الأحيان لم يتجاوز حدود شرقي الأندلس فكان يكتفي بزيارة بلنسية ومرسية وشاطبة حيث يبقى أياما معدودة . واذا صدقنا ما ورد فى قصة رواها المقري فى كتابه نفح الطيب (61) فان شاعرنا قد غادر مرة بلاده ، فسافر الى العدوة ، ونزل بمدينة من مدن سواحل المغرب ، ربما بطنجة أو تطوان أو سبته ، وفى عودته الى بلاده لقي الشاعر عبد الجليل ابن وهبون ــ الذي سنتكلم عنه ــ فى ظروف يذكرها ابن خفاجة بنفسه اذ يقول : « صاحبت فى صدرى من المغرب سنة ثلاث وثمانين وأربع مائة أبا محمد عبد الجليل بن وهبون شاعر المعتمد ، وكان أبو جعفر بن رشيق يومئذ قد تمتع ببعض حصون مرسية وشرع فى النفاق ، وقطع السبيل واخافة الطريق . ولما حاذينا قلعته وقد اختمدت جمرة الهجير ، وصل الركب رسيمه وذميله ، وأخذ كل منا يرتاد مقيله ، اتفقنا على أن لا نطعم طعاما ، ولا نذوق مناما حتى نقول فى صورة تلك الحال، وذلك الترحال ما حضر.وشاء الله أن أجبل ابن وهبون

فاعتذر وأخذت عفو خاطري فقلت أربض نار نزوته وأعـرض بعظيم لحيته ... ثم تأتي أربعة أبيات من الوافر .

معلوماتنا الحالية لا تسمح لنا أن نثبت الأسباب التي دفعت ابن خفاجة الى هذه الرحلة الى المغرب كما لا تسمح لنا باثبات مدة قيامه به ونعثر فى ديوانه على ثلاث مقطعات شعرية (62) حيث يذكر الشاعر فيها مدينته تلك الجنة الأرضية متشوقا اليها تشوقا شديدا ، وهذا يدل على الأقل على أن شاعرنا كان بعيدا عن وطنه ، ويدل على ذلك أيضا ملاحظة الناسخ عندما صدر مقطعة بقوله : « وقال فى التشوق الى الاندلس وهو بالعدوة ».

وأن فقدان المعلومات التي تعيننا على اثبات التاريخ الذي قيلت فيه هذه المقطعات الشعرية يحملنا على القول بأنها قيلت فى واحد اثر سفره الوحيد الى المغرب .

وكان ابن خفاجة يتمتع بهذه الحياة الهادئة الرغدة فلم يتذوق مرارة الاحتياج بفضل ما كان يملكـه بالجزيـرة مـن أراض يستغلها فعاش سعيدا مرتاح البال لا يفكر فى أي مهنة يمتهنها ليحصل على قوت يومه . وهذا ما سمح له أن يحتفظ بحريته فلم يضطر الى ملازمة رجال السلطة ولم يعرف حياة البلاط ــ وذلك الى سنة 510 هجرية ــ مع ما فيها من اضطرابات ومكايد لا تكون عواقبها الا سيئة ، فرفض دائما أن يتفرغ لخدمة أمير أو وزير ولم يستسغ المدح فى شعره رغم تهافت ملوك الطوائف على الأدباء والشعراء عارضين عليهم لاستمالتهم أموالا كثيرة .

فاذا أضفنا الى هذا ما اتصف به ابن خفاجة من همة وشهامة ــ فضيلتان نادرتان فى العالم الشعري العربي أشار اليهما كل من ترجم له ــ أدركنا جديا تشبثه بحريته ومحافظته عليها باجتنابه باديء الأمر رجال السلطة حتى لا يمس فى كرامته . وهذا المبدأ الاخلاقي السامي لم يترك المجال لأي طموح ولو ضئيلا أن ينشأ أو يوجد ، وحتى لا يخالجنا شك فى هذا المقام ، نستشهد بابن خفاجة نفسه وقد اضطر الى التصريح بأنه لم يرغب أبدا فى جمع أموال هذه الدنيا فقال : ولو انني شئت استدرار اخلاف العيش ، وقرعت أبواب الرزق ، لكددت وجددت أو حثثت الركض وجهدت ، وجبت السباسب أدرية ، وخضت النوائب أودية ، ورعت الكواكب أندية ، حتى أخيم حيث السماء دار ، والسماك جار ، وأرفل حيث العزة حلة ، والثروة حلية ، ولكن بين جنبي قلبا همته ما همته ، فهو يرى الصبر أيمن رفيق يصحبه ، والقناعة أكرم ذيل يسحبه ، وعلام يبتذل الوجه مصون مائه ، ويلقي عنه قناع حيائه ، وانما الدنيا ــ وبئس الطمع ــ سحابة صيف عن قريب تقشع » . (63)

وإذا التفتنا الى المجتمع الذي عاش فيه شاعرنا فانه كان يعرض للعين الناظرة مشاهد مؤلمة محزنة ، وهذا ما جعل ابن خفاجة لا يفكر الا فى الابتعاد عن هذا الجو الفاسد ، حيث أصبح العبث سائدا ، فشاهد بنفسه انحلال المباديء الاخلاقية واهانة القيم الانسانية اهانة خطيرة ، حتى أصبحت حياة المرء كلا شيء . فكيف بوسع الانسان أن يتصور السعادة فى عالم

يسوده الجور والتجبر ، فى عالم يخشى فيه الانسان أن يهلك فى كل لحظة . فابن خفاجة ، مثل معاصريه ، فقد الثقة فى الحياة والاطمئنان ، فاستولى على قلبه الرعب لعدم الأمن ، فأصبح بطبيعة الحال متشائما تشاؤما يكاد يكون مرضا ، ويظهر لنا خلال أبيات عثرنا عليها فى ديوانه أنه كان يأخذ احتياطاته دائما قبل أن يفوه بكلمة أو يقوم بحركة . ألم يوص قارئه بافراط ألا يأمن الى شيء عندما يقول : (64)

لا تُودِعَنّ ولا الجماد سريرة فمن الصوامت ما يشير فينطقُ
وإذا المحلك أَذاع سرّ أَخ له فأنظرْ فديتلك من تراه يُوَثَّقُ

وانه لمن الممكن أن نعلل خوفه من الموت وقد استولى على حواسه كلها ، بما كان يشاهده فى مجتمعه من اضطراب مستمر ، فهو والاطمئنان والثقة بالحياة على طرفي نقيض.

وفكرة الموت تتردد بطبيعة الحال فى شعره غير مرة كأن ابن خفاجة فى حاجة الى تذكير نفسه بهذا الوعيد الذي لا مفر منه.

ومن جهة أخرى فقد عثرنا على خبرين وان كان مشكوكا فى صحتهما الا أننا نعتقد ان لهما أهمية ما ، وبفضلهما تتبين الاحوال النفسية لشاعرنا فالأول رواه المؤرخ الضبي فى كتابه بغية الملتمس اذ يقول : أخبرني بعض أشياخي عنه أنه كان يخرج من جزيرة شقر وهي كانت وطنه أكثر الأوقات الى بعض تلك الجبال التي تقرب من الجزيرة وحده فكان اذا صار بين جبلين

نادى بأعلى صوته يا ابراهيم تموت ! يعني نفسه فيجيبه الصوت ولا يزال كذلك حتى يخر مغشيا عليه . » (65)

كان لهذا الانزعاج من الموت الاثر الكبير فى سيرة شاعرنا فظل يستحضر لا محالة هذه الحادثة فى جميع أقواله وأفعاله ، الا أنه ينبغي أن نلاحظ ان موقفه هذا لم يكن سلبي النتائج دائما ، وقد استفاد ابن خفاجة بالخلوة الى نفسه ، ليتأمل كنه الحياة ويفكر فى ما وراء الطبيعة . ففكر فى مصير الخلق ، ودوره فى الحياة ، وفى كل ما يثير حيرة الانسان ، لعله يجد حلا يقع منه موقع الرضى فيذوق الراحة والاطمئنان .

وها هو ابن خفاجة يحدثنا بنفسه فيقول : (66)

غيري من يعتدّ من أنسه ما نال من ساق ومن كأسه
وشأن مثلي ان يُرى خاليا بنفسه يبحث عن نفسه

والخبر الثاني (67) رواه الكثيرون ممن ترجموا لابن خفاجة ونخص من بينهم بالذكر ابن بسام وابن خاقان اللذين رويا هذا الخبر عن شاعرنا بنفسه ويتضمن حوادث فيها نوع من الغرابة ، يقول ابن خاقان فى قلائد العقيان : وأخبرني أنه لقي عبد الجليل الشاعر بين لورقة والمرية والعدو بأليبط لا يريم ، يفرغ تلك الربي ، ولا يزال يروع حتى مهب الصبا ، فباتا ليلتهما بلورقة ، يتعاطيان أحاديث حلوة المساق ، ويواليان أناشيد بديعة الاتساق، الى أن طلع لهم الصباح أو كاد ، وخوفهم تلك الانكاد ، فقام

الناس الى رحالهم فشدوها ، وافتقدوا أسلحتهم فأعدوها ، وساروا يطيرون وجلا وان رأوا غير شيء ظنوه رجلا ، فمال اليه عبد الجليل وفؤاده يطير ، وهو كالطائر فى اليوم العاصف المطير ، فجعل يؤمنه فلا يسكن فرقه ، ويؤنسه فيتنفس الصعداء تثيرها حرقه ، فأخذ فى أساليب من القريض يسليه بأشغاله بها ، وايغاله فى شعبها ، فأجبل على تذييل واجازة ، واختبل حتى لم يدر حقيقة النظم ولا مجازه ، الى أن مرا بمشهدين عليهما رأسان باديان ، وكأنهما بالتحذير لهما مناديان ، فقال أبو اسحاق مرتجلا :

أَلاَ رُبَّ رأس لا تزاور بينه   وبين أَخيه والمحلّ قريب
أَناف به صلد الصفا وهو منير   وقام على أَعلاه وهو خطيب

فقال عبد الجليل مسرعا :

يقول حِذارا لا إغترارا فطالما   أَناخ قتيل بيِ ومرّ سليب
وينشدنا إنا غريبان ها هنا   وكل غريب للغريب نسيب
فان لم يزره صاحب أَو خليلة   فقد زاره نسر هناك وذيب

فما أتم قوله حتى لاح لهما قتام كأنه غمام ، فانقشع عن سربة خيل كقطع الليل ، فما انجلت الا وعبد الجليل قتيل ، وابن خفاجة سليب . وهذا من أغرب تقول وأصدق تفول . »

يبدو لنا من خلال هذه القصة ان ابن خفاجة كان يؤمن بالتفاؤل فربط بين رؤية المشهدين وما وقع له ولرفيقه ، وهذا مما

يؤكد ـ ان كنا فى حاجة الى ذلك ـ ان ابن خفاجة كان يتوقع الموت دائما فأصبح شغله الشاغل لا يخلو باله منه حتى فى رحلاته وفضلا عن هذا فاننا نلاحظ خلال هذا الخبران ابن خفاجة اتخذ موقفا يخالف ما سبق لنا من الكلام عنه اذ لم يظهر عليه أثـر الخوف ، واستطاع أن يملك نفسه رغم خطر اللحظة . وسر ذلك فيما يظهر لنا هو رؤية رفيقه ابن وهبون خائفا خوفا شديدا يكاد يطير له منه لبه . ومن ثم فقد تشجع بمن هو أجبن منه . ومن المحتمل أيضا أن يكون ابن خفاجة قد اعتاد حوادث مثل هذه ، فى عهد كثرت فيه الحروب ، وتضاعف عدد الموتى ، وهذا ما أدى بشاعرنا الى الاستسلام بين يدي القدر يفعل به ما يشاء .

فهل يجوز لعاقل أن يتصور السعادة فى عالم كله شقاء وحيث الانسان كرة تتلاعب بها الايام ؟ لقد أجاب ابن خفاجة بلا تردد عن هذا السؤال ، وعبر عن فقد أمله فى الحياة وعن عدم اغتراره بهـا يقـول : (68)

ما للزّمان يجور في أَبنـائـه حكما ويرمقهم بعين العـائب
فيحطّ علـوَهم ويرفع سفُلهم فكأنّهم قلم بيمنى كـاتب

فما عاناه شاعرنا من هموم وأحزان بسبب الحروب المستمرة التي كانت تساوره فى كل مكان عمق تشاؤمه بالحياة . تشاؤما لا سبيل الى التخلص منه ، ومهما كان الأمر فان ابن خفاجة ،

بقطع النظر عما شاهده فى عهده ، يعتقد ان الحياة نقيض السعادة، اذ لكل انسان أجل مسمى أليس هو القائل : (69)

50 ـ الا ان جسما يستحيل لتربة

وان حيـاة تنتـهى لخـراب

ويقول أيضا :

الا قصْرُ كلٍّ بقاء ذهـاب وعمران كـلّ حيـاة خراب

لقد قضى حياته كلها فى ارتياب يخشى فى كل لحظة أن يفقد صديقا أو رفيقا يخلفان وراءهما فراغا لا يطاق ، وهذا ما يحمل شاعرنا على الاصرار فى اعتقاده بأن غاية كل ما على وجه هذه الأرض هو الفناء . يقول معبرا عن حزنه وقلقه من جور هذه الحيـاة : (70)

أفيِ كلي يـوم رجفة لملِـمَّـة

كما دمعتْ تحت الحيا عين نرجس

أَبيت له تندى جفوني لوعةً بفَقْد خليل يملأُ الْعينَ مؤنس

وحَسْبِي إذا ما أَوْحَشَتْني كُرْبة بمؤنس يعْقوبِ ومنقذِ يُونسِ

ولكن كان من العسير على ابن خفاجة أن يقضي هذه الحياة مع قصرها وتعاستها فى الانعزال والتحسر ، فهلا يوجـد دواء يستطيع أن يتحمل بفضله عبئها ؟ لقد اعتزم عندئذ أن يسير سيرة غيره فى عهده ، حتى يشعر بالارتياح فى نفسه ، بعد أن تنـاول

ذلك الدواء العالمي ضد القلق والانزعاج ، ألا وهو الانغماس في المجـون .

ويدعو ، مثل ما فعل من قبله أبو نواس ، قارئه الى الاقتداء به ، ويصرح له بقوله : (71)

الا ان خفض العيش في صرخـةِ الْـعَزْفِ
فجرِّرْ ذيول اللهو في منزل القَصْفِ
وغازل به حلو المحاسن واللَّمَى
شهيَّى الجَنَى لَدْنَ السّجيَّةِ والعِطْفِ

فهو لا يبالي الا بما تسمح له به الحياة من لذة ولهو في الوقت الحاضر ، ولقد عبر في بيت من الشعر عن منهجه في الحيـاة بقولـه : (72)

إنَّمـا العيش مـدام أَحمـرٌ قـام يسقيه غلامٌ أحـور
وعلى الأَقـداح والأَدواح مـن حَبَبٍ نَثْرٌ ونَوْرٍ جـوهـر
فكأن الدَّوْحَ كـأس أَزبدت وكـأن الكـأس دوح يزْهِر

لا انا نجد في ديوان الشاعر عددا وافرا من المقطعات الشعرية قيلت في الخمر والغزل ، الا أنه ينبغي أن نستثني البعض منها ، حيث تعرض فيها ابن خفاجة الى أغراض شعرية اقتداء بمـن سبقه من الشعراء ، أولئك الذين دعوا غيرهم الى اللهو والمجون وما عدا ذلك فكل ما قاله ابن خفاجة في هذا الصدد ليس مجرد

قول ، فقد خبر هذه اللذائذ بنفسه ، وتمتع بها تمتعا حقيقيا ، وبنفس الشغف المألوف عند الشبان ، والدليل على ذلك واضح فى شهادة معاصره ابن خاقان لما ترجم له فى كتابه القلائد . الى جانب ما اشتهر به ابن خفاجة من عدم الاستقرار ، حتى انه لم يعرف الحياة الزوجية ، مفضلا التمتع بالجواري ممن ملكت يمينه ، يقضي وقتا مع هذه ووقتا آخر مع تلك . ويظهر لنا من خلال قصيدة له انه رغم تقدمه فى السن ، لم يزل مغرما بالجنس اللطيف ، فوصف لنا آمة له حديثة السن ، اسمها عفراء ، وصفا دقيقا لما امتازت به ذاتها من محاسن ، متأسفا على ما يعانيه من الحرمان فيقول : (73)

وأَقْرِىء عُفَيْرَاءَ السلام وقل لها

ألا هل أَرى ذاك السُّهى قمراً تَمَّا

وهل يَتَثَنَّى ذلك الغصن نظرةً

بجِزعيى وهل أَلْوِيِ معاطفَه ضمّا

ومن لي بذاك الْخِشْفِ من مُتَقَنَّصٍ

فآكلَه عضّا وأَشربَه لثمـــا

ودون الصِّبيِ إحدى وخمسون حجةً

كأني وقد ولّتْ أرِيتُ بِهَا حُلْمَا

فياليت طيرَ السَّعْدِ يَسْنَحُ بالمُنَى

فأحْظَى بها سهما وأَبْأَى بهاقِسْما

ويا ليتني كنت إبْنَ عشْرٍ وأَرْبَعٍ
فلم أَدْعُهَا بنتا ولم تَدْعُنِي عمًّا

وابن خفاجة قد تغزل بالغلمان أكثر من مرة ، ويجدر بنا أن نقدر هذا الانتاج حق التقدير ، حتى لا يفوتنا أن معظمه جاء على طريقة تقليدية ، اذ لم يكن ابن خفاجة ذلك الرجل الفاجر المستهتر ، بل كان فنانا لطيفا حساسا ، لا يذكر هؤلاء الغلمان الا باشارات خاطفة متجنبا فيها الكلام الفحش ، كما نجد ذلك عند أبي نواس مثلا : وهذا ما يؤدي بنا الى القول بأن ابن خفاجة لم يكن سجين شهوات بهيمية ، وانما كان يهوى تلك اللذة المعنوية اللطيفة ، التي تسمح بها رؤية الغلام ذي القامة المعتدلة ، والنظر الفتان، والصوت الرخيم ، والحركات المنسجمة، والمشية الرشيقة ، فاعجابه اذن بالغلمان ما هو الا اعجابه بالجمال ، فهو يعبد الجمال للجمال لا لغرض آخر . وقد حاول أن يبرر هذا لنفسه عندما قال : (74)

أَنّي والعَفَافُ من شِيَمِي آبَى الدَّنَايَا وأعشق الحسنا

ان ابن خفاجة وهذا من خصائص شعره الاساسية — يجمع دائما بين الطبيعة والخمر والحب . فالطبيعة اليانعة فى نظر فنان مثله هي الاطار المثالي لكي تنعقد فيه مجالس الانس .

فشتان عندئذ بين ابن خفاجة والانعزال المطلق والوحدة المتوحشة وبالاحرى بينه وبين التنسك تؤيد هذا القول ولا

تترك مجالا للشك فيه علائقه مع أصدقاء ينبغي الآن أن نهتم بهم حتى نتعرف اليهم ، ونتبين سلوك ابن خفاجة في الصداقة . وسوف يتجلى لنا خلال شعره أنه كان يقدس الصداقة ويعتبرها من أهم الاشياء في حياة الانسان فقد وجه قصائده لا الى من كان يعيش بالاندلس فحسب بل الى من كان على سفر أو غائبا لمدة طويلة من الزمان معبرا عن عواطفه الودية الوثيقة ، وعن تشوقه الشديد الى هؤلاء الاحباب ، أو على الاقل الى رسائلهم الممتعة ، ينتظرها بفارغ الصبر ، وما لدنيا ، مع الاسف من أسماء معدودة لشعراء وأدباء اصطفاهم ليكونوا له أصدقاء قليل للغاية غير أن التعرف اليهم يعيننا على كل حال في دراسة سلوك ابن خفاجة في هذا المقام .

نحن نعرف أنه لكرامة نفسه لم يرض البتة أن يكون شاعر بلاط ، غير ان ناسخ ديوانه في مقدمة لقصيدة (75) لاحظ ما يلي : وطرأ ان المعتصم ابن صمادح (76) رحمه الله ـ أحضر مجلسه في بعض ليالي أنسه صورة حسنة ركبت من ريحان في هيئة جارية ثم طيبت وقلدت وأمر من حضر من الشعراء بوصفها ..

فشارك ابن خفاجة في هذه المباراة الشعرية فخصص البيتين الاولين في مدح المعتصم وعلينا أن نتساءل عندئذ : هل أتيح لابن خفاجة أن يحضر مجالس كهذه مرات أخرى ؟ وهل طلب منه أن يقول شعرا يمدح به الامير لارضائه ؟ كل ما بلغنا من شعر في ديوانه لا يتضمن أي اشارة تسمح بجواب ايجابي . فابن

خفاجة فى رأينا لم يشارك فى هذه المباراة الشعرية الا صدفة . وهي ليست بدليل على ان المعتصم كان ممدوح شاعرنا كما ظنه بعض نقاد العصر الحديث .

د من بين الاشخاص الذين لازمهم ابن خفاجة وأثروا عليه فى حياته نذكر الشاعر عبد الجليل ابن وهبون (77) الذي ولد بمرسية فى سنة غير معلومة . ولقد تمتع بالشهرة وهو على قيد الحياة ، فالتحق بواسطة الوزير ابن عمار الشاعر ، ببلاط الامير المعتمد، فتعرف به ابن خفاجة من دون شك بمدينة مرسية التي كـــان يتردد عليها . ولكن لم نوفق فى اثبات تاريخ هذه الملاقاة ، ولا فى كشف ظروفها ، أما ما لا ريب فيه فهو أن ابن وهبون كان ماجنا مستهترا منهمكا فى اللذات فقال عنه مترجمه ابن خاقان : « وكان كلفا بالغلمان مكسفا بين الخوف والايمان فان الانفراد كان بهم عليه محجورا وكان من أجلهم ممقوتا ومهجورا فانـــه اشتهر فى حبهم أشد اشتهار واستظهر على كلفه بهم والشطف والاقتتـــار . »

وقد روي لنا أن ابن وهبون قضى نحبه أثناء سفره الثاني حيث فى القصتين اللتين ذكرناهما مسافرين معا بالعدوة .

وقد روي لنا ابن وهبون قضى نحبه أثناء سفره الثاني حيث أن فرقة من قطاع الطريق انقضت عليه فقتلته وسلبت رفيقه الا أن ظروف هذه الوفاة غير جلية وبخاصة اذا لاحظنا ان ابن خفاجة أحاط هذه الحادثة بصمت مطبق . وهي حادثة مؤلمة كان من

الطبيعي أن تؤثر فى نفسه تأثيرا شديدا ومن العجب ألا يبكي شاعرنا صديقه الحميم ، واننا فعلا لا نجد فى ديوانـه مرثيـة نظمها فى هذا الشأن ، اللهم الا اذا كان قد نظمها ولم يحتفظ بها لنا التاريخ .

ومن الجدير بالذكر ان ابن خفاجة حافظ على علائق ودية وثيقة مع أستاذين من أساتذته فى الادب . فكان يجب أن يلتقي بأبي اسحاق بن صواب وابن أبي تليد ليتطارحـوا القصائـد الشعرية تارة ناشدين وتارة ناقدين .

* ومن بين الاصدقاء الاتراب الذين اتصل بهم ابن خفاجة فى صباه نذكر ابن أبي ربيعة 78 الذي نشأ فى جزيرة شقر وكان مع ابن خفاجة تلميذا فى آن واحدة قد أصبح ابن أبي ربيعة مفتيا بمدينة بلنسية . واستمر كلاهما يضمر للآخر مودة خالصة طيلة حياته وقد قال فيهما ناسخ الديوان فى مقدمته : « وكان قد جمعت بينهما أذمة الشباب ومحضر الكتاب وقراءة الحساب والآداب فكانا من الانتظام والالتحام بحيث لا يريان ينفصلان حتى اخترمته الوفاة ص 178 .

* وان وفاة صديق حميم كهذا وهو لا زال فى ربيع عمره تركت ابن خفاجة خائر القوى يتخبط فى ألم شديد ليس لـه دواء . فخلف لنا فى هذا الشأن ثلاث مرثيات طويلة لا تقل عن 139 بيت (رقم 133 ، 165 ، 175) . وهو فى المرثية الاولى يشكو ألمه لفقدان رفيقه وان هذا الفراغ المروع لم يترك له أي أمل فى الحياة

ويزداد ألمه عندما يذكر فضائل ابن ربيعة والاماكن التي قضيا بها أياما سعيدة ، فيقول : (133)

7 ـ فإذا مررتُ بمعهد لشبيبة أو رسم دار للصديق خلاء

8 ـ جالَتْ بطرفي للصبابة عبرة

كالغيم رقّ فجال دون سماء

ثم يقول :

14 ـ لا هزّني أملٌ وقد حلَّ الرّدى

بأبي محمد المحلَّ النَّائِي

* وفى المرثية الثانية يستمر ابن خفاجة فى وصف نفسيته فنجد له أبياتا فى الزهد يحاول أن يتسلى بها كما نجد نفس الافكار التي وردت فى المرثية الاولى ويقول ابن خفاجة فضلا عن هذا : (165)

27 ـ ومما شجاني أَن قضى حتف أُنفه

وما اندقّ رمحٌ دونه وذُبَابُ

28 ـ وأنَّا تجارينا ثلاثين حِجَّة ففات سباقا والحِمَامُ قِصَابُ

29 ـ وكيف تها جَرْنَا كهُولاً إنّما

لوى الدهر فرعيْنا ونحن شباب

* وفى المرثية الاخيرة يؤكد ابن خفاجة على العلائق الودية التي

كانت بينه وبين ابن ربيعة والتوافق الحاصل بينهما فى ميادين شتى فكان يعتبر ابن ربيعة أخا له بل الصديق الفريد الذي ما يتاح له أن يراه أبدا ، ماعدا فى أحلامه ، فيقول : (175)

6 ــ جاريتُه طلْقَ الحياة إلى الرّدى
فحوى به قصبَ السباق جواد

7 ــ كنّا اصطحبنا والتّشاكلُ نسبةٌ
حتى كأنّا عـاتقٌ ونجـــاد

8 ــ ثم افترقنا لا لِعَوْدَةِ صُحبةٍ حتّى كأنا شُعْلَــةٌ وزنـــاد

22 ــ وأَخٌ لِوَدٍ لا أَخ لولادة وأمسّ من نسب الوِلادِ ودا د

وقد كان ابن خفاجة يعد أيضا أبا عبد الله محمـــد بــن عائشة (79) بين أصدقائه الاصفياء وابن عائشة بلنسي الاصل الا أننا لا نعلم تاريخ ولادته بالضبط وقد يجوز أن يكون من أتراب ابن خفاجة ، فالمؤرخ ابن بســام (80) ، ومــن بعــده المقري (81) ، هما اللذان أشارا الى الرجلين فى رفقة شعــراء يتجاوبون شعرا فى وصف جزيرة شقر بمناظرها الخلابة . وهذا ما يسمح لنا بالقول أنهما اصطحبا فى عهد شبابهما وابن عائشة كرفيقه كان أديبا بارعا وشاعرا يشهد له بكرم الطبع ، ووقف بمواهبه كلها على وصف الطبيعة .

وقد خصه ياقوت بالذكر (82) فوصفه لنا ملازما للطبيعــة مغرما بها يجول بين أحضان حدائق الجزيرة ، مسقط رأس ابن

خفاجة ، ومن اليسير أن نلاحظ أن كل شيء ــ المنشأ والذوق ــ كان يدفع بالرجلين أن يلتقيا ، وأن تكون بينهما مودة أصيلة . وهذا ابن خفاجة نفسه يقول عن صديقه فى رسالة : (83) « ولما تحرك فلان (ابن عائشة) ــ أبقاه الله ــ تحركت بحركته ، وتيمنت باسمه وبركته ، وكتبت مطلعا ومستطلعا ، وحملته شرح حلوي ومري مستودعا ، وهو جاري بيت بيت ، وعنده من أمري كيت وكيت ... »

وقد نعثر فى ديوان شاعرنا على ثلاث مقطعات شعرية قالها فى ابن عائشة تؤكد لنا ما سبق من الكلام .

فالاولى (رقم 4) كتب بها الى ابن عائشة « يستدعيه للانس به والراحة معه فيما كانا يشتركان فيه من نظر ولطب صديق لهما تعذرت معالجته وطالت شكايته » وفى الثانية (رقم 204) يصرح ابن خفاجة بعد زيارة ابن عائشة له بما كان يضمره من عواطف فيقول :

3 ــ فأرى به للقلب قلبًا ثانيا عِزًّا وللعينين عينا ثالثهْ

وأما الاخيرة (رقم 171) فقد يبدو ان ابن خفاجة نظمها وقد اشتعل رأسه شيبا فيفتخر فيها بابن عائشة الذي لا يزال صديقا له وذلك منذ عهد الشباب فيقول :

11 ــ وظفِرتُ منه على المشيب بصاحبٍ

خلفَ الشباب فلي إليه نزاعُ

12 ـ قد كنتـ أغلي في ابتياع وداده

لو أنّ أعلاقَ الـــوداد تبـــاع

فمن المحتمل أن تكون القصيدة قد وجهت الى ابن عائشة بعد ما استوزه الامير المرابطي علي بن يوسف وولاه على بلنسية.

ومن أصدقاء ابن خفاجة ينبغي أن نذكر ـ وان كان أصغر منه ـ أبا بكر محمد بن مفوز (84) الذي ولد سنة 1071/463 بشاطبة . وقد يكون ابن خفاجة قد تعرف به بهذه المدينة قبـــل أن يغادرها ابن مفوز ليستقر بقرطبة حيث تفرغ لتدريس العلوم الدينية بالمسجد الكبير ـ وليس فى وسعنا هنا أيضا أن نحقق لا التاريخ ولا الظروف التي تحيط بقيام هذه العلائق الودية . الا أن من المسلم به أن ابن مفوز كان فضلا عن تفقهه رجلا أديبا وشاعرا فيما يظهر مستحسنا ، وثبتت بين الرجلين مراسلة اذ نجد فى ديوان شاعرنا قطعتين من الشعر أرسل بهما ابن خفاجة الى صديقه بقرطبة فالاولى (رقم 131) وجهها له يستنهضه فى أمر عرض له بالحضرة . وفى الثانية (رقم 159) يعبر ابن خفاجـــة عن المودة الخالصة التي يضمرها لصديقه فيقول :

5 ـ فلقد نأى ما بيننا فمغرِّبٌ مستوطِنٌ ظَهْرَ النوى ومُشَرِّقُ

6 ـ ولئن سلوْتَ وما إخاللك ناسيا

كَرَمَ الإخـــاء فانني أتشـــوّق

وقد توفى ابن مفوز فى ربيع عمره لا يتجاوز سنه اثنتـــين

وأربعين سنة واننا لنستغرب مرة أخرى من عدم وجود مرثية فى الديوان كان من حق ابن خفاجة أن يودع بها صاحبه ، بعد هذه الكارثة الاليمة . أليس من المحتمل أن يكون ابن خفاجة قد نظمها ولم تحتفظ لنا ؟ .

* واننا لنعلم بفضل المؤرخ ابن الأبار ان ابن خفاجة اتصل بشخصية بارزة فى عصره الا وهو أبو علي الصدفي (85) الذي كان أصغر منه بسنوات اذ نشأ أبو علي بسرقسطة سنة 454 هجرية / 1062 مسيحية فكان فقيها مشهورا عالما بالحديث وطرقه فرحل الى المشرق سنة 481 ولقي عددا من علماء ذلك العصر ثم عاد الى الاندلس قصد مرسية سنة 490 واستوطنها واستقضي بها ثم استعفي من القضاء فأعفى وأقبل على نشر العلم وبثه فرحل الناس من البلدان اليه وكثر سماعهم عليه . فهل كان ابن خفاجة من هؤلاء الناس ؟ ابن الأبار يشك فى ذلك غير أن من المحتمل أن يكون ابن خفاجة عند مروره بمرسية قد زار أبا علي تقديرا واحتراما للعالم واعترافا بفضله ، الا أننا نلاحظ أن شاعرنا لم يخلف لنا قصيدة فى أبي علي الصدفي فى ديوان شعره الذي بين أيدينا .

ونذكر شخصية أخرى ليست لدينا عنها معلومات كثيرة ، فنجهل مثلا تاريخ ولادتها ومسقط رأسها . الا أن ابن خفاجة فيما يبدو كان يضمر لها مودة خالصة وينزلها منزلة الاصفياء وهي شخصية ابن أمية ابراهيم بن عصام . (86)

نعلم حق العلم أن ابن عصام بعد تكوين فقهي متين استقضى

بمرسية وأقام فى ولايته نحو 35 سنة من سنة 1089/481 الى يوم وفاته سنة 1121/516 الا أنه صرف عن خطة القضاء مدة قصيرة فى أوائل القرن السادس الهجري فى عهد الامير المرابطي على بن يوسف لأسباب غير واضحة فقد يكون ابن خفاجة من أنداده وتعرف به بمدينة مرسية حوالي سنة 1089/481 .

وابن عصام هذا كان له ــ فضلا عن تفقهه ــ حظه من الآداب وأنواع البلاغة وشعر مستحسن فيما يبدو وكان ابن خفاجة يعد ابن عصام من أحب أصدقائه ويفتخر بذلك . والدليل عليه أن شاعرنا نظم فى حق صديقه لا أقل من خمس قصائد تتفاوت طولا بين 24 و 58 بيتا مجموعها 210 بيت . فالقصيدة الاولى (رقم 3) ــ التي نظمت حسب ناسخ الديوان سنة 497 قد كتب بها ابن خفاجة الى قاضي القضاة مكافأة له عن بره واقباله عليه ــ فيقول :

3 ــ عوجَا على قاضيِ القضاةغُدَيَّةً
في وَشْيِ زَهْرٍ أَوْ حُلَى أَنْدَاء

4 ــ وتحمّلا عنّي إليه أمانة من علقِ صدقٍ أَوْ رداء ثناء

ثم يستمر فى وصفه مبرزا فضائله المحمودة من رحمة وكرم وطلاقة والقصيدة الثانية (رقم 5) وجهت الى ابن عصام وقد وهت رجله بعثرة فى وهاد أثناء ليل فكانت هذه مناسبة أخرى لابن خفاجة كي يمدح صديقه ويصفه بالاخلاق الكلاسيكية المعروفة مثل الكرم والشجاعة والعدل وهلم جرا وافتتحها بقوله :

2 ــ بذاتِ المكارم ذالك الألَمْ وفيِ الله ما ناب تلك القَدَمْ

فهي قصيدة مدحية باطارها المعهود وهذا ما يسمح لنا بالقول أنها نظمت بعد سنة 500 هجرية أي بعد ما أصبح ابن خفاجـة شاعر البلاط ... أما القصيدة الثالثة (رقم 126) 0 فقد هنأ بها القاضي أبا أمية بعودته الى خطة القضاء بعد صرفه عنها وافتتحها بقولـه :

1 ـ بشرى كما أسفر وجه الصباح

واستشرف الرائدُ برقـاً ألاحْ

وأتبع قصيدته هذه برسالة رصعها بالحكم والأمثال السائرة ثم كرر تهنئاته معتذرا عن عدم القيام بزيارة اليه فيقول :

« فاني ـ وان عاقني عن مفترض المزار تظاهر الاعذار مـع شحط المنازل وتنائى الديار ـ لتحت شوق يسرج ويلجم ، ويكاد يقدم فيهجم ، وبسط العذر مما أسأله ومثلك ـ دام عزك يقبله. »

أما القصيدة الرابعة (رقم 149) فقالها كذلك فى مدح صديقه وضمنها أوصافا سبق ذكرها يتحلى بها كل ممدوح ذي شأن .. ونجد من خلالها ابن خفاجة شاعر البلاط ، فقد نظمها اذن بعد أن غير سلوكه فى الحياة حين أصبح همه الاتصال بالاقوياء ليلجأ اليهم فيكون محميا مؤمنا . أما القصيدة الخامسة والاخـيرة (رقم 215) فهي مرثية نظمها ابن خفاجة تعزية لصديقه بعد وفاة أمه ويصف له فيها حزن الجماهير التي تشاركه أحزانه فيقول :

6 ـ أهوْلٌ به يوم رُزْءٍ فـادح سحبَ الصباحُ له ذيولَ مساء

7 ـ متلاطم الأَحشاء تحسب أنه

بَحْرٌ طَمَى متلاطمُ الارجـــاء

8 ـ جمع الحِدادَ إلى العويل فما ترى

في القوم غير حمامةٍ وَرْقَــاء

9 ـ من ماسح عن وجنة ممطورة

أو رافــع من زفــرة صُعَــداء

ويستمر فى قصيدته آتيا بأبيات تنتمي الى الزهد ، يتخللها مدح صديقه ، ثم يأتينا برسالة تابعة لهذه القصيدة ، يتكلم فيها ابن خفاجة عن نفسيته ، وشدة حزنه ، لفقدان هذه الكريمــة الفاضلة فيمدحها محاولا لا تسلية ابن عصام ، الا أنه غير مغرور فى ذلك فيقول :

« وما كتبت ــ أدام الله توفيقك ! ــ أذكر وأبصر فأنت بما منحك الله أذكى وأحضر فهما وأزكى » .

ويضاف الى هذه الأسماء اسم شخصية أخرى كان بينها وابن خفاجة علائق ودية وثيقة ، ونشير بذلك الى عبد الله بن السيد البطليوسي ، (87) الذي كان أسن من ابن خفاجة بست سنوات فقد ولد سنة 444 هجرية / 1052 مسيحية بمدينة بطليوس (فى اسبانية بداخوس) .

كان لابن السيد فى دولــة بني رزين مجال ممتد ، ومكــان

معتد ، الا أن هذه الحالة لم تدم ، فقد جفاه ابن رزين فقصد مدينة سرقسطة واستقر بها مدة من الزمان ، ثم عاد الى بلنسية فاستوطنها . وربما تعرف به ابن خفاجة فى هذه المدينة نفسها حين كان ابن السيد يتمتع بشهرة واسعة . وهذا ابن خلكان يقول عنـــه : « كان ابن السيد النحوي عالما باللغات والآداب متبحرا فيهما مقدما فى معرفتهما ... وكان الناس يجتمعون اليه ويقرأون عليه ويقتبسون منه . » فكانت بين الرجلين مراسلة ، وفى هذا المقام يهمنا أن نشير الى أننا نجد فى ديوان ابن خفاجة مقطعة شعرية (رقم 53) جوابا عن شعر لابن السيد ورد عليه فى نفس العروض والروي ، وفيها يمدح ابن خفاجة تفنن وبراعة وبلاغة شعر مراسله الجليل ، فافتتحها بقوله :

1 ـ أَبِرُّكَ أَمْ ماءٌ يسحّ وبستان وذكرك أَم راح تُدار وريحان

3 ـ وهل هيِ الا جملة من محاسن

تَغايَرُ أبصـــارٌ عليهـــا وآذان

4 ـ بأمثالها من حكمةٍ فيِ بلاغةٍ

تَحَلَّلُ أَضغانٌ وترحل أَظعان

* وقد يتعجب الانسان عندما يلاحظ أن ابن خفاجة كان يعد من بين أصدقائه ابن أخته ، رغم حداثة سنه ، وهو المسمى بأبي الحسن بن عطية ، المعروف بابن الزقاق (88) ، الذي نشأ بمرسية حوالي سنة 487 هجرية / 1093 مسيحية . ومن حسن حظه ان كان تلميذ خاله ، فاشتهر ابن الزقاق ــ لا محالة ــ بحب الطبيعة

وبرع فى وصفها ، شعرا كما اشتهر فى نظم الموشحات . وانا لنجده فى رفقة خاله ، والشاعر ابن عائشة ، بين أحضان الطبيعة بجزيرة شقر ، يصف كل منهم ما يشاهده فى تلك الحدائق من مناظر فتانـــة .

ويرى الشقندي ان ابن الزقاق كان شاعرا طريفـا لطيفـا ، امتاز بعذوبة الاسلوب ، لما وفق اليه فى استخدام الاستعارة .

فمن الهين عندئذ أن ندرك لماذا مال ابن خفاجة الى ابن أخته ، وسمح له بالدخول فى مجالس أنسه . ولكن يا للأسف فان هذا الشاب قد اختطفته المنية بغتة . فصدمت هذه المصيبة الفديحة ابن خفاجة صدمة عنيفة فقد من أجلها وعيه . فنظم مرثية هي عبارة عن صرخة اليأس ، حيث لا يرى ابن خفاجة أيةوسيلة ليتسلى بها عن فقدان ابن أخته (رقم 205) . وافتتح مرثيته بقوله :

أَرقتَ أَكفَ الدمع طورا وأَسفح

وأَنضح خدَّي تـارة ثـم أَمسح

وكان الفتح ابن خاقان (90) المؤرخ كذلك من أصدقاء ابن خفاجة . فصاحب قلائد العقيان ولد بسخرة الولد فى ضواحي قرطبة ، فلم يعرف له مستقر ، وقد قضى حياته فى الترحال من مدينة الى أخرى ، الى أن استوزره أمير غرناطة المرابطي ابـــن يوسف ابن تشفين بن علي . فلعل ابن خفاجة قد التقى به عند مروره بجزيرة شقر أو بمدينة مجاورة لها فى سنة وظروف غـــير معروفة ، وكان ابن خاقان مشهورا بالمجـــون والانغمـــاس فى

الشهوات ، يكاد لا يصحو من سكره ، وكان قبيح اللسان ، قليل الحياء . ويقال ان الناس كانوا يخشونه اتقـاء شره وهجـوه اللاذع . (91) وفى نفس الوقت يقصدونه رغبة فى أن يترجم لهم فى كتابه « قلائد العقيان » كان ابن خاقان شاعرا رديئا ولكن ناثرا ماهرا ، تمتع بالشهرة وهو ما زال على قيد الحياة . وكانت بينه وبين ابن خفاجة مراسلة مستمرة فيما يبدو ، فقد كتب اليه شاعرنا رسالة (92) يمدح فيها صديقه ويجله معبرا له عن مودته العريقة الثابتة ، وذلك فى ظروف يشرحها لنا ابن خاقان نفسه فيقول : « وكتب الي معتبا على مخاطبة لم ير لها جوابا ، ولا قرع لأنبائي بها بابا ، فكتبت اليه معتذرا بطول اغترابي ، وتوالي اضطرابي ، واني ما استقررت يوما ، ولا نقعت فى منهل الثواء ظمأ ولا حوما ، فكتب الي هذه الرسالة . »

ويأتي الكلام الآن عن صديق آخر هو ابن عثمان (93) الذي كان أسن من ابن خفاجة بأعوام اذ ولد سنة 447 هجرية بمدينة بريانة فى ضواحي بلنسية . وقد التقى الرجلان ، دون شك فى هذه المدينة نفسها . ولكن فى أية سنة ؟ وفى أية ظروف ؟ لا نعرف شيئا عن ذلك ، وعلى كل حال أنزله ابن خفاجة منزلة الاتراب الاصفياء ، فكان معجبا بأدبه وشعره ، لأن ابن عثمان كان من جلة الأدباء ومشاهير الشعراء . ونجد فى الديوان قصيدة (94) كتب بها ابن خفاجة الى أبن عثمان يراجعه عن شعر كتب به اليه وقد افتتحها بقولـه :

وحلَّةٍ من طراز النظم رائقـه هززت بأوًا بِهَا أعطافَ آمالي

الى أن يقول :

9 ـ واردُدْ تحيّةَ نائي العهدِ مدَّ بما
عاطاك من عِلْق صِدْقٍ كفَّ إجْلال

وشاء القدر أن يموتا فى سنة واحدة .

وأخيرا فهذا أبو جعفر ابن سعدون (95) الذي كان ابن خفاجة يعده من أترابه وأصحابه . وقد ولد بمدينة « مولة » وهي مدينة صغيرة فى غرب مرسية وصاحب « المغرب » يعرفه لنا بقوله « لمولة أن تفخر بانتسابه ، وتشمخ بما بهر من آدابه ، وكانت قراءته بمرسية وبلنسية ، وتردد على ملوك الطوائف فأنهى مكانه ؛ معظما شانه ، وأكثر الاقامة عند ابن رزين ملك السهلة ، ثم أورد له شعرا . » فلعل ابن خفاجة تعرف اليه بمرسية أو بلنسية ، لكثرة تردد ابن سعدون على هاتين المدينتين . وعلى أي حال فقد ثبت أن الرجلين كانا يتكاتبان ، ونجد فى الديوان قصيدة (رقم 226) يراجع بها أبا جعفر عن شعر له ، وقد قالها أثناء علة طالت به ؛ فيبدأ فى مدح صديقه ، مشيرا الى الاديب الفنان الذي تعهده فيه ، ثم يتكلم عن نفسه ، فيصرح له بما يعانيه من مرض ، ويلجأ الى نظم أبيات من نوع الزهديات يحاول أن يتسلى بها ، وقد افتتح هذه القصيدة بقوله :

1 ـ أَنفحةُ طيبٍ ما تنسّمتُ أم نَظمُ
وفضلةُ كأسٍ ما ترشَّفت أَم ظَلمُ

2 ـ خطير من الشعر اشتملت ببرده

وقد بزّ جسمي بردة الصحة السقم

* * *

لقد ألقينا نظرة عامة على هؤلاء الأشخاص الذين سبقت لنا دراستهم ومن اليسير أن نلاحظ أن ابن خفاجة اصطفى أصدقاءه من وسط معين ، وهو وسط الأدباء والشعراء ، وان علائقه معهم كانت وثيقة ، اذ كان يراسلهم باستمرار أو يكاد . وفي غالب الأحيان لا يفوت ابن خفاجة أن يصرح لأصدقائه بآرائه حول أسلوبهم وبلاغتهم فيثني على كل واحد بما يوفق اليه في أسلوبه من تعابير غير معهودة تثير اعجابه ـ ويتجلى لنا عندئذ ابن خفاجة فنانا بارعا عالما بأسرار البلاغة . وكان جل عنايته يدور حول مشاكل الاسلوب ، ولم يرض لنفسه الراحة أبدا باحثا عن التعابير النادرة الطريفة التي تروي غلته .

ومن اليسير أيضا أن نلاحظ أن أصدقاء ابن خفاجة ينتمون الى فريقين من ناحية سلوكهم في الحياة . فقد جالس شاعرنا رجالا مجانا انتهكت أعراضهم مثل الشاعر عبد الجليل ابن وهبون بدون أن يخشى لومة لائم ، فماذا كان غرضه من سيرته هذه ؟ اما أن يكون ابن خفاجة هاديء البال يفعل ما يشاء متغافلا عن القيل والقال ، واما أن يكون قد أراد أن يعبث بالمباديء الاخلاقية القائمة في مجتمعه لعدم اعتقاده بقيمتها . ومهما كان الامر

ابن خفاجة يبدو فى هذه الفترة مستقلا استقلالا تاما فله أفكاره وله سلوكه فى الحياة .

وقد جالس شاعرنا من جهة أخرى أشخاصا موقرين يتصفون بالجد مثل بعض شيوخه وسلوك هؤلاء فى الحياة ينبغي أن يكون مبدئيا مثاليا لا يسمح بالطعن فيه ، وفى الحقيقة ليس لنا علـم بحياتهم الشخصية الداخلية ، وهذا ما يؤدي بنا الـى مجـرد افتراضـات .

فاقتصار ابن خفاجة فى حياته على قول الشعر ، ومجالسـة الاصدقاء ، وجر ذيله فى اللهو والملاذ لم يترك له وقتا يهتم فيه بالمشاكل السياسية ، وقد سبق لنا الكلام عن همته الشامخة ، وحريته ازاء رجال السلطة ، ومحافظته على كرامته . وفضلا عن هذا فان ابن خفاجة لم يرفع صوته بعد واقعتين لهما الأهميـة الكبرى فى مستقبل اسبانيا الاسلامية : الأولى استيلاء الفونس السادس على مدينة طليطلة والثانية حدثت فى السنة التاليـة ، وهي انتصار الأمير المرابطي يوسف بـن تاشفين على العـدو بالزلاقـة .

ليس لدينا من المعلومات ما يسمح لنا أن نفسر هذا الموقف تفسيرا كافيا مرضيا فلم يبق أمامنا الا أن نكتفي بعرض بعض الافتراضات : الأول ــ وهو أبسطها ــ أن نفترض أن ابن خفاجة نظم فى شأن هاتين الواقعتين شعرا لم يحتفظ لنا به التاريخ . فلم يبلغنا . الا أنه ينبغي أن نتساءل عما دفع ابن خفاجة الى حذف

الاقتراض الثاني هو أن شاعرنا كان فى برج عاجي ، يعيش فى عالم من أحلام ، مثل « لا فونتـان » ، لا يستطيع معه أن يشرف على الحوادث اليومية البعيدة عن اهتمامه . ولم يكن ابن خفاجة فى موقفه هذا وبلاده تئن تحت عبء الحروب والأحزان الأليمة نسيج وحده . فالكاتب الفرنسي « جيد » مثلا لم يكتب فى يومياته ولا سطرا واحدا عن الحرب العالمية الثانية .

كان ابن خفاجة يعتبر بلا شك أن البكاء على استيلاء مدينة طليطلة أو الاحتفال بالنصر فى الزلاقة يرجع الى شعراء البلاط مثل ابن الغسال وابن وهبون اللذين قاما بمهمتهما فنظما شعرا اثر هاتين الحادثتين الهامتين .

فابن خفاجة ، وهذا افتراضنا الاخير ، كان متمسكا بمنطقة بلنسية تمسك الانسان بمسقط رأسه ، فلم يكن مفهوم كلمـة الوطن فى عهده كما هو عليه الآن فى عصرنا الحاضر ، كل يرى حدود وطنه فى حدود الدولة التي يعيش بها . وما يثبت هـذا الاعتقاد هو تجزيء بلاد الاندلس الى عدة دويلات ، عرفت بدول الطوائف كما سبق لنا الكلام عنها .

وبالعكس كان لسقوط مدينة بلنسية الأثر الشديد فى نفـس شاعرنا ، الذي عمد الى شعره فأودعه همه وغمه ، ولا يسوغ لنا أن تتهمه بأية مبالغة ، لأن مدينة بلنسية عرفت أحزن ساعات تاريخها ، وذلك بقدوم السيـد سنـة 487 هجريـة / 1094 مسيحية . (96)

كان هذا القائد العسكري الشاب يتصف بقسوة لا مثيل لها . فقاد جيشا من الجنود المرتزقة ، لا دين لهم ولا ملة ، فهاجم أهل بلنسية مهاجمة عنيفة ، وكم من شخصية ذاقت عذاب الحريق ، لنذكر من بينهم ابن الجحاف (97) صاحب أعمال بلنسية والشاعر أبا جعفر البتي (98) فأصبح أهل بلنسية فى مأزق ، واستولى على قلوبهم الرعب فأجاعهم العدو حتى استباحوا « أكل الجيفة والكلاب » وقد دامت هذه الحالة التعيسة عشرين شهرا ، رغم ما بذله القواد المرابطون من جهود عنيفة فى مقاومة العـــدو ، واسترجاع بلنسية لدولة الاسلام .

وبعد وفاة السيد سنة 492 هجرية قامت زوجته خيمينا ، ولا تقل عن زوجها قسوة وبغضا ، مقامه واتبعت خطاه فردت كل هجمات المرابطين ، وذلك مدة سنتين ، قبل أن تفشل مسلمـــة بلنسية ومصيرها الى النيران فكان لهذا الفعل الشنيع ، بطبيعة الحال ، الاثر الشديد فى نفس شاعرنا الذي ربمـــا شاهـــد رأي العين من منزله تلك النيران تتصاعد فى السماء ، ملتهمة المدينة الجميلة ، التي أحبها ومدحها أكثر من مرة فى شعره . ولا غرو أن يحرك ابن خفاجة قلمه لنظم أبيات كلها أنين وتحسر يبكي بلنسية المنكوبة (99) فيقول راثيا لها :

عَاثت بساحتك العدى يا دارُ ومحا محاسنك البِلي والنـــار

وإذا تردّد في جنابك ناظـــر طـــال اعتبار فيكِ واستعبار

أَرض تقاذفتِ الخطوبُ بأهلها وتمخّضتْ بخرابها الأَقدار

كتبتْ يدُ الحدثان في عَرَصاتها

« لا أَنتِ أَنتِ ولا الديار ديار»

وشاء الله أن يفرج عن ابن خفاجة غمه وكربه وذلك بانتصار جيوش المسلمين ، تحت قيادة الامير المرابطي المزدلي سنة 495 هجرية . فاستبشر ابن خفاجة بهذه الحادثة فنظم قصيدة رائعة فى هذا الشأن استهلها بقوله : (100)

1 ـ الآن سَحَّ غمامُ النصر فانْهَملا

وقام صَغْوِ عمود الدّين فاعتدلا

2 ـ ولاح للسّعد نجمٌ قد خَوَىفهوى

وكرّ للنَّصر عصرٌ قد مضى فخلا

الـــى أن يقــول :

12 ـ وأَقشعَ الْكُفْرُ قَسْرًا عن بلنسيةِ

فانجاب عنها حجاب كان مُنْسدِلا

* * *

* ينبغي الآن ــ وقد وصلنا الى هذه المرحلة من بحثنا ــ أن نقف برهة لنلقي نظرة عامة على الانتاج الشعري لابن خفاجة فى الفترة الاولى هذه من حياته . وينبغي قبل ذلك أيضا أن ننبه الى أن ديوان شعره الذي بين أيدينا لم يتضمن كل ما قاله ابن

خفاجة كما صرح به هو نفسه فى مقدمته اذ يقول : « ... ولما ارتقت بي السن مرتقاها وشارفت الحياة منتهاها وتوالت رغبة الاخوان فيه تتجدد ، وحرص الاعيان عليه يتأكد ، توخيت أن أقصره فى مجلد ، وأحصره وأحشره جملة ، وأنشره وكان قد باد أو كاد ، لدثور رقاع مسوداته ، واخلاق حواشي تعليقاته ، واقتضى النظر فيما حاولته أن أتعهده ثانيا تعهد مؤلف وأتفقده عائد تفقد متأمل مثقف فمنه ما تعهدته فقيدته ومنه ما لحظتــه فلفظته ومنه ما تصفحته فأصلحته اما لاستفــادة معنى وامــا لاستجادة مبنى وكان قد شاع كثير منه وذاع فمن متعلق بنفس ومن معلق فى طرس وسيختلف وجوده بما عاودناه من مفتقده ومنتقده فلا يوجد واحدا لا من طريق صيغته ولا مــن جهــة عــدده . » (101)

فما لدينا اذن من شعر ابن خفاجة هو شعر أعيد فيه النظر وقد أصلحه صاحبه وقتما كان تم تكوينه وبلغ أقصى درجة فى التفنن الشعري . ولكن يعسر علينا أن نحقق التاريخ الذي عزم فيه ــ بعد الحاح أصدقائه ــ أن يهتم بجمــع شعــره حسب الطريقة التي ذكرها سابقا . الا أنه قد يبدو خلال بعض الاشارات أن ابن خفاجة قام بهذا العمل فى آخر حياته وما يدل على ذلك هي أمنية تمناها شاعرنا ولم يسعفه الحال أن يحققها فهو الــذي يقول فى مقدمته : « ان نسأ الله فى الأجل وفسح فى المهل انتظم هذا الكتاب فى نسق القوافي غير هذا المنتظم وثبت على ترتيب حروف المعجم . » وقد يصرح فى موضع آخر بأن سنه قد ارتقت مرتقاها لما أقبل على جمع شعره .

فهذا الديوان على صورته الحالية لا يسمح لنا أن نكتشف المراحل المختلفة التي مر بها ابن خفاجة ليتمكن من فنه ويتقنه أحسن الاتقان . وهذا ما يجعل دراسة تطور ذوقه من الامور المستحيلـــة .

وفضلا عن هذا فان قلة المعلومات لا تسمح لنـــا أن نرتب قصائده ترتيبا تاريخيا مرضيا . الا أنه قد يتاح لنا أن نعثر على اشارات زمنية تتعلق بالظروف التي قيلت فيها هذه القصيدة أو تلك وقد يرجع الفضل فى ذلـــك الى الناسخ الذي صدر أغلب قصائد ابن خفاجة بكلام موجز يشرح لنا فيه هذه الظروف بدون أن يقيدها بتاريخ الا فى أماكن معدودة . ومن ثم فاننا نجد ثلاث مقطعات شعرية نظمت ســـنة 480 و 483 هجريـــة تضمنتهـــا الاقاصيص رقم 87 ــ 292 ــ 307 وقد سبق لنا الكلام حولها ــ كما نجد بعض القصائد اقتدى فيها ابن خفاجـــة بفحـــول الشعراء الذين كان معجبا بهم وأخيرا مقطعتين مسبوقتين بالعبارة « قال فى شبابـــه . »

واذا انعمنا النظر فى الانتاج الشعري لابن خفاجة حتى لحظة سكوته وتوقفه عن قول الشعر ــ تجلى لنا أنه مرآة حياته ، فصور لنا أذواقه ونزعاته . وهذا ما يؤدي بنا الى القول بـــأن شعره الهزلي نظم بلاشك فى هذه الفترة الاولى من حياته . ومن الطبيعي أن يهتم شاعرنا بنظم الشعر فى الغزل وفى الخمريات وفى الوصف متجنبا ــ كما أشرنا اليه ــ كل شعر فى المدح وما يسايره من الشعر الهجائي .

فهذا الانتاج الشعري الذي جاء فى عشرين سنة هو انتاج وافر من ناحية الكمية وقد أحصينا 198 أو 200 قصيدة شعرية تتميز بقلة عدد أبياتها ، أبيات قالها الشاعر اثر جولاته الطويلة فى أحضان الطبيعة ، تارة وحيدا وتارة فى رفقة من الجنس اللطيف ــ وهذا ما يلائم نفسية ابن خفاجة ، وذوقه ، فكان يقول الشعر حرا حسب ما يلهمه حاضره .

الفصل الثاني :

توقف ابن خفاجة عن قول الشعر ــ العودة اليه
السنوات الاخيرة من حياتــه

نصل الآن الى مرحلة غير معروفة من حياة ابن خفاجة ، توقف فيها شاعرنا عن قول الشعر ، ودام توقفــه هــذا حوالي عشر سنوات . وسنحاول أن نستفسر أول الامر عن الاسباب التي دفعت ابن خفاجة الى تغيير سلوكه فى الحياة بغتة ، مع علمنا أنه من العسير علينا أن نثبت تاريخا أو أن نحقق الظروف التي تحيط بهذه الحادثة تحقيقا مقنعا ، وقد خلف لنا ابن خفاجة تعليــلا لذلك ، فلنتأمل ما قاله فى مقدمته : « ولما انصدع ليل الشباب عن فجره ورغب المشيب بنا عن هجــره طويلــة اضراب راغب عنه زاهد فيه حتى كأني ما سامرته جليسا يشافهني أنيسا ولا سايرته أليفا بفاوهتي لطيفا » ص . 7

فلو صدقنا الشاعر فى قوله لاعتقدنا أن ما صده عن قــول الشعر الهزلي هو ما رآه من شيب علا رأســه منبئــا بانتهــاء الشباب . وقد يبدو لنا هذا التعليل ضعيفا لا يسمن ولا يغني من جوع اذ لا نفهم البتة لماذا ينضب الاحساس الشعــري فى عهد الكهولة ، أيمكن أن يكون هذا سببا من أسباب العقــم والخمول ؟ ومن جهة أخرى اذا تتبعنا ما قاله الشعراء السابقون

والمعاصرون لابن خفاجة لاحظنا انهم متفقون على هذا القول ومن ثم فليس ابن خفاجة عندئذ الا شاعرا مقلدا اتخذ موقفا لا يلائم حالته ولا طبيعته . يقول المستشرق بيريس : « انا لنملأ ديوانا كاملا بالأبيات الشعرية التي يشير بها أصحابها الى اشتعال الرأس بالشيب وقد يصح ذلك فى الشرق كما يصح فى الغرب فالشيب ما هو الا من البوادر التي تنبيء الانسان أن قواه ستخور وأنه على قاب قوسين من الموت . وينذره بتجنب اللهو والملاذ الدنيوية ـ ان لم يكن فعل ذلك ـ حتى يفكر فى آخرته » (102) وذلك ما يدفعنا الى الشك فيما يزعمه ابن خفاجة ، وما نستفيده من قوله هو على الأكثر تحديد الزمن ، اذ يمكن أن نفترض أن شاعرنا توقف عن قول الشعر وله من العمر أربعون سنة أي حوالي سنة 490 هجرية 1098 مسيحية ولكن هذا ليس الا سببا ثانويا لا يشفي غلتنا ، والسبب الحقيقي ، فى رأينا ، هو احتلال بلنسية واقامة جيوش العدو بها تحت قيادة السيد . فلو لاحظنا أن ابن خفاجة كان فى ذلك الوقت قد بلغ من العمر سبعا وثلاثين سنة حيث بدأ شعر رأسه يختلط بالشيب وسعنا أن نوفق بين ما قاله هو وبين ما افترضناه نحن . فقد تألم شاعرنا تألما شديدا لما أصاب بلنسية من ظلم وعدوان واهانة .

فمن العسير على ذلك الرجل الخفيف الروح ، المتعود على رغد العيش ، المتمتع بما سمحت له الحياة من لهو أن يستمر فى سيرته ، ولو شاء ذلك لما استطاع ، لما كان يشعر به من ضغط فى جو مظلم محزن ، فلم يبق له الا أن يبكي بلنسية ويتحسر

أخرى ، ولكن ابن خفاجة لم ير فائدة فى هذا التوجيه الجديد ، بل رأى أن الأفضل له هو أن يسكت فسكت .

كان من المنتظر أن يعود ابن خفاجة الى قول الشعر بعد انسحاب العدو من بلنسية ، ولكن هذا لم يحدث ، ومن اليسير أن يتصور الانسان امتداد هذا السكوت اذ من المستحيل — بطبيعة الحال — أن يرجع الشاعر الى قول الشعر من ساعته ، بعد ما انقطع عنه سنوات طويلة . فهو فى حاجة الى مدة من الزمان قد تطول ليتهيأ مرة ثانية لنظم القوافي . ومن جهة أخرى فان قدوم المرابطين الى اسبانيا — كما سنرى — لم يؤد الى استمرار العصر الذهبي الذي عرفه الاندلس على عهد ملوك الطوائف .

ذلك أن الامير المرابطي يوسف ابن تشفين قضى على ملوك الطوائف ، فأصبحت بلاد الاندلس ولاية من امبراطورية واسعة، عاصمتها مدينة مراكش .

فخملت الحركة الادبية ببلنسية وقرطبة ، وتحولت الى مدن شمال افريقية ، كمراكش مثلا ، فأصبحت هذه مراكز حركة ثقافية زاخرة . ومن جهة أخرى فالامراء المرابطون لم يميلوا الى الآداب ولم يعتنوا بها لعدم تثقيفهم ولسوء ذوقهم . فكان ذلك هو السبب فى فشل الشعراء والادباء الذين أصبح انتاجهم لا يستلفت الأنظار ولا ينال أي جزاء .

وما هو أخطر من ذلك هو أن المرابطين أقبلوا على بلاد

الأندلس رغبة منهم فى تطهيره ورفع راية دين الاسلام الذي لم يجد فى ملوك الطوائف ناصرا فأعانهم فى هذه المهمــة الفقهــاء ورجال الدين من المتعصبين ، فكان عهدهم عهد التحرج والرجعية العقيمة فقوى صفهم بالاندلس وبالمغرب . ويشير المستشرق ليفي بروفنصال الى أن فى عهدهم وبأمرهم . « أحــرقت مؤلفــات الغزالي لأن العالم الشرقي العظيم قد كشف بوضوح فى كتابه الاحياء عن نزعات الفقهاء فى دراساتهم الدينية وأهدافهم التي هي فى أغلب الأحيان دنيوية ، ورغبتهم فى نيل الجاه وبغضهم العلماء الحقيقيين (103) » فأصبحوا اذن هم الأقوياء وأصحاب السلطة ، فهم الذين يمدحون وتوجه اليهم القصائد الشعريــة لاتقاء شرهم ونيل رضاهم .

وضحية هذا الاصلاح الاخلاقي والديني معا هــم الشعــراء أنفسهم ، وقد كتب فى هذا الصدد المستشرق بيريس « أنهــم أصبحوا ملاحقين متهمين فى عقيدتهم وفى دينهم ، مطرودين لأنهم غير نافعين . ولكن الشعراء بشهامتهم وحرية تفكيرهم لم يرضوا بالخضوع لما أسســه أمــراء الملثمــين مــن قوانــين دينيــة متعصبة . » (104) وفى نظر الاندلسيين لم يقع أي تغيير سوى أن المرابطين خلفوا الرؤساء السابقين ، فــذاق الشعب مرارة الاحتقار والاهانة والظلم بألوانه كلها ، ولا يتأتي للشاعر نظم القوافي فى جو يسوده الاضطهاد . أفلا يكون من الطبيعي فى ظروف كهذه أن يستمر ابن خفاجة فى سكوته ؟

وهنا ينبغي أن نلاحظ أن سكوت ابن خفاجة لم يكن سكوتا

مطلقا ، فقد كان فى بعض المناسبات ينطق بالشعر ، وقد كتب كلمة فى مقدمته يشرح لنا بها الظروف التي كان يتحرر فيها قلمه، فيقول : وربما نشأ ذكره أثناء كلام ودار به مقال فى مقام فعال نستعطف اما من خطرة ببال أو زورة لمام أو كره حال أو بعثة سلام . (105) » وهكذا سوغ ابن خفاجة لنفسه نظم قصيدتين ، الاولى وجهها الى صديقه الحميم القاضي أبي أمية بن عصام ، والثانية رثى بها بلنسية وقت احتلالها . (106)

كان من المنتظر أن يستمر ابن خفاجة فى هذه الحياة الهادئة منعزلا فى جزيرة شقر الى أن يتوفاه الله . ولكن الله لم يشأ ذلك . ففي سنة 500 هجرية وقع حادث كان له صدى فى شرقي الاندلس وفى اسبانيا كلها . ففي هذه السنة ولي الامير علي بن يوسف تشفين بعد وفاة أبيه

وكان من نتائج هذه الحادثة فى شرقي الاندلس تعيين وتثبيت عدد من الشخصيات ، من أقارب الأمير ، فى الوظائف المهمة ، فى المدن الكبرى ، كغرناطة ومرسية وبلنسية وخارج شرقي الاندلس أيضا كقرطبة مثلا .

فسمحت هذه الفرصة المواتية لابن خفاجة أن يخرج من عزلته، ويرجع الى قول الشعر ، ويستخدمه لترتيب أموره وقضاء حوائجه لأن الشاعر فيما يبدو على ضوء بعض الاشارات قد فقد الاطمئنان وأصبح فى حالة غير ثابتة .

يظهر باديء بدء أنه من الطبيعي ان ابن خفاجة فى اقباله على

شيخوخته قد زاد ادراكا بضعفه وأحس انه فى حاجة ماسة الى أن يقضي ما بقي له من العمر فى ظل حام قوي . فهو يحدثنا بنفسه عن سيرته ونفسيته فى رسالة كتب بها الى صديقه ابن صواب ، يقول : « وحق لمن شاهد تضعضع أركانه وتداعي بنيانه وذهاب خلانه وادبار عمره وزمانه أن يطرق هنالك فكرة ويملأ جفنيه عبرة ويردد الأسف جمرة حتى يذوب كمدا أو يقضى حسرة » . (107)

ونضيف الى هذا ان ابن خفاجة ، وقد فقد الاطمئنان ، كان يتوقع فى كل لحظة أن يناله بالشر رجال الدين الذين ما زالوا يتسيطرون على البلاد . ألم ينتقدهم فيما مضى انتقادا عنيفا ؟ ومن ثم يصبح من الخطورة على ابن خفاجة ألا يتظاهر بالتدين والتقى ألم يعلن جهرا أنه لن يمد أذنا صاغية لمن أراد أن يلومه على أن سلوكه فى الحياة ليس الذي كان فى شبابه (رقم 199).

6 ــ فمن مبلغٌ عنّى الشبيبة أنَّني
لوَيْتُ عناني عن طريق الجرائم

7 ــ وملتُ بطرفي عن فتاة وقهوة
وعطّلتُ سمعي من ملامِ اللوائم

ومن جهة أخرى فاننا عثرنا على خبر جاء بقلم المؤرخ المقري (108) ، خبر غير خال من فائدة ، رغم تأخره فى الزمن .

لقد نظم ابن خفاجة أبياتا شعرية يعبر بها عن اعجابه الشديد ببلاد الاندلس قال :

1 ـ يأ أَهل أَندلس للـــه دركم   ماء وظل وأَنهـــار وأَشجـــار
2 ـ ما جنة الخلد الا في ديارِكم   وهذه كنت لو خيّرت أَختار
3 ـ لا تتقوا بعدها أَن تدخلوا سقرا
فليس تدخل بعد الجنـــة النار

فحكى أن الخليلي لما قدم من الاندلس رسولا الى سلطان المغرب أبو عنان فارس بن السلطان أبي الحسن المريني أنشـــد بحضرة السلطان المذكور أبيات ابن خفاجة هذه كالمفتخر ببـــلاد الاندلس فقال السلطان أبو عنان : « كذب هذا الشاعر » يشير الى كونه جعلها جنة الخلد وأنه لو خـــير لاختارها على ما فى الآخرة وهذا خروج من ربقة الدين أو على الاقل من الكـــذب والاغراق وان جرت عادة الشعراء بذلك الاطـــلاق . « فقـــال الخليلي : يا مولانا بل صدق الشاعر لأنها موطن جهاد ، ومقارعة للعدو وجلاد ، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : « الجنـــة تحت ظلال السيوف » فاستحسن منه هذا الكلام ورفع عن قائل الأبيات الملام وأجزل صلته ورفع منزلته » .

ولئلا يكون ابن خفاجة موضوع تهمة كهذه ، فقد حمل على صديقه المؤرخ ابن خاقان ، الذي أشار فى « قلائده » الى مجون الشاعر أيام شبابه حيث يقول : « وبلغه أني ذكرته بقبيح ، وأتيت

فى وصف أيام فتوته بتندير وتمليـــح ، فكتب الي يعاتبني »
(قلائد العقيان ص 233) فقال فى قصيدة (109) :

3 ـ حمّلتُها شوقا إليك تحيةً حمّلتُهـــا عتْبًا عليك ثقيـــلا

5 ـ إيهٍ وما بين الجوانح غُلّةٌ لو كنت أَنقَعُ بالعتاب غليلا

6 ـ ما للصّديق وُقِيتَ تأكلُ لحمَه
حيًّـــا وتجعلُ عِرْضَـــه منديلا

الى أن يقول كأنه يندم على اصطحابه معه :

22 ـ وسوَاىَ يُنْشِدُ فيِ سواك ندامةً
يا ليْتنى لم أَتَّخِذْك خليـــلا

ولـكن شعر ابن خفاجة فى الغزل والمجـون موجود متداول بين الناس وقد يستشهد به على حياته هذه فكيف السبيل الى التبرىء منه ؟ لقد فكر الشاعر فى ذلك ، فعلله قائلا فى مقدمته : واني أسترسلك فى اثبات ما صدر عني من ذلك فى صدر عمري ومبتدا أمري استرسال ثقة باغضاء أهل الفضل وحملة السيادة والنبل ولم احتفل بنقد أقوام فى مساليخ أنعام يراؤون الناس ولا يذكرون الله الا قليلا ولا يعلمون مع ذلك أنه يستجاز فى صناعة الشعر لا فى صناعة النثر أن يقول القائل فيه : « اني فعلت » و « اني صنعت » من غير أن يكون وراء ذلك حقيقة فان الشعر مأخذ وطريقة واذا كان القصد فيه التخييل فليـــس

القصد فيه الصدق ولا يعـاب فيـه الـكـذب ولكـل مقـام مقال .. » (110)

ولا ننسى أن ابن خفاجة كان صاحب أملاك يعيش من غلة أراضيها وهذا ما كان يجعله يخاف من تعدي بعض الحكام عليه وظلمهم اياه اما بانتهاب أرزاقه أو بفرض ضرائب عليه ثقيلة لا يستطيع أن يتحملها . وقد اشتكى منهم ابن خفاجة أكثر من مرة.

وها هو الآن فى رسالة الى الامير المرابطي ابن تفلويت يتضرع فيها ويدعوه الى الذود عنه فيقول : « عدل الامير الا جل ـ أطال الله بقاءه ووصل بالنجم ارتقاءه ـ أقرب دركا ورجاء وأفسح أكنافا وأرجاء من أن يكون أفقي يظلم ومثلي فى طاعته يظلم واني دهيت بشيطان لا ينبغي فيه أن يتلقى بعزيمة ويتوقى بتميمة وقد سجنه مرارا بسببي « فلان » وفقه الله ـ فما كف ذلك من خطوة ولا قصر من شأوه ولا غص من جماحه ولا قص جناحه ولن يصل بحول الله الى أن أهن أو أمتهن وهذه ريح السلطان وبحره يعب والحق مفتقر الى عضد أمره وشد أزره فان رأى ـ آدام الله ما بيده ـ أن يوقع الى فلان فى أن يحسن عوني ويجري الى صوني فعل منعما ... » (رقم 128) .

فأصبح ابن خفاجة متيقنا أنه لابد من حام لمن أراد أن يعيش فى السعادة والهناء فقال يحمل على خدمة السلطان . (111)

حسبُ الفتى حليةً أن يستقلَّ به

مَلْكٌ عزيز فلا يقعد بك العطل

فما احتمى جانب لم يحمه ملك

ولا مضى صارم لم يُمضه بطل

وهكذا شاء القدر أن يصير ابن خفاجة شاعر بلاط مدة سنوات عديدة . وقصائده المديحية الموجودة فى الديوان ، وهي كثيرة طويلة ، تسمح لنا أن نلحظ بوضوح هذا التغير الذي طرأ عليه حوالي سنة 500 هجرية أي بعد ما جاوز الخمسين من عمره . ولو أن من العسير علينا أن تتبين بتفصيل ما قد حدث فى هـذه المرحلة من حياته ، ولو اعتمدنا على الديوان وعلى القصائد وأسماء الممدوحين الذين وجهت اليهم ، لأمكننا فيما يبدو أن نتوصل الى ما يلي :

اغتنم الشاعر ابتداء من سنة 500 هجرية وما بعدها ما لاحظه فى بعض ممثلي دولة المرابطين باسبانيا ، من تسامح فكري وتنازل عن التعصب الديني الشديد فحاول استرضاء بعض الأمراء . ورأى من الأحسن والأليق أن يبدأ باسترضاء سيدهم الامير المرابطي علي بن يوسف (112) ، وهذا الامير الثاني لم يكن مثل أبيه لمتونيا صحراويا قحا ولم ينشأ فى تلك الأراضي المقفرة مثل أبيه وانما نشأ بمدينة سبتة على ساحل البحر المتوسط سنة 477 هجرية . وكانت أمه رائعة الجمال وهي فى الأصل مسيحية وقعت بين أيدي المسلمين غنيمة .

فكان تكوينه منذ صباه تكوينا ثقافيا أندلسيا محضا . وقد صرح المؤرخ عبد الواحد المراكشي بأن الامير علي بن يوسف

استدعى من يومه أشهر شخصيات الاندلس فى العالم الادبي ليكونوا فى حاشيته فاستوزر البعض مثل الفصيح أبي القاسم بن الجد وابن القبطورنة وابن عبدون شاعر بطليوس المشهور ولا سيما العالم الذي كان دائرة معارف فى عهده الا وهو محمد بن أبي الخصال آخر وزير جدير بهذه التسمية والذي سيأتي الكلام عنــه .

ونعثر فى ديوان ابن خفاجة على رسالة كتب بها الى الأمير علي بن يوسف يشكره فيها على ارجاع القاضي ابن عصام الى خطة القضاء بعد صرفه عنها ويطلعه على شعور أهل مدينة مرسية نحو أمير المسلمين فيقول : كتابنا هذا من المسجد الجامع ــ عمره الله بذكراه ــ وقد حضره الملأ ــ أكرمهم الله بتقواه ! ــ تطلعا الى ما ورد به الكتاب العزيز فى جهة قاضي القضاة ــ وصل الله توفيقه ! ــ فمن اسماع تنصب وتؤلل ومن أوجه تستشعر المسرة فتهلل فما تلقي مفتتحا بما يلزم من الاجلال والاهتبال حتى قضي مختتما بما يتعين من الدعاء والابتهال فما شئت من باسط الى الله كفه ورافع نحو السماء طرفه يدعو لأمير المسلمين دعاء موصولا ... » (رقم 127) .

والقصيدة التي كتب بها ابن خفاجة الى صديقه ابن عصــام ليهنئه بعودته الى خطة القضاء تتضمن أبياتا موجهة الى الأمير يمدحه بها ويثني عليــه .

والمحاولة الثانية من هذ االنوع التي قام بها ابن خفاجة كانت لاسترضاء الأمير أبي الطاهر تميم بن يوسف 113 أخي أمــير

المسلمين ووالي غرناطة ثم اشبيلية سنة 519 هجرية 1119 مسيحية ثم قرطبة فى النهاية .

فقد كتب شاعرنا قصيدة طويلة أردفها برسالة (رقم 1) الى الامير يمدحه فيها ويرى فى تميم الرجل الكامل ذا الكلمة النافذة بحيث لا يوجد أحد غيره يولي اليه وجهه فيقول :

56 – رميتُ بآملي إليه وإنّما
حملتُ به الْمرْعَى الجديبَ إلى القَطْر
57 – ولا أَملٌ إلا كتابُ شفاعة
إذا الخطبُ أَعَيَى وِزرهُ شدَّ من أَزْرِي
58 – شفيعٌ لو استعطفتُ عصر الصِّبى به
لعاج سَقَتْه دمعة المزن من عصْرِ
59 – وَبيِ مسّ شكوى لا أطيقُ لها السُّرى
فان لم أطأ بابَ الأَمير فعن عُذرِ

وقد يؤكد شاعرنا فى قصيدة ثانية (رقم 50) على نفوذ الامير وصرامته فى تسيير شؤون الولاية فأشار الى الثغر الذي يتمتع الآن بالقرار بعد الاضطراب الشديد . ثم يستأنف ابن خفاجة الكلام عن حالته الشخصية ، حالة غير مرضية ، فقد أصبح تعسا يتجرع مرارة الشقاء والاهانة . فنظم هذه الابيات لتكون صراخا يقرع به الآذان ويستعطف الامير ، حتى يمد اليه يد

المساعدة ، اذ لا نجاة الا بارادته ، فهو ينتظر منه ما ينتظر العليل من الطبيب . يقول :

40 ـ فيا ملك الملوك ولي لسان
يشير بــه البيان إلى خـطيب

42 ـ دعاك ولو دعوتُ به جمادا لهزَّ معاطف الغصن الرّطيب

وأضاف ابن خفاجة الى قصيدته هذه رسالة حيث يمدح فيها الامير مرة ثانية ثم يشير الى تعدي بعض الولاة ممن لم يحترموا شيبه ولا منزلته الاجتماعية ـ ويذكر ما كان يتمتع به فى شبابه ويود الآن ألا يحرم من ذلك فيقول : مازلت منذ شببت الى أن شبت مرتسما بمكانة أؤهل اليها وصيانة أحمل عليها ـ وها أنا ـ وقد أخلق رداء الشباب ولحق بالتراب أكثر الأتراب ـ آليق بذلك المأخذ الكريم وأخلق بوجود برد ذاك النسيم . »

وقد حاول ابن خفاجة استرضاء شخصية أخرى وهو الامير أبو بكر بن الحاج الذي لا نعرف عنه شيئا سوى أنه كان واليا على مدينة بلنسية ـ وكان بينه وبين شاعرنا اتصـال اقتضى مخاطبته حتى وهو خارج بلنسية ويرى ابن خفاجة أن ابن الحاج جمع كل الخصال المحمودة الجديرة بمن تمتع بمكانته ، فتكلم عن نبل أصله وكرمه وشجاعته وخبرته ـ وهذه الخصال بطبيعة الحال لا تسمح لصاحبها أن يخيب فى سعيه .

وقد كرر ابن خفاجة فى رسالة تابعة لهذه القصيـدة هـذه الأفكار مع تصريحه بما يضمر لابن الحاج من مودة خالصـة

فيقول : « ... فانها عن قلب كرم فى مشايعتك سيرة وخلص فى جهتك عقيدة وسريرة حتى لست أدري أضمير أم ماء نمير » ، ثم يقول : « فهنيئا لتلك الدولة الميمونة أنك رداء ذلك الرواء ووسطى قلادة تلك السيادة ... » (رقم 139)

وهذه مريم بنت الامير ابن تفلويت وزوجة ابن الطاهر تميم التي استرعت نظر ابن خفاجة . فرأى أن هذه المرأة النبيلة الأصل ذات الثقافة الواسعة جديرة بأن يمدحها بقصيدة حتى ينال رضاها ، ويهنأ تحت جناحها ، وهو يمدحها انتهى به الامر الى مدح المرابطين بأجمعهم .

ومن جهة أخرى فاننا لندرك حق الادراك قيمة الجهود التي بذلها ابن خفاجة ليستميل أشهر شخصيات ذلك العهد ولا سيما شخصيتين من أسرة المرابطين احداهما أبو بكر بن ابراهيم بن تفلويت (114) وهو ابن عم أمير المسلمين علي بن يوسف وزوج أخته ، وقد ولاه هذا الأخير على مرسية ثم على سرقسطة وقد اتصل به ابن خفاجة من غير شك فى احدى المدينتين . ولكن لسنا ندري فى أي تاريخ ولا فى أي ظروف وقع هذا التعارف . وما نحيط به علما هو أن ابن تفلويت كان أديبا يتذوق الشعر ويحب مخالطة شخصيات ذاع صيتهن ، ونخص بالذكر من بينهن الفيلسوف الحكيم والامام الماهر فى الالحان ابن باجة الذي أصبح وزيرا له . فشاعرنا ابن خفاجة كان هو أيضا معجبا بابن تفلويت راغبا فى التقرب اليه ــ وقد نجد فى ديوانه قصيدة طويلة (رقم 2) لا تقل عن 99 بيتا يمدح فيها الامير مشيرا بطبيعة الحال

الى كل الخصال التي يمتاز بها أمثاله . ويتمنى ابن خفاجة أن يكون لندائه صدى فينهى قصيدته بقوله :

99 ـ واشفعْ على شَحْط الديارلآمل

أهدى الثناء على تنائى الدار

وكتب الى الامير مرة ثانية رسالة (رقم 128) افتتحها بثلاثة أبيات وبعد أن ذكر عدل مراسله وقسطه استأنف كلامه بالاشارة الى بعض الولاة يشتكي منهم ويشير بالخصوص الى أحدهم ـ الا أنه لم يسمه ـ فيتحسر لما أصابه من شر بسببه وذلك رغم زجره وسجنه مرارا . وقد تحير ابن خفاجة من ذلك ورأى أنه من الغريب أن تقع أمور من هذا النوع فى عهد يمتاز برئاسة أمير عظيم كابن تفلويت . فيسأله بهذه الأبيات :

أَوجهك بسّامٌ وطرفِيَ بـاك وعد لك موجود ومثليَ شاك

وتأبى اهتضامي في جنابك همّةٌ تهزّك هزّ الريح فـرعَ أَراك

وقد نال منّي ظالم لي ذاعرٌ فيا هبّة السيف الحُسام دَرَاكِ

(115)

الا أن ولاية ابن تفلويت لم تستغرق وقتا طويلا لأن صاحبها توفي سنة 510 هجرية كما تدل على ذلك مرثيتان (رقم 58 و 59) فى ديوان الشاعر ـ فالمرثية الأولى تلي مرثية الوزير ابن باجة وفيها يتحسر ابن خفاجة على فقدان رجل يضرب به المثل فى

الكرم يصرح فى الثانية بأنه لا سبيل له الى التسلية بعد هـذه المصيبـة فيقـول :

لا لعمـرُ المجـدِ والكـرم ومـزار الـيتب والحَـرَمِ
لا سلـوتُ الدهـرَ عن مَلِك طلق وجـه الْعُـرْفِ والشِّيمِ
هـذه نُعْمَـاهُ مـلءُ يـدي ونَثَـا حُسْنَـاه مـلءُ فمـي

وفى النهاية يعود الفضل الى أخي أمير المسلمين ، أبي اسحاق ابراهيم (116) الذي أنزل ابن خفاجة منزلة المقربين فأكرمـه وعده من اصفيائه . وهذا الامير المرابطي معروف أيضا باسم ابن تعيشت وهو اسم أمه وهي على ما يذكر ابن عذاري أمـة سوداء . وقد ولاه أخوه علي بن يوسف على سبتة ثم مرسية ثم بلنسية سنة 510 هجرية وفى الأخير على اشبيلية سنـة 514 هجرية . وكان أبو اسحاق يمتاز بالأخلاق المحمودة ويعتني بالعلم والرواية فأحبه الناس ومدحه الشعراء واليه أهدى الفتح ابن خاقان كتاب قلائد العقيان (117) . وابن خاقان هو الذي يذكر اليوم المشهود الذي التقى فيه أبو اسحاق بابن خفاجة فيقول : « فوصلت شاطبة في فطر سنة عشـر وخمس مائة والاميـر أبو اسحاق ابراهيم بن يوسف بن تشفين ـ أيده الله . ـ معيد بها ومجدد ذاهب رتبها .... وكان ابن خفاجـة هـذا حاضرا لاستنجاز وعده بالتوقيع على صك يحذى نعاله من عنده فلما كان يوم العيد واحتفل جمعه واحتشد قام أبو اسحاق وأنشد القصيدة (118) . » فكان ابن خفاجة قد بلغ من العمر ستين سنـة .

ولم يفت شاعرنا أن يذكر هذه الحادثة الهامة التي كان لها الاثر الشديد في نفسه فرواها في مقدمة ديوانه قائلا : ولما دخل جزيرة أندلس ــ وصل الله حمايتها وكفايتها ! ــ الامير الاجل أبو اسحاق ابراهيم ابن أمير المسلمين وناصر الدين..... تعين أن أفد عليه مهنيا بالولاية مسلما وأغشى بساطه الرفيع موفيا حق الطاعة معظما فما لبث أن رفع وأسنى واصطنع فأدنى ...... فارتهنني بره واجماله وارتبطني بشره واقباله ومن اغتبط ارتبط . * ومن وجد الاحسان قيدا تقيدا*

فعطفت هنالك على نظم القوا في عناني وسننتها عند ذلك حللا على معاطف سلطاني مصطنعا لا منتجعا ومستميلا لا مستنيلا ...... (119)

فابن خفاجة يرى فى أبي اسحاق المنقذ الوحيد الذي كان يبحث عنه . فخصص له خمس قصائد مدحية عدد أبياتها يتراوح بين 42 و 62 بيتا مجموعا 247 بيت مما يدل على أهمية الدور الذي لعبه هذا الامير في حياة شاعرنا .

ففي القصيدة الاولى المنظومة سنة 510 هجرية 1115 مسيحية والتي أنشدها الشاعر بمدينة شاطبة كما أشرنا اليه آنفا يذكر ابن خفاجة زمان الشباب والساعات السعيدة التي قضاها في رفقة أصدقاء وهو خالي البال منشرح الصدر . ولكن لا مجال للتأسف على ما فات اذ الامير أبو اسحاق حاضر اليوم ومستعد أن

يستجيب دعوة كل داع . فهو فعلا من الامراء الذين يمتازون بالاخلاق الكريمة أخلاق المروءة . وقد يتشرف ابن خفاجـــة بصحبته ووجود نفسه من المقربين في حاشيته ، ثم يعود الـــى مدح الامير وينهي كلامه بتقديم تهانيه اليه بالعيد المبارك . وقد افتتح قصيدته هذه (رقم 9) بقولـــه :

1 ـ سجعتُ وقد غنّى الحَمام فرجّعا

وما كنت لولا أَن تغنَّى لأَسجعا

2 ـ وأَندب عهدا بالمُشَقَّرِ سالفا وظِلَّ غمام للصِّبى قد تقشَّعا

وفى القصيدة الثانية (رقم 57) والتي لم نوفق الى اثبـــات تاريخها (120) يمدح ابن خفاجة الامير مؤكدا على شجاعتـــه واقدامه في الحروب ويحتفل بانتصار الامير على عدوه ابن‌رذمير بقورية مشيرا الى أن الامير لا يعرف الانهزام أبدا ويحذر العدو مما سيلقاه من عقاب لو اغتر بنفسه فاحتك بالامير ، يقول :

39 ـ فَمِلْ عن طريق شِهابٍ سرى

فأهـــوى ووادى أَتِيٍ حَمَـــلْ

40 ـ وَحِدْ رغبة عن عباب طمى ولُذْ رهبة بِصَياصِي جبـــل

41 ـ والا فثّـــم جـــواد يعبّ ونصل يهبّ إذا سُلَّ صَـــل

ولكن حدثا هاما وقع سنة 514 هجرية كان له الاثر الشديد في نفس ابن خفاجة وهو انتقال أبي اسحاق ابراهيم الى اشبيلية بأمر أمير المسلمين علي بن يوسف . فتأسف شاعرنا على هـــذا

الافتراق ووجد نفسه مرة أخرى وحيدا أمام مصيره ، فنظم هذه القصيدة (رقم 49) يمدح بها الامير ويذكر محاصرته لحصن الموريلة في طريقه الى الثغر 121 لظهور العدو به وفي هـــذه الفترة ورد عهد أمير المسلمين بولاية أبي اسحاق كورة اشبيلية فكان وقع هذا النبأ العظيم على اذن ابن خفاجة كا لصاعقـــة فلم ير بدا من أن يودع ـ وعيناه مغرورقتان بالدموع ـ ذلك الامير الكريم والصديق الحميم الذي كان يتمتع بحمايتـــه ورعايته فيقول :

42 ــ وفارقنيِ صبرى لذكرى فراقه

وشافهنيِ قبل الــوداع يُودّع

43 ــ وكنتـ جماد العين أَجهل ما البكى

فعلَّمنيِ داعيِ النوى كيفـ تدمع

44 ــ فأَستودع اللهَ الأَمير ومُهجةً أشيِّعُهــا فيمن هنــاك أشيّع

45 ــ وهنّئتَها من دار مُلْكٍ وهنّئتْ

بـــه مِلْكــاً واللهْ يُعطى ويمنع

وفى الرسالة التابعة لهذه القصيدة يمدح ابن خفاجة مرة ثانية الامير أبا اسحاق ويغار من حسن حظ اشبيلية التي ستستقبل شخصية مجيدة . ولكن ابن خفاجة لا يشير ولو باشارة خفية الى سبب انتقال الامير من مرسية الى اشبيلية ، وهو انتقــال وقع فى ظروف مفاجئة ، وقد يبدو واضحا كــل الوضــوح أن

السبب الوحيد الجدير بالذكر هو انهزام أبي اسحاق أمام العدو رذمير بدورقة فى الجنوب الغربي من مدينة سرقسطة . وأخطر من ذلك ما يظنه ابن الآبار من تقصير الامير الذي أدى الى هذه الوقعة المعروفة بوقعة كتندة . (122)

وهذه المسافة التي تفصل بين الامير وابن خفاجة لا تمنع هذا الاخير من أن يبقى محتفظا بعلائقه الودية مع أبي اسحاق ، كما تدل على ذلك القصيدة المدحية التي نظمها فى نفس هذه السنة عقب زيارته للأمير (رقم 60) . فاستهلها بالغزل حتى يتأتي له أن يذكر تلك السعادة التي كان ينعم بها أيام شبابه ، ولكن كل شيء على وجه البسيطة غايته الفناء وتلك هي سنة الله فى خلقه وقد يجد الانسان فى ذلك تسلية ، ثم يتدارك ابن خفاجة فلا يرى لنفسه الفشل واليأس عندما ينتبه الى أن الامير أبا اسحاق لا زال ، على قيد الحياة ، فيقول :

30 ـ لا لَعمرُ المجد والكرم　ومضاء السيف والقلم
32 ـ لا ينال الدهر من جهتي　وبإبراهيم مُعْتَصَمِي
31 ـ قسما برّا يُشَفِّعُهُ　قَسَمٌ أَرْعَاه من قَسَم

ثم يستأنف ابن خفاجة قصيدته بمدح الأمير مشيرا الى شجاعته واقدامه فى الحروب العنيفة ضد العدو الذي لا يذوق الا مرارة الانهزام . فأبو اسحاق شخصية فاضلة وقد يتمتع بالأمن كل من لجأ اليه .

وفى قصيدة أخيرة (رقم 233) نظمت فيما يبدو فى هـذه السنة أيضا أي سنة 514 هجرية . ووجهت الى اشبيلية نـرى فيها ابن خفاجة « يستنجز ميعادا تكرر فى جهته مـن الأمير ، يحمله فى جميع شؤونه على الأفضل الأجمل » متمنيا أن تقضى حوائجه فيغتنم هذه الفرصة ليمدح أبا اسحاق مرة أخـرى ، فيقـول :

34 ـ فيا أَيها الملك الأَغرُّ ولايةً وخَصْلاً وأَصلا والجليل جليل

35 ـ أَمثلك موجود بِحِمْصَ مُؤَمَّرًا عزيزا ومثلي بالعراق ذليـل

36 ـ أَيجمل أَني شيعة وصنيعة ويَبْهَظُني عبءُ عليَّ ثـقيل

37 ـ فأغدو وخطوي إِن خطوتُ لِطِيَّة قصيرٌ وطرفي إِن نظرت كليل

وينهي ابن خفاجة قصيدته معبرا عما يضمره له مـن محبـة ويلتمس معذرة الأمير على عدم القيام بزيارة اليه لسبب يصرح بـه :

42 ـ يقوم به شـوق مُبَرِّحُ ويُقْعِدُهُ جسم هنالك نحيـل

وفى الرسالة التابعة لهذه القصيدة يفتخر ابن خفاجة بالمنزلة التي أنزله فيها الأمير والتي لا زال يتمتع بها فيقول : « ومثل الأمير الأجل ـ وصل الله سعده ! ـ اعتقدني نأي الدار أحد من انتظم فى جماعته أو اعتصم به من أهل طاعته فحملني محمل

هذا أو ذاك ... » ولكن شاعرنا لم يسعد بهذه الحياة فى حاشية الأمير مدة طويلة لأن أبا اسحاق توفي حوالي سنـــة 515 أو 516 هجريــة .

يبدو من الغريب ألا يرثي ابن خفاجة حاميه الجليل ، اذ لا نعثر فى ديوانه ولا على قصيدة واحدة قيلت فى هذا الشأن . ومن الممكن أن يتصور الانسان عكس ذلك ، مفترضا أن ما نظمه الشاعر لم يبلغنا ولكن هذا التعليل لم يقنعنا اقناعا تاما ، اذ نرى من المحتمل أن سبب صمت ابن خفاجة هو ما شعر به من جفاء أو شبه جفاء من طرف الأمير ، وهو ما يتراءى لنا من خـــلال القصيدة التي سبق تحليلها ، فقد تجلى لنا الأمير متماطلا فى تنفيذ وعوده رغم الحاح الشاعر عليه ــ وما يحملنا على أخذ هذا الافتراض بعين الاعتبار هو التفات ابن خفاجة فى هذه المدة (510 ــ 514 هجرية) نحو الوزير ابن زهر آملا من دون شك أن يستميل شخصية أكثر نفوذا .

٭ وما ينبغي أن نلاحظه هو أن ابن خفاجــة لــم يقتصر عــلى استرضاء رجال السلطة من المرابطين فحسب اذ نجد هنا وهناك بعض العلامات تبرهن على الجهود التي بذلها ليستميل شخصيات أقرب منه فى السلك الاجتماعي ٭

ونذكر من بين هؤلاء الطبيب المشهور أبا العلاء زهر بن زهر 123 الذي لعب دورا هاما فيما يبدو باشبيلية فى بلاط الأمير المعتمد بن عباد الذي كان يعده من أصفيائه ثم اتصل من بعده بالامير

المرابط يوسف بن تشفين فأصبح من وزرائه.ولكن ما لا يخلو من فائدة هو أن أبا زهر كان أيضا فى خدمة الأمير أبي اسحاق ابراهيم صديق وممدوح ابن خفاجة . فلعل هذا الأخير اغتنم هذه الفرصة ليتعرف بابن زهر فى مدينة من مدن شرقي الأندلس بين سنة 510 — 514 هجرية .

هل كانت العلائق بين الرجلين وثيقة أم كانت متباينة ؟ هذا ما ليس لنا دراية به . ومهما كان الامر فان ابن خفاجة كان يقدر أبا زهر ويجله كما تدل على ذلك القصيدتان المنظومتان فى حقه واللتان بعث بهما اليه — من دون شك — الى اشبيلية . فناسخ الديوان يذكر أن القصيدة الأولى (رقم 69) كتبت فى شهر رمضان سنة أربع عشرة وخمس مائة . ومما يساعد على اثبات هذا التاريخ اشارة الشاعر فى القصيدة الى سنه حيث يقول :

22 — وأعْوَلْتُ أندب عصرا خلا
وقَصْرُ ابن ستين أن يندبا

وقد يرجع الفضل الى ناسخ الديوان لما أتانا به من مقدمة صدر بها هذه القصيدة ، يشرح لنا فيها أغراض ابن خفاجة ، أغراضا غير واضحة خلال أبياته . فشاعرنا فى حالة غير مرغوب فيها ، يحاول أن يستعطف ابن زهر حتى يقضي حوائجه ، وذلك بعدما توالت رسائله على الأمير الأجل « يحمله فيها على الاهتبال فى جهته ، ومراعاة جانبه ، وقضاء رغائبه ومآربه » . ولنا الآن أن نتساءل عن غرض شاعرنا : أكان يرجو من ابن زهر أن يتوسل

له عند الأمير فقط أم تيقين بخيبة سعيه فدفع به اليأس من أبي اسحاق الى البحث عن حام أقل منه منزلة ولكن أكثر منه نفاذا . ومهما كان الأمر ففي القصيدة الأولى وهي طويلة ، يبدأ ابن خفاجة بذكر شبابه وحياته الرغدة التي قضاها فى أحضان الطبيعة ذات الجمال الخلاب فى رفقة الغلمان ، ولكن هذا العهد قد مضى وانقضى ، فهو الآن مع حاضره يئن تحت عبء الشيخوخة ثم ينتقل الشاعر بعد ذلك الى مدح الوزير ابن زهر الذي يمتاز بطبيعة الحال بالأخلاق السامية المعروفة التي يتصف بها كل ممدوح ، من شجاعة وكرم وحلم وما أشبه ذلك .

وفى القصيدة الثانية (رقم 150) يبدأ ابن خفاجة بالرثاء ، فيبكي الأصدقاء الذين طوتهم يد المنية ، كما يبكي بقاءه فى وحدة موحشة ، ثم يلتفت الى ما ضيه فيذكر أيام شبابه ، وأوقات سعادته ، ولكن الله بر بعباده فأوجد أبا زهر ، فسعد شاعرنا بانتظامه فى عقده ، فتسلى عن تعاسة حاضره ، ثم يأتي بعد ذلك بمدح الوزير مستلفتا نظره الى ما يعانيه من مرارة العيش راجيا منه أن يمد له يد المساعدة حتى ينقذه من الهلاك فيقول :

59 ــ حَنَانَيْكَ في ناءٍ شكا مسَّ لوعة
فسفَّر من شوق اليك القوافيا

61 ــ وقد نَدِيَتْ حتى لم أدر أرُقْعَةً
أنَمِّقُ أم دمعا أرقرق جاريا

وفى الرسالة المتصله بهذه القصيدة يشتكي ابن خفاجة من بعض الموظفين ولا سيما من عدم قرارهم فيقول « واني كتبته عن نصب يتصل ، وتعب لا ينفصل ، بما اتفق فى هذه الجهة من تثاقل الأعمال ، بتداول العمال ، فما تتمهد من حالة حتى تتهدم ، ولا توجد بها من راحة حتى تعدم ، ومن عهد المطي الوطي ، وألف الأمر السني الهني ، شق عليه أن ينزل عن ذلك المركب مركبا ، ويعري من رداء ذلك السناء منكبا ، لا سيما وقد انتقلت بنا السن من شبيبة الى شيبة .... »

فابن خفاجة يود أن تتحسن حاله بفضل معونة الوزير ، فيتمتع فى شيخوخته بما كان يتمتع به فى شبابه وكهولته من احترام وتقدير .

ولنا الآن أن نلاحظ أنه يبدو من الغريب أن يبدأ شاعر قصيدته فى مدح شخصية بالرثاء . وقد توقع ابن خفاجة هذه الملاحظة فأجاب بنفسه فى رسالته هذه : « فلعل قائلا يقول : ما لرب هذا الشعر ما رثى حتى تغزل ، ولا جد حتى هزل ، ثم قفى بالمدح فأتى بالمفاخر فى الآخر ؟ فالجواب عنه : انه لما كان بين المادح والممدوح اشتراك فى معنى هذا الرثاء واشتباك ولاجتماعهما فى خلة بعض تلك الجلة افتتح الشعر بالرثاء على جهة من المساهمة والتعزية ثم أردف بالمدح على نحو التأنيس والتسلية ... »

ولنستأنف الكلام عن شخصية أخرى اتصل بها ابن خفاجة اتصالا وثيقا ألا وهو الوزير أبو اسحاق بن رحيم الذي لا نعرف

عنه شيئا سوى أنه كان مشرفا فى الدولة المرابطية . ولكن في أية مدينة ؟ وفى خدمة من ؟ وكيف تعرف به شاعرنا ؟ أسئلة لا يمكن الجواب عنها حاليا . ومهما كان الأمر فقد كان بين الرجلين اتصال كما تدل على ذلك القصيدتان اللتان قالهما ابن خفاجة يمدح فيهما صديقه ويثني عليه . ويتجلى لنا فى الأولى (رقم 135) أن شاعرنا كان أكبر من ابن رحيم سنا لما نلاحظه من رغبة شاعرنا فى أن يستفيد من خبرة صديقه حتى لا يضل الطريق ، فيفتتح قصيدته بقوله :

1 ـ تشفَّعْ بعلق للشباب خطير
وبتْ تحت ليل للوصال قصير

2 ـ ونِلْ نظرة من نضرة الحسن وانتعش
بغرة رقراق الشباب غرير

وفى القصيدة الثانية (رقم 198) . يمدح ابن خفاجة صديقه مشيرا الى حسنه واخلاقه الفاضلة أخلاق يشاركه فيها جميع أعضاء عائلة رحيم . ثم يؤكد فى النهاية على اخلاصه وصفاء سريرته فيقول :

21 ـ وإلَيْكَهَا فاهنأْ بها من مدحة
أه ......نَوْرًا اليك مُنَوِّرا

22 ـ فتلألأتْ حسنا بمجدك حلة
وتنفَّستْ طيبا بحمدك مِجْمَرا

23 ـ وسواي يكذب في سواها مِدْحةً
فارغب بسمعك عن حديث يُفْتَرَى

أما أبو مروان عبد الملك بن أبي الخصال 124 فكان ينتسب الى أسرة جميع أفرادها من أهل الثقافة والأدب . وقد ولد هذا العالم الجليل بمدينة شقورة فى سنة غير محققة فكان من الشخصيات البارزة الذائعة الصيت ودخل فى خدمة أمير المسلمين علي بن يوسف وقد تعرف ابن خفاجة به مدة اقامته بشاطبة . فكان شاعرنا يضمر له مودة خالصة وثبت أن الرجلين كانا يتكاتبان ونجد فى الديوان رسالة بعثها ابن خفاجة الى الوزير عقب التقائهما بحضرة شاطبة ، فمدحه فيها وشكره على حسن استقباله أياه ، متمنيا ألا تنقطع الصلات بينهما أبدا . وهو يخاطب أبا مروان مخاطبة الصديق لصديقه ، شاكيا له مما يعانيه من أحزان ، متأسفا على دهر لم ينصفه ، ولم يعط لكل ذي حق حقه ، فيقول : « وكنت قلق الحشايا ، خفاق الأحشاء ، أتألم لالحاحي والحافي ، وأتململ لتوقف الدهر عن اسعادي ، واسعافي مع مواتاته فى بعض الأزمنة ، وأكثر الأمكنة ، لنفر لا يوافق هذا الاسم هنالك مسماه ، ولا ينطبق لفظه على معناه ، فما عليك من بأس أن تعدل عن قراءته « نفرا » الى قراءته « بقرا » ... » (ق . رقم 239) .

ثم ينتقل ابن خفاجة الى موضوع آخر فيصف لمراسله زوبعة فاجأته فى طريقه ، فدمرت الأمطار الغزيرة تلك الناحية تدميرا خطيرا ، فسكن الرعب قلوب الناس ، ولولا رحمة من الله لما

نجا أحد منهم ، فلما وصل الشاعر الى بيته أخذ فى خلوته يتحدث مع الدهر ، يلومه على عدم اسعاده أياه . فيعترف مخاطبه ببعض سيئاته ، منبها الى أن كل سيئة تقابلها حسنة ، ألم يكرمه بصديق جليل يأنس اليه لما لقاه بأبي مروان هذا ؟

وكان لأبي مروان أخ اسمه أبو عبد الله محمد 125 الذي يعد من أجل وزراء عهده ، نشأ بشقورة ، وأقام بقرطبة ، ودخل فى خدمة الوالي اللمتوني محمد بن الحاج قبل سنة 501 هجرية . ولما عفا أمير المسلمين عن هذا الأخير بعد قيامه عليه وولاه على بلنسية التحق به أبو عبد الله بن أبي الخصال . وقد تعرف به شاعرنا من دون شك فى هذه المدينة نفسها ، وكان ابن خفاجة معجبا بابن الخصال هذا الذي يصفه ابن بشكوال بقوله : « مفخرة وقته ، وجمال جماعته ، متفننا فى العلوم مستبحرا فى الآداب واللغة ... » وقد كانت بين الرجلين مواصلة ، ونجد فى الديوان رسالة مرصعة بالشعر كتب بها ابن خفاجة الى صديقه حوالي سنة 520 هجرية 126 يمدحه فيها مدحا جزيلا مقارنا بينه بين أمجد وزراء الشرق وكتابه ، مثل عبد الحميد الكاتب أو ابن العميد ، لعدله وانصافه ثم يبيح لنفسه أن يبدي ملاحظة عليه فيلفت نظر ابن الخصال الى ما وقع فيه من خطأ فى حق انسان — لم يذكر اسمه — ويتوسل اليه نافيا التهمة عنه فيقول :

« ... فانه — وحقك — لبريء الساحة مما به وسمته ورسمته، طائش سهمك فيما قذفته به واقترفته ... » (ق . رقم 244) . ثم يستأنف كلامه بقصيدة زهدية ، ويختم رسالته متمنيا أن

أن يراجع ابن أبي الخصال موقفه حتى لا يخيبه ، ويشكره على ذلك .

والقصيدة الثانية يجيب بها ابن خفاجة صديقه وقت اقامته بقرطبة ، عن رسائل تلقاها منه تتضمن نظما ونثرا . وهي رسالة كما يتوقع القاريء كلها مدح وثناء على ما يمتاز به هذا الكاتب الجليل من مواهب عبقرية فى الانشاء والأسلوب ، مصرحا له فى رسالة تابعة لهذه القصيدة بكل ما أتاحته له قراءة كتابه من متعة وسرور ، مستعينا فى تعبيره عن ذلك بصور رائعة مأخوذة من الطبيعة اليانعة .

ونذكر أيضا من بين هؤلاء الوزراء أبا عامر محمد بن ينق 127 من أهل شاطبة ، وولد سنة 482 هجرية . وقد تعرف به ابن خفاجة — وهو أسن منه بأثنتين وثلاثين سنة — بهذه المدينة من دون شك — قبل أن يرحل الى قرطبة . ومن المحتمل أن الرجلين قد اتصلا فى أوائل القرن السادس الهجري فى ظروف غير محققة . ومهما كان الأمر فان شاعرنا — فيما يبدو — كان يقدره تقديرا جليلا ، لأن ابن ينق لم يكن من أشهر فقهاء عصره فحسب ، بل كان أيضا ماهرا فى الآداب واللغة « وقد بلغ الغاية من البلاغة فى الكتابة والشعر » وهذا العالم الشاب — وكان فضلا عن هذا كله طبيبا — استمال الناس جميعا ، وابن خفاجة بالخصوص ، وعاش محببا معظما ، ونجد فى الديوان قصيدة (رقم 227) يمدح فيها شاعرنا صديقه الذي يمتاز — بطبيعة الحال — بالخصال النادرة المحمودة ، التي يتصف بها عادة

الممدوحون . ثم يجيبه على كتابه مشيرا الى براعته فى البلاغة والتفنن فى الأسلوب والى ما امتلأت نفسه من حبور بعد قراءته. فيقـول :

12 ـ وصحيفةٍ هزَّ البديعُ صفيحةً
منها وثقف بالسطور رماحا!

13 ـ وردتْ تذكِّرُنِي الحديقةَ نفحةً
وتَهُزُ فيِ هزّ القَضِيب مِراحا

وينبغي أن نضيف الى هؤلاء اسم شخصية أخرى كان يعدها ابن خفاجة ـ فيما يبدو ـ من أعز أصدقائه ، ألا وهو أبو محمد بن عامر الذي لم نوفق الى التعريف به ، ولا نعرف عنه شيئا سوى أنه كان مشرفا على كورة بلنسية حسبما يذكره ناسخ الديوان ، الذي يخبرنا أيضا أن الوزير بن عامر كان مجملا مع شاعرنا ومراعيا له فيما يختص به وبضيعته فى بلنسية . وقد نظم شاعرنا ـ اعترافا بفضل صديقه وكرمه ـ قصيدة طويلة عدد أبياتها ثلاث وخمسون ، نظمها فى سنة غير محققة ، افتتحها بالغزل وبعد أبيات فى الحماسة شرع فى مدح ملازمه فوصفه بما اعتدنا عليه من الأوصاف التي يمتاز بها الأجلاء من الناس .

وقد تنتهي قائمة هؤلاء الوزراء باسم شخصية أخرى لا نعرف عنها كذلك شيئا جديرا بالذكر الا ما قاله فى حقها ناسخ الديوان كما كان الامر فى شأن ابن عامر ، ألا وهو أبو الحسين بن الربيع الذي كان صاحب مدينة قرطبة . وكم من سؤال يتبادر الى الذهن

ولا نستطيع أن نجيب عنه ! . هل كانت بين أبي الربيع وبين ابن خفاجة علاقات ودية وثيقة ؟ هذا ما لا نسمح لنفسنا الجزم به ، لما يشير اليه ناسخ الديوان فى مقدمة قصيدة (رقم 99) كتب بها ابن خفاجة الى ابن الربيع لأمر عرض له بقرطبة ، فيفتتح قصيدته هذه بالغزل ، ثم بعد أبيات فى الحماسة يأخذ شاعرنا فى مدح الوزير ، والبيت الآتي يدل على نوع من التنميق :

31 ـ أأَبَا الحسين وما دعَوْتُ مُصَغِّرًا
بِأَبِي الحسين وقد دعوت كُبَارَا

ثم ينتهي ابن خفاجة من قصيدته دون أن يوضح حاجته مكتفيا بالاشارة الى جور الدهر وشيب رأسه فيقول :

45 ـ فسرتْ الىِ مع الركاب تحيةٌ
عقدتْ عليِ من العلى أزرارا

47 ـ هَدَرَتْ جنَايَةَ صَرْفِ دهْرٍ جَائرٍ
نفضَ المشِيبَ بعارضَيِ غُبارا

48 ـ واذا حَنَوْتَ ولاَ سلوتَ فَإِنَّمَا
أنتَ القريب وان شَحَطْتَ ديارا

ومن بين القضاة الذين اتصل بهم ابن خفاجة ينبغي أن نذكر القاضي أبا اسحاق ابراهيم بن ميمون . 128 والذي لا نعرف عنه أشياء كثيرة . الا أنه كان قائما بمدينة ميورقة حيث ولي القضاء بها ومن المحتمل القريب أن نفترض أنه كان أصغر من

ابن خفاجة الذي تعرف به فى احدى مــدن شرقي الأندلــس فانعقدت ــ حسبما يبدو ــ بين الرجلين علائق ودية طيبــة . يقول ناسخ الديوان فى مقدمته : « فكان بين شاعرنا والقاضي ابن ميمون مداعبات شعرية ومخاطبات ... » وقد نجد فى الديوان مقطعة شعرية (رقم 186) لابن ميمون ، اذ كان يميل الى الشعر، ويفرغ لنظم القوافي من حين الى آخر ، كتب بها لابن خفاجة ليستدعيه وقصده فى ذلك التماس الجواب عن شعره . فأجابه شاعرنا فى نفس رويه بخمسة أبيات يداعبه فيها ، مقارنا بينه وبين فحول الشعراء مثل أبي تمام والمتنبي : فيقول (رقم 187) :

1 ــ برعتَ فرُعْتَ فمن ذا حبيــب

له الوَيْلُ أم مَنْ أبو الــطَيب

2 ــ ولو جاريالك الى غايــة لـفُزْتَ وكانَا من الخيِّــــب

أما العلاقات التي بين ابن خفاجة والقاضي أبي عبد الله بن حمدين 129 فيظهر أنها لم تكن مثل تلك التي بينه وبين القاضي ابن ميمون .

فابن حمدين ولد سنة 439 هجرية فى بيئة علم ويقول عنه الضبي انه « كان من أهل التفنن فى العلــوم والافتنــان بهــا وبمذكراتها وكان حافظا ذكيا فطنا أديبا شاعرا لغويا أصوليا ولي القضاء بقرطبة سنة 490 هجرية . »

فى أية سنة تعرف به ابن خفاجة وفى أية ظروف ؟ ذلك ما ليست لنا دراية به ، وعلى كل حال فاننا نجد فى ديوان شاعرنا قصيدة

(رقم 173) عدد أبياتها ثلاث وأربعون أرسلها ابن خفاجة لابن حمدين بقرطبة فى سنة غير محققة ، يمدح فيها آل ابن حمدين جميعا وأبا عبد الله بالخصوص مؤكدا على ما يمتاز به من نبوغ فى العلم والأدب وشجاعة فى الجهاد ومقاومة العدو ثم يشير بعد ذلك الى كرمه وحلمه فيسأله الشفاعة لصديق من أهل جزيرة شقر ، صديق لا نجاة له من هذا المأزق الا بفضل القاضي ابن حمدين . ولا يخالج شاعرنا شك فى قدرة القاضي الكريم على هذا فيقول :

38 ـ فانهضْ أبا عبد الإله بآمـل
قد جابَ دونك كلَّ خرقٍ طامس

39 ـ عاج الرجاء على عُلاك بـه فلم
يعجِ المطيِ برسم ربـع دارس

40 ـ فاشْفَعْ لمغتربٍ رجاك علـى النَّوَى
يمدْ الى الخضراء راحة لامس

هؤلاء الأعيان من الخاصة الذين تعرضنا الى التعريف بهم والذين كانت بينهم وبين ابن خفاجة علائق ودية ، تارة وثيقة وتارة متباينة ، يمتازون كلهم بلا استثناء بالثقافة والعلم . وفضلا عن هذا فان البعض منهم كانوا يقولون الشعر من حين الى آخر . ومن المحتمل ، فيما يبدو لي ، أن ابن خفاجة اصطفى حمـاة يشاركونه فى ذوقه ويميلون الى ما يميل اليه ، جامعا هكذا بين فائدته الحينية وهمته كشاعر . أكان من الممكن أن يحط مـن

قيمته ويهين شاعريته فيمدح انسانا لا ريب فى قوته ونفاذه . ولكنه جاهل خشن الطباع ؟!

ذلك فى رأينا ما لا يمكن وقوعه . وقد تضمنت رسائله وقصائده أقوالا حول براعة أسلوب مراسليه وبلاغتهم ، وحول مواهبهم الشعرية والأدبية ، مما يدل على اهتمام شاعرنا بهذه الناحية من شخصيتهم ، فمن اليسير عليه اذن أن يتجنب التملق ، والنفاق فى القصائد التي نظمها فى حق حماته وقد صار البعض منهم أصدقاء له بأتم معنى الكلمة ، يأنس اليهم ويسارهم ، ونلاحظ عندئذ أن ابن خفاجة ، رغم كل شيء ، لم يصبح شاعر بلاط بالمعنى المتعود عليه ، فلم يكن غرضه ارضاء طموح أو نيل جاه أو جمع ثروة . وبقي محافظا على مبادئه فلم يرض أبدا أن يبيع شعره ، ويصرح جهرا أنه لا يسمح لنفسه بمدح شخصية الا اذا رآها أهلا لذلك ، فيقول من قصيدة 130 :

12 ـ شددتُ على القوافي كفَّ حرّ
كريم لا يُسَوِّغُهَا لئيما

13 ـ فما أطري اذا أطرَيْتُ الا حميًا أو حبيبا أوحميما

ولو ألقينا الآن نظرة عامة على الانتاج الشعري لابن خفاجة فى المرحلة الثانية من حياته لتجلي لنا فى يسر أنه انتاج ضخم من ناحية الكمية . فشاعرنا رغم بلوغه الستين حولا من العمر لم ينضب ينبوع شاعريته ، بل على العكس ظل يتدفق من كل ناحية وانا لنجد انفسنا أمام شاعر فنان مكثر متمكن من اسرار البلاغة .

والقصائد التي نظمها فى هذا العهد أطول وأتقن من التي نظمها فى شبابــه

ومن المعلوم أن أي محاولة لترتيب هذا الانتاج ترتيبا تاريخيا غايتها الفشل ، فالقصائد المؤرخة نادرة جدا ، الا أنها قد بلغتنا على وجهها الأكمل ، لأن ابن خفاجة لما جمع ديوانه لم يكن ثمة سبب فيما يظهر يجعله يحذف أو يبتر بعضها .

ومن جهة أخرى فان الاطار الذي استعمله شاعرنا هو نفس اطار القصائد الكلاسيكية ، ومدخل بعضها يذكرنا بالنسيب عند القدماء وقد يستعيض ابن خفاجة عنه فى كثير من الأحيان بوصف الطبيعة ومجالس الأنس حيث كان شاعرنا أوقاته السعيدة فى الطبيعة ومجالس الأنس حيث كان شاعرنا يقضيأوقاته السعيدةفى رفقة الجنس اللطيف ، ثم يأتي بعد ذلك مدح المهدي اليــه ، الذي يتصف طبعا بالصفات المثالية المتعارف عليها ، من أصل شريف وشجاعة وكرم وقوة وحلم . ثم يخبر الشاعر مخاطبه بما يرغب فيه ، وينتهي من قصيدته بالدعاء والشكر والثناء . وقد يردف ابن خفاجة فى كثير من الأحيان قصائده برسائل ، يكرر فيها بأسلوب مسجع نفس المعاني التي وردت فى القصائد .

والبحور المستعملة عنده فى غالب الاحيان هي : الطويــل والكامل ، وهما البحران اللذان يستعملان عادة فى القصائد التي من هذا النوع

وكما هو من المتوقع فان المدح يمثل القسم الأوفر فى هذا الانتاج الشعري ، ويشمل عشرين قصيدة تتفــاوت كميــة اذ

يتراوح عدد أبيات كل منها بين العشرين والتسع وتسعين . والفن الثاني الذي تعرض له ابن خفاجة هو الرثاء ، الا أنه لم يكثر منه ، ومع هذا فان المناسبات غير نادرة للبكاء على فقد أصدقاء ورفقاء ، ونجد أربع مرثيات فقط رثى بها شخصيات معروفين ، وما عدا هذا فكل ما جاء له من رثاء هو فى اصدقاء غير مذكورة أسماؤهم . وكذلك الأمر فيما يخص الزهديات ، فان الشاعر لم يتوسع فيها ، ولا نجد فى ديوانه الا سبع قصائد أو مقطعات شعرية . الا أنه ينبغي أن نلاحظ أن من العسير أن يستقل كل فن بنفسه ، فكثيرا ما نعثر على أبيات من الشعر الزهدي خلال المراثي . ومن جهة أخرى ينبغي أن نلاحظ أن ابن خفاجة تجنب كل شعر يذكرنا بما أنشده فى شبابه والأبيات المعدودة من الشعر الغزلي التي عثرنا عليها انما جاءت فى بداية قصائد المدح كما أشرنا الى ذلك آنفا .

ويتجلى لنا ابن خفاجة شاعرا كلاسيكيا تقليديا من ناحية المعاني ومن ناحية الاطار الذي صاغ فيه قصائده ـــ ولكن هناك ميزة تميزه عن غيره من الشعراء السابقين : فالصور والتشبيهات والاستعارات مأخوذة بأسرها من الطبيعة ـــ وانا لنشعر عند ابن خفاجة برغبة فى الاتيان بما هو جديد طريف . واستمرار ورود الطبيعة فى شعره يدل على أنه ليس ثمة حد فاصل بين المرحلتين اللتين أشرنا اليهما من قبل . لقد بقى ابن خفاجة متمسكا بالطبيعة تمسكا شديدا ، وفودته الطبيعة بكمية ـــ تكاد لا تنفد ـــ من صور متنوعة يانعة .

وها نحن نبلغ الآن السنوات الأخيرة من حياة شاعرنا الذي عمر طويلا ، كما نعلم . ترى فى أي سنة توقف شاعرنا عن قول الشعر ؟ فى السنوات الأخيرة من حياته الممتدة فيما يبـدو .

وفى الديوان نجد فعلا مقطعة شعرية قالها الشاعر وقد بلـغ احدى وثمانين سنة من عمره ــ أي قبل سنتين من وفاته ، يجيب أبا العرب عبد الوهاب التجيبي وقد سأله عن حاله (131) :

1 ــ أي أنْسٍ أو غِذَاء أوسِـنَةْ   لابن احدى وثمانيـن سنـــه

2 ــ قلص الشيب بها ذيل امرىء

طالما جرّ صباه رَسَنَـــــه

3 ــ تارة تخطو بـه سيّئــــةٌ   تُسْخِنُ العَين وأخرَى حسنــه

أن يشاهده : فالمنية ذلك « النسر » الذي لا يرأف ولا يرحـم
نأ يشاهده : فالمنية ذلك « النسر » الذي لا يرأف ولا يرحم
قد ذهب بأصدقائه الأعزاء الواحد بعد الآخر وما هو الآن الا شيخ هرم يئن تحت عبء السنين ويتأوه من أوجاع أصابته فى ذاته ، ويتجرع مرارة الوحدة والانفراد الموحش فيلجأ الى ماضيه ليتسلى وقتا من الزمان ، ويتذكر بحنان حياته السعيدة فى مجالس أنسه حين كان يتمتع بالصحة لاهيا فى رفقة الأصفياء . وقـد احتفظ لنا التاريخ بقصيدة من هذا الطراز فتن بها « صاحب الروض المعطار » ــ 132 وفيها يتشوق الشاعر الى معاهـدة بجزيرة شقر ، فيقول :

بين شُقْرٍ ومُلْتَقَى نَهْرَيْهَـا

حيث ألقتْ بنَا الأَمَانِي عصاهـا

ويُغَنِّي الْمُكَّاءُ فِي شَاطِئَيْهَـا يستخف النهَى فحلَّتْ حُبَاهَا

عِيشَةٌ أقبلتْ يُشَهِّي جناها وارفٌ ظلهَا لذيذٌ كراهَا

لعِبَتْ بالعقُولِ إلاَّ قليلا بين تَأوِيبِهَا وبين سُراهـا

فانثَنَيْنَا مع الغُصُونِ غصونا مَرَحًا فِي بِطَاحِهَا ورُبَاهـا

ثمَّ ولَّتْ كأَنَّهَا لم تكد تلبثُ الا عشيّة أو ضحاها

فاندبِ المَرْجَ فالكَنِيسَةُ فالشَّط 133 م

وقل آه يامعيدَ هواهَا

آهِ من غربة ترقرق بثًّا آهِ من رِحلة تطول نَوَاهـا

آهِ من فُرْقَةٍ لغير تلاقٍ آهِ من دارٍ لا يُجِيبُ صداها

لست أدري وَمَدْمَعُ المزْنِ رَطْبٌ أبكَاهَا صبابَةٌ أم سقَاهَا

فَتَعَالِي يا عيْنُ نَبْكِ عَلَيهـا

من حياةٍ إن كان يُغْنِي بُكَاها

وشَبَابٍ قد فات إلاَّ تَنَاسِيهِ م ونَفْسٍ لم يبق إلا شجاها

ما لعيني تبكي عليها وقلبي يتمنَّى سَوَادُهُ لَوْ فداها

ولاشك ان ابن خفاجة وجد فى ذكرياته راحة وبفضلها نسى حاضره وغفل عما ينغص عيشه ، ولكنه عندما يفيق ويدرك

خطورة حاله نجده من ألد المتمردين على الحياة الدنيوية فرفضها فى نغمات رومنطيقية قبل أوانها . ويودع ابن خفاجة فى قطعة شعرية 134 ، هي فيما يبدو تصوير لحالة نفسية خاصة بالشيخوخة ، بأسلوب معقد يأسه النهائي أمام هذه الحياة ، فيقول :

5 ـ فَيَا لَيْتَ أنِّي ما خُلِقْتُ لِمَطْعَمٍ

ولم أدر ما اليسرى هناك ولا العسرى

ويظهر لنا من خلال الديوان أن ابن خفاجة لم يهتم كثيرا بالآخرة ، ولم يتسل عن هذه الحياة بما سيجده فى دار الخلد من نعيم ، فلما أحس بقرب أجله نظم قطعة شعرية 135 أعدها لتكتب على قبره ، واستعد ليفارق هذه الدنيا غير نادم عليها :

خليليِ هل من وقفة لِتَأَلمِ على جدثِي أو نظرة لترحّم

خليليِ هل بعد الرّدى من ثنيّة

وهل بعد بطن الأَرض دارُ مخَيِّمِ

وإنّا حَيينَا أو رَدِينَا لا خوة فمن مرَّ بيِ مِنْ مسلم فليسلم

وما ذا عليه أن يقول محيِّيًا

أَلاَ عِمْ صباحا أو يقول ألاَ أسْلَمِ

وفاءً لاشلاءٍ كَرمْنَ على البلى

فعاج عليها من رُفَاتٍ وأَعْظُمِ

يرَدِّدُ طورا آهَةَ الحزن عنْدهَا ويذرف طورا دمعة المترحم

فى تلك الجزيرة ، جزيرة شقر ، توفى ابن خفاجة ، ودفـــن بها ، كما أوصى به ، سنة 553 هجرية / 1138 مسيحية وقد بلغ من العمر ثلاثا وثمانين سنـــة .

البـاب الثانـي
الديوان الشعري لابن خفاجـة
الاغراض الشعريـة

الفصل الاول

1) شعر البلاط

2) المرثيـات

3) الزهديـات

1) الأغراض المدحيـــة

كانت نية ابن خفاجة فى قصائده المدحية أن يكون شاعــرا كلاسيكيا بأتم معنى الكلمة ليرضي حماته فيبلغ غايته ، فتناول فعلا كل الأغراض المدحية الموجودة عند من سبقه من الشعراء مثل كرامة الأصل والفضيلة الشخصية والشجاعة والكرم والرأفة والحلم . وقد حاول ابن خفاجة أن يأتي فيها بما هو جديد طريف غير أنه لم يتجاوز العبارة والأسلوب ، لقد ظل ذلك الفنان المغرم بالتعابير المنسجمة العذبة ، وبالاستعارات الرائقة المقتبسة مــن الطبيعة فى غالب الأحيان .

ولو ألقينا نظرة على عامة هذه الأغراض المدحية التي ذكرها شاعرنا ، للاحظنا أنه توسع فى تحليل البعض منها دون الآخر ، ولا سيما فيما يتعلق بالخصال الذاتية والأخلاقية التي تتميز بها الشخصية الممدوحة . وقد يخطر بالبال أن ابن خفاجة لم يبق جامد أمام أبهة وحسن هيئة ممدوحيه الذين هم فى رأيه أهل للمدح والثناء ، وهذا ما يساعدنا ربما على فهم ما نشعر به من اخلاص خلال قصائد شاعرنا وقتما يخاطب أمثال أبي اسحاق أو ابن رحيم مثلا .

وينبغي أن نميز فى دراسة هذه الأغراض بين الخصال الذاتية والخصال الأخلاقية . فقد يبدو أن ابن خفاجة كان شديد التأثر بما يمتاز به ممدوحه من جمال فى ذاته وانسجام حتى أدى بــه هذا الى أن يتساءل يوما فقال :

6 ـ مليك تبسم ثغرُ المُنَى بمَرْآهُ وامتَـدَّ خطوُ الأَمـل

7ـ يشد اللِّثَام على صفحةٍ

ترى البدر منها بمَرْقي قى زُحَـلْ

8 ـ فلـم أدر والحسن صنْوٌ لـــه

أَبْدَأُ أ بالمـدح أم بالغـزل

(ق . رقم 58)

ولهذا تغنى شاعرنا باللباقة واللطافة ، بالبشاشة والانشراح ، وهي خصال تجعل صاحبها حسن العشرة ، خفيف الروح ، عذب الكلام . واهتمام ابن خفاجة بهذه الناحية من شخصية ممدوحه أدى به الى اقتباس استعارات من طبيعة يانعة مبتسمة والى استعمال صفات نعثر عليها عادة فى الشعر الغزلي .

يتغنى ابن خفاجة فى نفس الوقت بما يشعر به من نقاء سريرة وصفاء نية لرؤية وجه ممدوحه ، فيقول مثلا ، مشيرا الى أمير مرابطي :

37 ـ ووجه وضيء شف عنْه لثامُـه

كما شفّ رقرَاق الغَمَام عن البـدر

(ق . رقم 1)

ويقول أيضا :

49 ـ طَلْقُ الجَبِين كأَنَّنِى مُسْتَقْبلٌ

بلقائه وجهَ الشَّبَابِ المُدبـر

50 ـ رطْبُ الكَلاَمِ على سماع جليسـه
فكأن فيِ فيه لسانَ مُبَشِّـــر
(ق . رقم 6)

ومن فضائل هذا الوجه المنبسط المبتسم أن يفـوح طيبـا فتنتشر تلك الروائح وتعم من حوله ، ويبالغ ابـن خفاجـة فى وصفه حتى يكاد يرى فى هذا الوجه معجزة فيقول :

16 ـ تَشِيمُ بِصَفحَتَيْهِ بُرُوقُ بِـشْرٍ
تُعِيدُ بشاشَةَ الروض الجديب
(ق . رقم 50)

واذا افتتن الشاعر بالجمال ، ولطافة الوجه ، فقد افتتن كذلك برخامة الصوت وعذوبة الكلام ، وحلاوة الحديث فيقول :

55 ـ فيِ حسن مَنْطِقِهِ وهشَّةِ وجهه
مُسْتَمْتَعُ الأَسْمَاع والأَبْصَــار
(ق . رقم 2)

ويقول أيضا :

23 ـ سَلِسُ الكلام على السِّماع كأَنَّهُ
سِنَةٌ ترقرق بين جفنيِ ناعس
(ق . رقم 173)

فذات الممدوح بأكملها تظهر لشاعرنا فريدة فى نوعها ، ولا يوجد منظر من مناظر الطبيعة مهما كانت روعته صالح للمقارنة بـــه .

49 ـ فما روضةٌ غنَّاءُ في رأس ربوَة

تُعَل بمُنْهَلٌّ من المُزْنِ ساجِم

50 ـ بأَحسن مرأى من حلاَك لناظر

وأعْطَرَ نشرا مِنْ ثَنالِك لناسم

(ق . رقم 199)

ويؤكد الشاعر قيمة هذه الخصال الذاتية ، فيذكر العصفور وهو يترنم فى الرياض ، والظلال والروائح والأزهار ، وكل ما هو عزيز عليه فى الطبيعة فيقول :

39 ـ ولا الروضُ غِبَّ القطر فضّضه النّدى

ورجَّع فيه طائر فتكلَّما

40 ـ بأَطيبَ أُفياء وأنْظُرَ صفحة

وأعطر أخلاقا وأحلى تَرنما

(ق . رقم 178)

وأخيرا يشبه ابن خفاجة ممدوحه بفصل الربيع بكل ما فيه من روعة وجمال فتان .

وقد تضاف الى هذه الخصال الذاتية خصال أخلاقية سامية تجعل من الممدوح رجلا كاملا ،ومعلوم أن من توفرت فيه هذه الصفات لا يكون الا من أصل شريف ، وليس هناك أصل أشرف من أصل قريش ، ومن ثم لم يفت شاعرنا أن يتغنى بهذا الأصل المجيد ، الذي كان مفخرة كل من انتسب اليه . يقول :

36 ـ إمَامٌ تَدَانَى رَأْفَةً وَسَمَا بِهِ

إلى الْمَجْدِ بيت طاول النَّجمَ أَرْوَعُ

37 ـ جلِيٌّ وَمِنْ بطحاء مكة

إلَيْهِ وللبيت الحرام تَطَلُّع

38 ـ تَرَى لِقُرَيْشٍ فِيهِ بَرْقَ مَخِيلَةٍ

يلوحُ وَعِرْفًا لِلخلافة يَنْزِع

(ق . رقم 49)

ويقول أيضا :

1 ـ بمثل علاك من ملك حسيب

عدلتُ إلى المديح عن النسيب

15 ـ إمَامٌ فِي الذؤَابَةِ من قريش

وحسبُ الْمَجْدِ مِنْ عود صليب

(ق . رقم 50)

وبعد الأصل القرشي يشير ابن خفاجة الى الأصل الحميري :

31 ـ للك اللهُ مِن شَهْمٍ يُسدد سَعْيَه

إذا طاشت الأَلْبَاب رأيِ مُوَفَّقُ

32 ـ تهزُّ بِهِ مِنْ حِمْيَرٍ فرع سؤْ دُدٍ

كريمَ الجنى والظلِّ يسمو وَيَسْمُقُ

(ق . رقم 139)

يشير ابن خفاجة فى الأخير الى الأصل الصنهاجي ، وهو أصل

ويشير ابن خفاجة فى الأخير الى الأصل الصنهاجي ، وهو أصل يسمح له بأن يأتي بهذه المقارنة :

83 ـ تنميهمُ الدنيا إلى صِنْهَاجَةٍ

والدِّين ينميهم إلى الأَنصار 137

(ق . رقم 2)

ويقتصر شاعرنا أحيانا فى مدحه على أسرة الممدوح كلها ، كما هو الأمر مثلا فى مدحه بني رحيم أو بني حمدين ، فكلتا الأسرتين جليلة تمتاز بالصفات التقليدية المعروفة ، وكل فرد منهما يتصف بالبطولة :

15 ـ من أسرة نشئوا غَمَائِمَ أَزْمَةٍ

ولربما طلعوا بدورَ حنَادِسِ

16 ـ مُتَطَلِعِين إلى الحروب كأَنَّمَا

يتطلَّعون بها وجود عرائس

18 ـ وجنَوْا ثمار النصر من غَرْسِ القنى

بأَكفِّهِم ولنعمَ غَرْسُ الغارس

21 ـ من كل أروعَ راع كلَّ ضُبَارِمٍ

بأسا وَذَلل نفسَ كل منَافس

(ق . 173)

فهل من الغريب أن يلعب هؤلاء الأشخاص الدور الأساسي فى الحياة ، وقد زودهم الله بالفضائل النادرة ، أخلاقية وثقافية ، تلك الفضائل التي لا يفوت ابن خفاجة أن ينسبها الى جميع ممدوحيه الأجلاء .

وقد يبدأ بالاشارة الى فطانة الممدوح فى صباه ، وتفوقه على غيره من الفتيان أنداده ، وتقدير حق النفوس الكريمة — كما يقال — لا ينظر فيه الى عدد السنين ، وقد استخدم شاعرنا هذا الغرض الواسع كثيرا . فمن خصائص الرجل العبقري ، الذي ميزه القدر عن غيره فانزله منزلة عليا بين مواطنيه ، أن نضج الفكر عنده لا علاقة له بالسن ، وشخصية كهذه ، جمعت بين الصغر والنبوغ ، شخصية مجيدة ، وشهرتها تعود على من حولها من المواطنين . وابن خفاجة عند مدحه تميم 138 يقول :

50 — ونَالَ تميمُ سؤددَ الكهل فى الصِّبى

فتم تَمَام البدر في غُرَّةِ الشهر

51 — وحلَّتْ به الأَمْلاَكُ وهي شريفة

محل ليالي الصوم من ليلة القدر

(ق . رقم 1)

ويقول فى محل آخر :

11 — فتًى شاب في عصر الشَّبيبة حُنكة

وقام صغيرا في جلال كبير

(ق . رقم 135)

وهكذا يصبح هذا الانسان الفريد فى نوعه مفخرة أهله ومعاصريه ، فيباهي به الأجانب اذ لا يوجد فى العالم من يعدله :

29 ـ وحسبك من أَوْحَدٍ أَمْجَدٍ تُبَاهَى به العُرْبُ صِيدَ العجم
(ق . رقم 5)

والانسان الذي يمتاز بهذه المواهب لا يعرف بطبيعة الحال أي خيبة فى حياته ، وفضلا عن هذا يبدو للناس أن الحوادث بيده ، وتسير بأمره ، ألم ينسب اليه قدرة غير معهودة فى الجنس البشري ، وذلك حين يقول :

48 ـ خدم القضاءُ مرادَهُ فكأَنَّما
ملكت يَدَاهُ أَعِنَّةَ الأَقْـــدَارِ
49 ـ وعَنَا الزَّمَانُ لأَمْرِهِ فكأَنَّمَا أصغى الزمان به الى أمّـــار
(ق . رقم 2)

فلتسعد الرعية التي تعيش فى ظل شخصية كهذه ، قادرة على أن تستجيب لدعواتها ، وترضي أمانيها ، وتضمن لها قبل كل شيء الأمن والهناء ، فى عهد يسوده الاضطراب والفوضى :

5 ـ أتانا الـــزمـــان به آخرا تهشّى إليـــه الليـالي الأُول
6 ـ مليـــك تبســـم ثغرُ المنى بمرآة وامتـــد خَطَوُ اللأَمـلْ
(ق . رقم 57)

وقد يتمتع الانسان فى مملكة كهذه بالاطمئنان ،وراحة البال ،

لا يعتدى عليه معتد أبدا . فيعمد الشاعر الى التعبير عن هذه الفكرة بالتشبيه الآتي :

61 ــ أعْصَمَتْ نَفْسُ امرىءَ عَلِقَــتْ
منه بالوُثْقَى مـــن العِصَـم

62 ــ واستجارت مـــن مُجَيَّمِ بِفِنَـاء الْبَيْـــتِ وَالْحَـرَم

(ق . رقم 60)

واذا كان فى وسع رجل كهذا أن يحمي بعزم رعيته ، ويضمن لها الأمن والسلامة ، فأحرى بـه أن يحمي الدين الاسلامي ، ويدافع فى سبيل انتشاره وانتصاره ، فهو القائد الأول المتبصر بما له من مسؤولية ، فى شؤون رعيته ، فلا يبخل بجهوده أبدا فى اصلاح مملكته ، وتعزيزها وتمجيدها :

23 ــ يسير به في الحق رأيٍ مُسَدَّدٌ
على منهج التقوى وعَزْمٌ مُؤَيَّــدُ

24 ــ فما تُرعَدُ الأَسْيَافُ الا مهابــة
لمُؤْتَمِر في الله ينهى وينهَد

26 ــ ويُذْكِي وراء الليل عينا حديدة
ينام بها الدين احتراسا وتسهَــد

(ق . رقم 149)

وينبغي لهذا القائد أن يجمع بين القوة والصرامة ، ليكــون السلم سائدا فى رعيته ، وليعيش أفرادها متآخين ، متساعدين لا يظلم بعضهم بعضا ، ويعمد ابن خفاجة فى تعبيره عن هــذه الحالة الى صورة رائقة شيقة فيقول :

13 ـ أرعَد في تدمِير زجرا لها فما لِعنْزَيْنِ هناك انتطـــاح
14 ـ وغض من أصواتها صَوتُه إنَّ زئير الليث غير النبَـاح
(ق . رقم 126)

وينبغي أن نلاحظ أن هذه الطباع لا يخشى على صاحبها أن يغير سلوكه فى تسيير شؤون دولته ، فالشدة فى الحكم والصرامة فى تنفيذ الأوامر ، لا علاقة لهما بالاضطهاد والتجبر والظلم ، فكل قائد يحافظ على رعيته حتى لا يتألم الضعيف من القوي ، والفقير من الغني . ويعطي لكل ذي حق حقه ، فالعدل مـن المباديء الأساسية التي تسير عليها كل دولة .

ولا يفوت ابن خفاجة أن يصف ممدوحه بالعدالة فى أقواله وأفعاله حيث ينشد :

25 ـ فهضبةُ حِلْمٍ اذا ما احْتَبَى وقسْطَاسُ عَدْلٍ اذا ما حكم
26 ـ يسير به الحق سير القطا فيقضِي ويمضِي مُضَيِ الزَّلَمْ
(ق . رقم 5)

والكلام عن الذكاء والفطانة قد يبدو كلاما بسيطا لا فائدة فيه حينما يكون المعنى شخصية ممتازة بارزة .

ومعنى هذا أن ابن خفاجة يرى أنه من اللائق أن يتغنى بهما لعلمه بما تثير فى نفس سامعه من طرب وغبطة فيقول فى قصيدة :

58 ـ يقِظٌ ، ذَكَا فهمًا ، وأشْرَفَ هِمَّةً
وكَفَاكَ من نار به ومَنَـــار

59 ـ لبِس التواضعَ عن جلال وارتقى
شَرَفا بحيثُ سَما سماءَ فَخَار
60 ـ أَلقَتْ اليه بالامور إِمارةٌ
ملأَتْ رُوَاءً أَعْيُنَ النظَّار
61 ـ فعنانُ تلك الدولة الغرّاءفي
تدبير ذالك الفارس المِغْوار
(ق . رقم 2)

ويقول أيضا :

40 ـ فمِنْ نُور رَأيٍ لو تراءى لناظر
للاح به تحت الدُّجُنَّة فرّقد
(ق . رقم 149)

وهؤلاء القواد كلهم مجاهدون ، شجعان لا يفرون أمام أي خطر،وهدفهم الوحيد الذي وضعوه نصب أعينهم هو الانتصار على العدو ، وهكذا يذكر ابن خفاجة الشجاعة والاقدام والمهارة في الحروب ، ه [illegible] خصال تتكرر في قصائده المدحية ، كما نجدها في القصائد [illegible] حماسية .

ومن الطبيعي أن يتصف الرؤساء بهذه الخصال في عهد يمتاز ، كما أشرنا اليه آنفا ، بحروب قاسية مستمرة ، ومن المتوقع اذن ألا يفوت ذلك ابن خفاجة ، وقد أكد على حذاقة ممدوحيه ،

وتحيلهم فى نصب المكايد للعدو ، فكانت انتصاراتهم لا تحصى ، فهم أبطال مشرفون خالدون .

ونلاحظ فى هذا الوصف أن ابن خفاجة اكتفى بتقليد من سبقه من الشعراء ، فجاء بنفس معانيهم ، محتفظا باطار القصيدة الكلاسيكية ، ولا نجد تغييرا يذكر بين قصيدة وأخرى ، من ناحية مبناها ، فهو يصف لنا دائما ممدوحه محاربا وسط جيوشه ، يشير الى قوة العدو وحماسته ، ليبين شجاعة المسلمين وقدرتهم ، فيكون انتصارهم حينئذ ذو قيمة عظيمة .

ووصف لنا ابن خفاجة بعض المشاهد أثناء هذه الحروب العنيفة ، حيث يعرض علينا جيوشا ضخمة وفرسانا مسلحين بالصوارم اللامعة ، والسيوف الحادة ، التي بها يطعنون العدو وصور لنا الشاعر فى نفس الوقت الارض تحت أقدام الخيول وقد سقتها الدماء وكساها عدد عديد من الموتى ، ومن جملة هذه المشاهد المروعة نذكر على سبيل المثال هذه الأبيات :

3 ـ وثار يطلع نَقْعُ الجيش مُعْتَكِرا

بحيث يطلع وجْهُ الفتح مُقْتَبِلا

4 ـ من عسكر رجفت أرض العَدُوِّ به

حتى كَأَنَّ بها من وَطْئِه وَهَلا

9 ـ ترى به ماءَ نَصْلِ السيف مُنْسَكِبًا

يجري وجاحِمَ نار البأس مشتعلا

10 ـ فغادر الطَّعْنُ أَجْفَانَ الجِرَاح به

رُمْدًا وصيَّرَ أطراف القنى مُقَــلا

11 ـ وأشْرَقَ الدَّمُ فيِ خدِّ الثَّرى خَجَلا

وأَظْلَمَ النَّقْعُ فيِ جفْنِ الوغى كَحَلا

14 ـ كأنني بعلوج الروم سادرة

وقد تضعضع ركن الكفر فاستفلا

20 ـ قدْ كَرَّ فيِ لَأمَة خضرَاءَ تــحْسَبُهَا

بَحْرًا يُلاَطِمُ من أَعْطَافه جبلا

22 ـ فزاحم النَّقْعَ حتى شقَّ بــردتَهُ

وناطح الموتَ حتى خَرَّ مُنْجَدِلا

23 ـ مُوسَّدا فوق نَصْلِ السيف تحسبــه

مستلقيا فوق شاطيء جدول

24 ـ فكم مُمَزِّقَةٍ من جِيبِهَا طَرَبــا

قد مزِّقت بعده من جيبها ثَكَلا

(ق . رقم 154)

ونذكر أيضا في هذا الصدد الأبيات التي وجهها ابن خفاجة الى الأمير أبي اسحاق ممدوحه حيث يقول :

15 ـ وتُدْمَى الشِّفارُ وتُحْنَى القنى
وَتُحْمَى الذِّمَارُ وَتُرْعَى الْهَمَلْ

16 ـ وَتُمْلَا رُعْبًا صدورُ العدى
وتُرعَف بأسا أنوف الأَسَلْ

(ق . رقم 157)

وقد يذكر ابن خفاجة العدو ، ويصفه بالبطولة والحماسة ومع ذلك فانه لا يعرف النصر أمام ممدوح شاعرنا ، ولا يجد النجاة الا فى الفرار :

20 ـ ألم تر ما كان من بأسه بِتُمُورِيَةَ يوم خام البطل
21 ـ وخار الأَبِيُّ وخرّ الكَمِيُّ وجدّ الجِلَادُ وقلَّ الجدَلْ

22 ـ ورام النَّصارى بها نُصْرَةً
فلم يُنْجِدِ الرُّومَ رَوْمُ الحِيَلَ

23 ـ وصدّ ابنَ رُذْمِيرَ (5) عن نصرها
تلظى حِرَابِ دَوَامِي المُقَلْ

(ق . رقم 57)

وفى النهاية يوجه ابن خفاجة الى ابن رذمير أبياتا يهدده بها وينذره بقوله :

37 ـ فقل لابن رُذْمِيرَ مهما تَشِز
يُقَوِّمْ صَغَاكَ الأَمير الأَجل

39 ـ فَمِلْ عن طريق شهابٍ سرى

فأهوى ووادي أتِيٌّ حَـــمَــلْ

40 ـ وَحِذْ رغبةً عن عُبَابٍ طمى

ولُذْ رهبةً بِصَيَاصِي جَبَــلْ

41 ـ والافئمَّ جوادٌ يــعــبُ ونصلٌ يهبُّ اذا سُــلَّ صَلْ

(ق . رقم 57)

ويصف الشاعر بطله بأوصاف تدل على كرم أصله ، وسعة خاطره ، فى الوقت الذي يتمتع بانتصاره على العدو انتصــارا باهرا يستحق من أجله التقدير والاجلال . وهذا الأمير لم يكن رجلا محاربا ذا بأس شديد فحسب ، وانما هو كذلك انسان عطوف، حليم يغفر لعدو مقهور مخذول ، ومن المعلوم أن الحلم غــير الضعف ، وابن خفاجة يلفت نظرنا الى التمييز بين الكلمتين حتى لا يلتبس علينا الأمر فيقول :

9 ـ وها هو والحلم في طبعه هِزَبْرٌ إذا ما حَمى أوْ حَــمَــلْ

(ق . رقم 57)

ويقول أيضــا :

18 ـ وَتَصْفَحُ لا عن ذلَّة صَفْحَ رحمــة

فترُسل دون الــذّنب سِتْر غفـور

(ق . رقم 135)

وقد يشير الى تسرع الأمير المنتصر فى عفوه يتجلى هذا فى التشبيه الآتي :

56 ـ جارى الرّياحَ إلى السماح فما جرتْ
معه الرّياحُ النكْبُ في مِضْمَارِ
(ق . رقم 2)

ومن الحلم ننتقل بطبيعة الحال الى الكرم الذي يعتبر عند العرب من قديم الزمان من الفضائل الأساسية ، ولم يفت الشعراء أبدا أن يصفوا ممدوحهم بالكرم ولا سيما أولائك الذين كانوا يرتزقون بشعرهم منتظرين الهدايا والعطايا .

فما بقي لابن خفاجة الا أن يقفو أثر من سبقه فيكثر الكلام عن هذا الغرض فى قصائده ، ولا غرابة اذا لاحظنا أنه اقتصر على الاغتراف من المادة العربية ، فأتى بالتشابيه والاستعارات المتداولة بين الشعراء ، كتشبيه الحماة الكرماء بالغيث النافع الذي بفضله تحيا الارض ، وتورق الأشجار والنبات ، ويطفيء عطش الغليل ، فيقول مثلا :

12 ـ واستسق منه أن ظمئتَ غمامةً
يخضرّ عنها كل عود يابس
(ق . رقم 173)

وصورة الغيث النافع تؤدي بطبيعة الحال الى الكلام عن السحاب بما يحمله من مياه ، هي عبارة عن الخيرات الكثيرة

المتدفقة . ولا يقف ابن خفاجة عند السحاب ، وانما ينطلق بـه خياله الى ذكر الأمواج العالية المصطخبة فى البحار ، فيقول فى قصيدتـه :

31 ـ غَشِيتُ به أندى من المزنراحةً
وأطيب أفيـاءً وأمْـرَعَ مَـرْ تـعا

32 ـ طمى الجودُ في يمْناه بحرا وانما
تدفّقَ في أرجـائها فـتـد فَـعـا

33 ـ وأعدى نداه الغيثَ فانهل واكفا
وحسبك مِنْ سُقْيَا أن انسجما مـعـا

(ق . رقم 9)

ويستمر فى وصفه حتى يكاد مدحه أن يصبح تملقا ومداهنة ، حين يقارن بين بخل رئيس ما وسخاء ممدوحه قائلا :

32 ـ وعُجْتَ عليه عَوْجَةَ الصَّب شاقَـةً
بـريقٌ تراءى آخـر الليـل يـلمع

33 ـ ولم أرد الأَوْشَالَ أنقـعُ غُـلّـةً
ويمنى أبي إسحـاق للبحـر مَنْبَـع

(ق . رقم 49)

ومبالغة شاعرنا فى التنميق والتصنع تؤدي الى صور غـير طبيعية معقدة ملتوية تذكرنا بالأدب « الباروكي » Baroque

وهكذا يذهب الى القول بأن من جملة فوائد جريان المياه الصافية العذبة هو أن كل مسلم يستطيع أن يؤدي فريضة الصلاة بدون أن يعوزه الماء للوضوء ، ولا يغفر لمن كان يعيش فى ظلال شخصية، كشخصية ممدوحه ، أن يستعمل التيمم . ولم يبق للفقهاء الا تحريمه ، وقد تعجب شاعرنا من رجل رآه يستعمل التيمم ، وهو على ساحل بحر يزخر فناداه بهذه الأبيات :

56 ـ فيا راكبا ظهر السّرى يبتغي الندى

ويمتصّ أوْشَالَ اللِّئام بـــه ظَمَــ

57 ـ رُوَيْدَكَ مَا هذا التَّيَممُ ضِـلَّــةً

وجهلا وهذا البحــر قد جاش مُفْعَمَــا

58 ـ اذا عَبَّ بحرُ الجود في كــف خــالدٍ

فليس بِجَــازٍ عنـك أن تَتيــمَّمَــا

(ق . رقم 130)

وكثيرا ما يكتفي ابن خفاجة بتشابيه واستعــارات قديمــة بسيطة ، مثل تشبيه ممدوحه بحاتم الطائى ، الذي يضرب به المثل والكرم (ق . رقم 52 بيت 15) .

ولم يكن الكرم عند العرب مجرد عطايا وهدايا ، وانما يظهر كذلك فى الترحيب بالضيوف ، وينبغي لكل أمير أن يستقبل كل من قصده ، مهما كانت وضعيته فى المجتمع ، فالتاجر ، كابن السبيل ، يجدان عنده الخوان والمبيت .

32 ـ وَتَعْشو الضيوفُ الى ناره فتلقى هنــاك أَلاَ مـــــرحبــا
(ق . رقم 69)

واذا كانت هذه الفضائل التي عرضنا لها تتردد فى كل قصيدة مدحية ويتصف بها كل ملك أو أمير أو وزير ، فاننا نلاحظ أن الفضائل الدينية الاسلامية تكاد لا تذكر أبدا مثل الصبر والقناعة والتقى ، وذلك لسبب جلي هو أن هذه الخصال لا يتأتى ذكرها فى عهد تسوده حروب مستمرة عنيفة ، الا ان ابن خفاجة يصف فى بيت أحد ممدوحيه بأنه يؤدي فرائضه نحو الله ، فيقول :

28 ويهجر فيِ الله حتى الكرى ويألــف فيِ الله حــتى نَعَــمْ
(ق . رقم 5)

والملاحظة الثانية هو أن الشعراء كلهم لا يتفوهون ببنت شفة عن المحرمات ، ولا يفكر أي منهم فى وصف حيــاة ممدوحــه الشخصية ، غير أن ابن خفاجة يشير فى بعض الأحيان الى عفاف ممدوحه فيقول :

57 ـ وزكا فشدّ على العفاف إزاره
إن الـــعفاف لشِيمَـــــةُ الأَ حــرار
(ق . رقم 2)

ومما يلفت نظرنا هو أن ابن خفاجة يؤكد كثيرا على اتصاف حاميه بالاحسان ويشبهه بالشمس المنيرة بأشعتها الساطعــة ، فيقــول :

53 ـ متقسِّمٌ ما بين شمس دُجُـــنَّــةٍ

طـلعت وبين غـــمَامَـــة مـــدرار

(ق . رقم 2)

وعمل المعروف تكون عواقبه حسنة لا محالة . فبفضله تتجلى الصعوبات ، وتنحل المشكلات ، وتزول الهمـوم والكـروب والأحزان . وكل هذا يرمز اليه بالظلام الكالح يقابله الضيـاء ونور الشمس ويرمز بهما الـى البســط والسرور والسعـادة والهناء . وفى عهد ممدوح ابن خفاجة تغيرت الطبيعة حتى لا يعرف أحد ما الليل وما الظلام ، اذ لا غروب للشمس ، فهي دائما وأبدا مشرقة ، يقول :

22 ـ لو شاء نَسْخَ الَّليل صبحا لاَ نْتَحى

فمحـــا ســواد الليــل الليلاءُ

(ق . رقم 3)

فيذكر ابن خفاجة فى مكان آخر ما هي الوسيلة الى الاتيان بهذه المعجزة . فيقول :

15 ـ فيمحو مداد سواد الدّجى بما فاض من ماء بيض النَّعـمْ

(ق . رقم 5)

وقد يتعرض ابن خفاجة لهذا الغرض مرة أخـرى مشيرا ، عوض الشمس ، الى البدر المنير وهو يتبختر فى السماء ، وهي صورة نعثر عليها عند كثير من الشعراء . وحين يرى شاعرنا أن

ممدوحه بدرا ساطعا ، فما النجوم الملتفة حوله الا أفراد عائلته ، فيقــول :

15 ـ ما ان رأيتُ بني رُحَيْمٍ زهْـــرَةً

[حتى] رأيت بها الثُّرَيَّا فــي الــثَّـــرى

(ق . رقم 198)

وهذه النعم التي يغدقها الأمير ، شمسا كان أو بدرا ، على الدنيا بأسرها ، تحمل الشاعر الى ذكر سيدنا عيسى عليه السلام في تشبيه طريف فيقول :

34 ـ وما أَن تَمَرَّضت بأَرضك حــاجــةٌ

فقد جئت ألقى منك عيسى بن مريما

(ق . رقم 178)

2) الرثـــاء :

لقد رأينا أن ابن خفاجة في قصائده المدحية لم يأت بأمر جديد جدير بالذكر وهذا ما نلاحظه كذلك في مرثياته . فقــد اكتفى شاعرنا أن يكون مقلدا لمن سبقه مــن الشعراء فأتى بالمعانــي المتداولة بينهم ، واذا ألقينا نظرة خاطفة على اتناجه في الرثــاء تبين لنا أنه تعرض لثلاثة أغراض هامة : الألم وظواهره ثم مدح المتوفى وأخيرا ما نسميه « بفلسفة الحيــاة » حيث تمتــزج الأغراض الزهدية بالحكم دون ترتيب .

الأول من هذه الأغراض جاء مصورا بتفصيل ويستغـرق القسم الاوفر من هذا الانتاج : ففي كل مرثية يبدو لنا الشاعر فى هيئة حزينة ، مكبا على وجهه ، يتألم لفقدان أصدقائه الواحد بعد الآخر ، فيبوح بما يشعر به من وجع لاذع ، وبما يعانيه من بلاء لا يطاق ، وبفقدان صبره لبقائه وحيدا فى عالم لا رأفة فيه ولا رحمة . ثم يستولي على قلبه اليأس فيرى أن الحيـاة غدارة غرارة . أمن الممكن بعد هذا أن يغتر الانسان فيؤمن بالخيال ؟ يسوغ له أن يتكلم عن السعادة فى حياة لا محالـة فانيـــة ؟

ويجدر بنا أن نلاحظ أن مرثيات ابن خفاجة لم تكن كلهـا قصائد نظمت لارضاء ملك أو أمير أو جبرا لخاطرهما . لقد أنشد الشاعر الكثير منها ارتجالا عندما يفاجأ بوفاة صديق كان يلازمه ويضمر له مودة خالصة ، فيبكي عليه بكاء حارا ، معبرا بشعره عما يحس به حقا . والدليل على ذلك سذاجته فى تعبيره ، لقد عرض علينا بلا تكلف كل ما أحس به فى ضميره .

والملاحظة الثانية لا تقل أهمية ، وهي أن ما بلغنا من انتاج ابن خفاجة فى الرثاء قليل بالنسبة لما جاء به فى ميادين أخرى فانه لم يرث كل من لازمه وخالطه ، رغم أنه شهد مرارا وفاة أمراء ووزراء كان من المتوقع أن يودعهم راثيا . ولقد يقال بأن شاعرنا نظم هذه المرثيات ، الا أنها ضاعت فلم تبلغنا ، وهو قول من العسير أن نثبته لندرة معلوماتنا فى الوقت الحالي . وما هو أقرب الى الحقيقة فيما يبدو لنا هو أن ابن خفاجة لم ينتم الى

طبقة أولئك الشعراء «الذين يبيعون بالكيل دموعهم وحزنهم 141»
ولم يكن ينزع الى تصوير أغراض كلها أحزان ودموع ، فاقتصر
على الأحداث التي تركت فى نفسه حزازات مؤلمة .

لننظر الآن الى طريقة ابن خفاجة فى تصوير الألم . ان أول
ظاهرة له هي الدموع ، وهو يشير كثيرا الى العين ، وهي منبع
لا يغيض يجد صاحبها فى بكائها نوعا من الراحة ، وتخفيفا لوطأة
الألم مدة ما من الزمان .

يقول ابن خفاجة يرثي بعضا من الاخوان فى قصيدة :

8 ـ وكم قد لَحَتْنِي العاذلات جهالة
ويأبى الْمُعَنَّى أن يُطيع اللَّواحِيا

9 ـ فقلتُ لها إن البكاء لراحة
به يَشْتَفِي من ظنَّ ألاَّ تَلاقيا

(ق . رقم 150)

وابن خفاجة لا يتألم الا فى الوقت الذي تنزل عليه المصيبة
فجأة ، والذكريات من شأنها أن تثير فى نفسه حزنا شديدا
فيتذكر حنان تلك اللحظات السعيدة الهادئة حين كان ينعم
بالحياة رفقة الاصدقاء الأصفياء ، ويتمتع بالشباب وراحة البال ،
ولكن هذا لا يدوم ، فيفيق من أحلامه ، ويرجع الى حاضره
الواقع ، فيزداد هما وغما ولئلا ينكأ جراحا قديمة نراه يتجنب

الأماكن التي ضمته مع أحبابه فيعرض عنها حتى لا يتذكر ما مضى لانه متيقن أن زيارتها تثير دموعا حارة غزيرة ، ألم يقل :

7 ـ فاذا مررتُ بمعهد لشبيبة

أَو رسم دار للصـــديق خَلاء

8 ـ جالَتْ بطرفي للصَّبابة عبـــرة

كالغيم رقَّ فجــــال دون سماء

9 ـ ورفعتُ كفِّي بين طرف خــاشع

تنــدى مآقيه وبيـــن دعــاء

(ق . رقم 133)

ولكن الدموع مع غزارتها لا تزيل ألم الشاعر كله ، لأنه ألم شديد لا يطاق وها هو يلجأ الى الصراخ والأنين لعله يجد فيهما راحته ، ويصرخ فى قصيدة لعجزه عن اخفاء حزنه وأنينه فيقول :

2 ـ أُدَارِي فؤادا يَصدَع الصَّدر زفـــرة

وَرَجْعَ رَنين يجلب الدمع ساجيا

3 ـ وكيف أواري من أُوَارٍ وجَدْتُنِـــي

له صادرا عن مَنْهَل الماء صاديا

4 ـ وها أَنا تلقاني الليالي بملئهـــا

خطوبا وألقى بالعويل اللياليـا

5 ـ ويطويِ على وَخْزِ الأَشَافيِ جوانـــحيِ

توالىِ رزايا لا ترى الدمع شافيا

(ق . رقم 150)

وصورة النار المتقدة المحرقة ألهمت الشاعر انشاد بيت تضمن طباقا رائعا بين العيون النادية بالدمــوع ، والقلب المشتعــل بالنيران ، يقول :

ـ كأَن لهيبا بين جنبيَّ واقدا به وَرَكَايَا بين جفنيَّ تُمْتَـــع

(ق . رقم 205 فى الهامش)

ويقول أيضا :

3 ـ تحمى فتغرق مقلةٌ فى جا حـــم

منها وَتُحْرَقُ وجنـــة فيِ مــاء

(ق . رقم 215)

وابن خفاجة لم يسعد بالراحة فى دموعه المنهمرة ، ولا فى أناته المتوالية ، وكل ما بذله من جهود ليتصبر عما طرأ عليــه ذهب سدى ، وأمام عجزه لم يبق له الا أن يولي وجهه نحو الله يستعطفه ويسأله أن يفرج عنه فيقول :

9 ـ ورفعت كفِّي بين طرف خــاشع

تندى مآقيه وبيــن دعــــاء

10 ـ وبسطت فيِ الغبراء خدَّى ذُلَــــة

استنزل الرُّحْمَى مـــن الخضراء

11 ـ متململا ألما بمصرع سيـــــد

قد كان سابق حَلْبة النجبـــاء

(ق . رقم 133)

ومن الطبيعي ألا يستطيع الانسان الذي يعانــي الهمــوم والأحزان أن ينام . وهنا يتعرض ابن خفاجة الى فكرة الأرق ، ونجده فى مرات عديدة ، مما يدل على اهتمام الشاعر به ، فيأتينا به فى صور مختلفة ، يقول فى قصيدة :

12 ـ فوراء ستر الليل مضطرم الــحشى

لا يستقـر بـــه هنـاك مهــــاد

13 ـ لم يدر الا يوم موتلك ما الأَســى

فكـأن موتـك للأَسى ميـــــلاد

(ق . رقم 175)

وليؤكد على أرقه الطويل يعمد شاعرنا الى صورة رائعــة سبقه اليها امرؤ القيس فيقول :

51 ـ لاتلتقي عــين عليه ونومَــةٌ

ليلا ولا جنـب بـــه وَمِهَـــادُ

52 ـ والليل فُسْطَاطٌ هناك مُطَــنَّبٌ

ضُرِبَتْ لـــه من أنجم أو تــاد

(ق . رقم 175)

ويظهر لنا شاعرنا تارة خائر القوى ، لا جهد له لقلة نومه ، وتارة حنقا لعدم وجوده الراحة .

فتلك الليالي الممتدة التي تمر عليه وهو يعاني الأرق ، ليال لا محالة طويلة مروعة ويعمد ابن خفاجة ليعبر عن قلقه وسخطه الى صور قوية مثل صورة الرامي بالقوس الذي يصوب نحوه سهامه فيصاب بها . ومن المفيد أن نلاحظ أن مضمون هذا الرمز كان له معنى آخر فى ديانات اللاتينيين اليونانيين ، فكان يراد به التعبير تارة عن قساوة الحب وتارة عن آفات الطاعون ـ فالراميان أبولون وأخته أرتميس ـ . ولنذكر ما ورد فى هذا السياق عند شاعرنا :

18 ـ فحتَّى متى تَبْرِي الليالي سهامها
وحتَّى متى أُرْمى بها فأُصابُ

19 ـ وحتى متى ألقى الرزايا مُمِضَّةً
كما كَرَعَتْ بين الضلوع حِرَابُ

(ق . رقم 165)

وفى موضع آخر نلاحظ أن شاعرنا ينمق فى التعبير عن ألمه وربما يبدو هذا التنميق فى غير محله فيقول :

10 ـ أقول وقد وافى كتاب نعيّه
يجمجم في الفاظه فيصرّح

11 ـ أرام بأغمات (142) يسدد سهمه

فيرمي وقلب بالجزيرة (143) يجرح

(ق . رقم 205)

لم يقف ابن خفاجة عند هذا الحد ، بل استمر فى شكـواه يود أن يدرك الجميع أن ألمه شديد موجع جدا ، وانه يتحمل ما لا يطاق ، فعمد مدللا على ذلك الى ذكر حوادث خارقة للعادة حتى يقنع سامعه . ومن بين هذه الحوادث يشير ابن خفاجة الى الجماد الذي لم يتجاهل ما طرأ عليه ، فيرق لرؤية حالته ، ولا يستطيع لدموعه امساكا ، يقول فى قصيدة :

1 ـ في مثله من طارق الأَرزاءِ

جاد الجماد بعبرة حمـــراء

2 ـ من كلِّ قَانِئَة تسيل كأنها

شُهُبٌ تَصَوَّبُ من فروج سماء

(ق . رقم 215)

ويذكر فى محل آخر الحساد ، ويرى أن هؤلاء قد تأثروا تأثرا ما ، لما شاهدوه من همه ولما انطوى عليه من ألم فيقول :

43 ـ لوَتِ الضلوع به الأَصا دقُ لوعةً

ولربَّمَا رقَّتْ به الحسَّـــاد

(ق . رقم 175)

ولقد رأينا أن ألم الشاعر يتضاعف عندما يذكر أيام السعادة التي مرت ولن تعود أبدا . ويتذوق نفس الألـــم عندما يزور الاصدقاء الذين قضوا نحبهم ، ويود أن يراهم ويتحدث معهم ويتمتع ، كما فى الماضي ، بحضورهم ولطافتهم . ولكن سرعان ما يدرك أنه يتطلب المحال وأن بينه وبينهم حاجزا عاليا لا يمكن أن يتخطاه ، فيشعر بوحدته الموحشة ويقول :

41 ـ كفى حَزَناً أن لم يَرِدْني على النوى

رسولٌ ولم يَنْفُذْ الىِ كتـــاب

42 ـ وإنِّي اذا يمّمْتُ قبْرَك زائرا

وقفت ودوني للتراب حجاب

(ق . رقم 165)

ويقول أيضا متسائلا :

18 ـ فيم السلوُّ وقد تحمل صاحب

شطَّتْ به دار وطال بعـــــاد

(ق . رقم 175)

وها هو الآن يناديهم ولكن ليس هناك من يرد عليه :

12 ـ أ إخوانَنَا بالعُدْوَتَيْنِ صَمِمْتُمُ

بحكم الرّدى عن أن تجيبوا مُنَاديا

(ق . رقم 150)

كل ما ذكرناه من دموع وأنين وعويل وأرق ، ولا سيما الشعور بأن ما وقع لا يمكن تداركه ، أدى بابن خفاجة الى يأس شديد ، فليس له أن يتمتع أبدا بالراحة والهناء ، ويصرح بعد أن أقسم بالايمان المحرجة :

12 ـ لا والذي أَعلَقْتُ من تقديسه
كَفِّي بحبلَيْ عِصْمَةٍ ورجاء

13 ـ وخررتُ بين يديه أَعلمُ أَنَّه
ذُخْري ليومي شدةٍ ورخاء

14 ـ لا هزّني أمل وقد حلَّ الردى
بأَبي محمّدٍ المحل النائي

(ق . رقم 133)

ولا يبدو العالم من الآن فصاعدا فى عينيه الا بصورته القبيحة الشنيعة :

7 ـ واستقبل الدنيا بذكر محمد
فيقبح في عينيَّ ما كان يملُحُ

(ق . رقم 205)

وقد يتلبس الليل بالنهار على شاعرنا لما به من ألم أليم فيقول :

5 ـ وألقى بياض الصبح يسودُّ وَحْشَةً
فَأَحْسَبُنِي أُمْسِي على حين أصْبِحُ

(ق . رقم 205)

ويحاول الشاعر أن يفرج عن نفسه ، فيبحث عن وسيلة تنقذه من الجحيم الذي يتلظى فيه ، ولكن جهوده كلها ذهبت سدى ، فمصيره كمصير الغريق الذي لا يستطيع أن ينجو بنفسه ، فيستسلم ابن خفاجة الى القدر ، ويأتينا باستعارة طريفة رائعة حيث يقول :

14 ـ ترى بي إذَا عَوَلْتُ حُزنا حمامةً
تُرِنُّ وَطورا أيكة تترنَّح

15 ـ غريقا ببحر الدمع والهمّ والدجى
ولو كان بحرا واحدا كنتُ أَسبح

(ق . رقم 205)

ولما بلغ اليأس من ابن خفاجة أوجه خالجه الشك ـ فيما يبدو ـ فى الالتقاء بالاصدقاء فى المستقبل ، وان كلاما مثل هذا غير متوقع من مسلم ينبغي أن نحاول تفسيره ، وألا نقف عند معناه الحرفي ، فربما أراد الشاعر أن يشير الى الالتقاء فى هذه الدنيا دون أن يفكر فى الآخرة . ومهما كان الأمر فان من العسير علينا أن نفصل بين القولين ، فلم يبق الا أن نفترض ان ابن خفاجة لشدة غيظه وحنقه تمرد وسخط على الزمان الجائر ، فحمله كل ما بلى به فقال :

12 ـ عطفتُ على الأَحداث أَجْهَشُ ثارة
وألثمُ طورا تُرْبَهَا من تَشَوقِ

13 ـ وقلت لمُغْفٍ لا يهبّ مِنَ الكرى

وقد بِتُّ من وَجْدٍ بليل الْمؤَرَّقِ

14 ـ لقد صدعتْ أيدي الحوادث شملَنا

فهل من تلاقٍ بعد هذا التفرق

15 ـ وإن تلك للدخِلَّيْن ثَمَّ التقاءَةُ

فيا ليت شعري أين أَوْ كيف نلتقي

(ق . رقم 172)

الغرض الثاني الذي تعرض ابن خفاجة الى تصويره فى مرثياته هو مدح المفقود ، وهذا ما يرجع بنا الى ما درسناه آنفا من الأغراض المدحية ، فنعثر على تلك الخصال المحمودة ، مثل الشرف والشجاعة والكرم والجمال ، وسنكتفي هنا بذكر نموذج حيث يتغنى الشاعر بشجاعة وجلالة المرحوم فيقول :

23 ـ فقد كان يوم الرَّوْعِ أبيض صارما

بكفّي ويوم الْفخر تاجا بمفْرِقِي

24 ـ أغرَّ طليقَ الوجه يهتز للعلى

ويمضي مضاء الْمَشْرَقِيِّ الْمُذَلَّق

25 ـ ويستصحب الذِّكرَ الجميل فيرتدي

بأَحسن من وشْي الربيع وأَعبق

27 ـ قضى بين كف للسماح مُغِيمَةٍ

تفيض ووجهٍ للطلاقة مُبْـــرق

(ق . رقم 172)

ويقول فى قصيدة أخرى مشيرا الى بهاء وجمال صاحبه :

35 ـ بـأغرّ وضّاح الجبين كأنه تـحت الدّجنّة كوكـبٌ وقّاد

36 ـ مُتَبَسِّمٌ فِي هزَّةٍ فَكَأَنَّهُ غصن تَفَتَّقَ نَــوْرُهُ مَـــيّاد

(ق . رقم 175)

ثم ينتقل بنا ابن خفاجة الى الغرض الثالث ، فيأتينا بأبيات شعرية مضمونها الحكم والأمثال السائرة المعروفة المتداولة بين الناس ، ونذكر منها على سبيل المثال بعض النماذج :

17 ـ فقُصَارُ مجتمع الأَصاحب فُرْقَــةٌ

وحُمَـــار أَنـــوار الشَّبَـــاب رماد

22 ـ ملكتْه غَشيَة نَوْمَةٍ لا تَنْجَـــلِي

ولـــكل عـــين نـــــومة وسهاد

(ق . رقم 175)

ويقول أيضـــا :

19 ـ فنَمَّ بـأَسرار الصَّبابة مَدْمَـــعِي

وكلّ إِنَاءٍ بالذي فيـــــه يَرْشَحُ

(ق . رقم 205)

وقد نجد فى هذه المرحلة التي سميناها « فلسفته فى الحياة » أغراضا زهدية سنتعرض الى دراستها بعد حين .

وأخيرا نلاحظ أن ابن خفاجة وان لم يتحرر من اغلال الاطار القديم للمرثيات ، فانه وفق الى نظم أبيات شعرية عبر بها عن عواطفه بصدق واخلاص .

3) الاغراض الزهدية :

لم نجد فى ديوان ابن خفاجة شعرا كثيرا قاله فى الزهـد ، وذلك يرجع دون شك الى عدم ميله الى هذا النوع من الشعر . ويؤكد قولنا ما نعرفه عن طبعه وحبه الحياة وملاهيها ، فلا غرابة اذن اذا لاحظنا أن انتاجه الزهدي كله تقليدي ليس فيه تجديد يستلفت النظر ، وكان من العسير عليه فى الحقيقة أن يزيد على أبي العتاهية الذي لم يترك لغيره ما يقال فى هذا الميدان .

ويتجلى لنا خلال المقطوعات الشعرية التي نظمها بلاشك فى السنوات الأخيرة من حياته ، والأبيات الشعرية التي تـرد فى المرثيات ، أن ابن خفاجة لم يخالف من سبقه من الشعراء فسار سيرتهم ان أحدا منهم لم يفكر فى الاقلاع عن الشهوات والمـلاذ الدنيوية الا بعد شعوره بانقضاء زمان الشباب ، وعبء السنين ، ودنو الأجل . فلم يبق لابن خفاجة الا أن يتوب ويستعد للقاء ربه ، مفضلا دار النعيم والبقاء على دار الشقاء والفناء .

ومن بين الأفكار الهامة التي تعرض لها شاعرنا يجدر بنا أن نذكر فكرة الموت الذي تتردد فى كل قصيدة رثاء ، لأن الموت من الحوادث التي لاشك فى وقوعها والتي ليس للمرء حيلة فى التخلص منها . ولذلك تثير فى قلب الانسان الرعب ، وقد شبه الموت بضارب الرؤوس الذي لا يعرف شفقة ولا رحمة ، اذ اهتمامه الوحيد هو تنفيذ الأحكام ، وانه ليقوم بمهمته بجد وسرعة ، مناديا جميع العباد مهما كانت وضعيتهم فى المجتمع ، ليتسلم أرواحهم . وقد سماه شاعرنا « بداعي الردى » وأتانا ببيت من الشعر فيه صورة بديعة اذ يقول :

15 ـ دعا بهم داعي الرَّدى فَكَأَنَّهَا

تبارتْ بهم خَيْلٌ هناك عِراب

(ق . رقم 165)

ويشبه الشاعر الانسان بالطريدة الحقيرة التي لا مفر لها من مصيرها فيقول :

3 ـ وهل مهجة الإنسان إلا طريدة

تحوم عليها للحمام عُقاب

(ق . رقم 165)

واذا لم يكن من الموت بد فلماذا يتمرد الانسان ؟ ان ابن خفاجة يدعونا الى التجلد والصبر الجميل ، ويذكر ـ تسلية لنا الأشخاص الأقوياء الذين سبقونا فيقول :

37 ـ ولا عجبٌ أَنَّا ذَلَلْنَا لحادث

تَذِلُّ له الآساد وَهْي غِضاب

38 ـ وَأَنَّا خضعنا للمقادير عنوَةً

كما خضعت تحت السيوف رقاب

(ق . رقم 165)

والخلاصة الأخرى التي ينتهي اليها الشاعر هي حيرته فى من ينهك قواه فى جمع الأموال ، أموال ستنفد لا محالة أو تبقى من بعده لغيره ، فالعاقل اذن هو من يتعالى عن الأغراض الدنيوية الفانية . فيقول :

1 ـ أَلاَ قَصْرُ كلّ بقاء ذهاب وَعُمْرَان كلّ حياة خراب

(ق . رقم 161)

1 ـ لا العطايا ولا الرَّزايَا بَوَاقٍ كلّ شيى إلى بلى ودثور

(ق . رقم 118)

ومن العبث أن يعطي المرء أية قيمة لثروة لأنها لا تتبعه فى لحده ، وانه لمغادر بيته مجردا يوم يأتي أجله ، ليسكن حفرة وضيعة حقيرة فيقول :

16 ـ فهاهم وسَلْمُ الدَّهر حربُ كَأَنَّمَا

جثا بهم طَعْنٌ له وَضِراب

17 ـ هجود ولا غير التراب حشيَّةٌ

لجنبٍ ولا غير القبور قِباب

(ق . رقم 165)

وعلى المرء ألا يغتر وليأخذ حذره ، ان كل ما فى الحياة أوهام لأن مصيره الزوال . أيسوغ لنا أن نفرح ونتمتع بالسعادة مع علمنا أن الموت ينتظرنا ؟ يقول :

2 ـ فيا عجبا لي كيف آنَسُ بالمـنى

وغاية ما أدركت منها إلى ذرْت

(ق . رقم 242)

ويا آسفا على الانسان الذي تغلبت عليه شهواته ، فهو يعيش فى الدنيا كأنه خالد فيها . وينسى فى غفلته أنه مجبر فى أقواله وأفعاله وأنه لا يتمتع بأي حرية :

3 ـ وما الغَيُّ إلا أن يُعبِّدنا الـهوى

ولـم ندر جهلا أنَّنَا مَعشرٌ أسْرَى

(ق . رقم 123)

انه والعاقل على طرفي نقيض ، لأن هذا الأخير لم تفاجئه خيبة مريرة ، لعلمه أن الحياة فانية لا تدوم :

3 ـ وهل مِنْ سرور أوْ أمانٍ لعاقـل

5 مُـفْضَى غُبور الغابرين إلى الموت

(ق . رقم 242)

ويعمد ابن خفاجة ، لينتهي من بيانه ويقنع سامعه ، الى ذكر الأمثال السائرة كي يتعظ بها المرء ، وقد اقتبسها من التاريخ ،

فيذكر من بينها وفاة صديقه ابن ربيعة وقبره وليس له فـراش الا الأرض الصلبة وهذا لا محالة مصير البشر كله :

2 ـ وتركتهُ والمجد يُرْغِمُ أَنْفَـه
متَـوسِّدًا حـيث التراب وساد

26 ـ فِيِ موطن نَزَلتْه جُرْهُمُ قبلـه
وتحـولّت إرْمٌ إليه وعـاد

(ق . رقم 175)

ويذكر ابن خفاجة فى رؤية ملحمية جماهير عظيمة قضت نحبها وعفا رسمها . فيا عبث ما بذلته من جهود فى حياتها ، فيقول :

27 ـ أممٌ يَغَصُّ بِهَا الفضاء طوتْهُـمُ
كَفُّ الرَّدى طيَّ الرِّداء فبادوا

28 ـ سادوا وقادوا ثم أَجلى جَمْعُهُـمْ
عـن وَحْدَةٍ فكَأَنَّهـم ما قـادوا

29 ـ ولربما ذَبوا وَذَادُوا عن حِـمَى
مَلِكٍ هـوى فكَأَنَّهـم ما ذَادوا

30 ـ عفتِ الْبُنَاةُ على الليالي وَالْبُـنَى
وتـلاحق الأَمجاد والأَوغـاد

31 ـ فَأَصِخْ طويلا هل تعيِ مـن مـنطق
ونظُرْ مَلِيا هـل تـرى ما شادوا

32 ـ زُمَرٌ تُعَدُّ بها الحصى مِن كثرة

ولربّما فَنِيَتْ بها الأعداد

33 ـ أَلْوَى بهم ولكل رَكْبٍ سائق

زمنٌ حدا بركابهم يقتاد

(ق . رقم 175)

ويستمر ابن خفاجة فى تصوير هذه الأغراض المعروفة فى الشعر الزهدي فيقارن بين العاجلة والآجلة ويحث سامعه على اختيار هذه دون الأولى بلا تردد . الا أن الشاعر لا يطيل الكلام عن النعيم وما سيتمتع به أصحاب اليمين ، كما لا يطيل الكلام عن الجحيم وما سيذوقه من عذاب أصحاب الشمال المذنبون ، فلا يذكر فى ديوانه الجنة والنار ، بيد أنه يتكلم على يوم القيامة ، يوم الحساب بين يدي الخالق سبحانه وتعالى ، فثم يكون الجزاء وثم يكون العقاب ، فيشير حينئذ الى النعيم من جهة والى الجحيم من جهة أخرى . فعلى الانسان أن يستعد للقاء ربه من الآن قبل أن يفاجئه أجله فيصبح من النادمين فى يوم لا تنفعه الندامة فيقول :

3 ـ فهل أنت في دار الفناء ممَهِّدٌ

محلَّكَ في دار البقاء ومنزلَكْ

(ق . رقم 163)

ويقول أيضا ناهيا منذرا :

3 ـ فلا تُجْرِ كفَّك في مُهْرَقٍ بما لا يَسُرُّ هناك الكتابْ

4 ـ فإنَّك يوما مُجَـازًى به   وإن يدا كتبتْه تـــــراب

5 ـ ولا خُطَّةٌ غير إحدى اثنتين   إمَّا نعيـــم وإمَّـا عـــذاب

(ق . رقم 161)

ومن أراد نيل السعادة فليصغ الى الشاعر وليعمل بكلامه حين يقول : ان العاقل هو من يصد عما تأمره به نفســه مـن الشهوات ، ويعرض عن الأموال والمتع الدنيوية ، حتى لا ينسى أنه من المارين فى هذه الدار ، وكل يجري الى أجل مسمى . ومن تيقن بذلك اكتفى بالقليل ، ليعمل فى سبيل الخير ، فيكون فى الآخرة من أصحاب اليمين خالدا فى دار النعيم .

1 ـ أَلا قانِعٌ من ملك كِسْرَى بِكِسْرَةٍ

فما الوُجْدُ الا الخُلْدُ لا ما حَبَا كِسْرَى

2 ـ فما بالنا والمال عرضةُ حا دث

تركنا مطايا الريح في إثره حَسْـرى

(ق . رقم 123)

ويذكر ابن خفاجة فضلا عن هذا أنه ينبغي للانسان العاقل أن يكون تقيا قائما بواجبه مؤديا فرائضه نحو خالقه . فيقول :

1 ـ طُوبَى لعبد قَام خشية ربِّه

والليل قد ضرب الظلامَ رواقا

2 ـ خَضِلِ المدَامِع خوفَ عَرْضَةِ مالك

خضع الملوك له بها أعناقـــا

(ق . رقم 162)

وأما الذين تخلفوا عن الطريق المستقيم ، فان الله واسع الرحمة ، رؤوف حليم ، سيغفر لهم ذنوبهم ويعفو عنهم ، حتى لا يكونوا من الأشقياء التعساء ويوجه ابن خفاجة دعوته الى الله قائلا :

4 ـ فحَنَانَك اللَّهُمَّ في عبدٍ غوى
زمنا فشد الى الفُسُوقِ نِطَاقَا

5 ـ قَلِق المَضاجعِ باتَ يَقْرَعُ سِنَّه
ندمًا ويُرسل دمعه إشفاقا

(ق . رقم 162)

الفصل الثاني :

1) الأغراض الخمرية :

ان للخمر أهمية كبرى فى حياة الشعراء المجان ، فلم يتخلف أحدهم أبدا عن التغني بها فى قصائده ، فلا يتأتـى الاجتمـاع بالندماء ، ولا تنعقد مجالس الأنس ، الا اذا أحضرت الخمر الصافية ، التي تنجلي بفضلها الهموم والأحزان وقتا من الزمان . وانه لمن العسير أن تتكلم عن الخمر دون الغزل ، فينبغي لوضوح عرضنا أن نخص الغزل بالذكر فى فصل مستقل بنفسه .

أول ما يخطر بفكر الانسان هو أن الشاعر أبا نواس لم يترك ــ أوكاد ــ لمن جاء بعده ما يقال فى الخمر ، فكان من العسير اذن على ابن خفاجة أن يجدد هذا الغرض ، ويأتي بمعان طريفة فاكتفى أن يكون مقلدا فى عرضه بعض الصور الخمرية . وليس مـن الغريب اذن أن نرى ابن خفاجة وهو أندلسي الأصل يمدح الخمر البابلية حيث يقول :

15 ــ كأنيِ لم أذهب مع اللهو ليلـة

ولـمِ أتعاط البابِلِي المُشَعْشَعَـا

(ق . رقم 9)

ولم نعثر فى ديوان الشاعر الا على الخمر من عصير العنب ، وقد يصف هذا الثمر كما سنراه من بعد .

ويعتقد ابن خفاجة ان الخمر لا تكون طيبة لذيذة الا اذا احتفظ

بها زمانا طويلا ، وقد تزداد لذة بقدر مرور السنين عليها ، وهنا نجد فكرة التعتيق المعروفة ويشير اليها شاعرنا بسرعة قائلا :

4 ـ جلاها وقد غَنّى الحمام عـشيّة

عجوزا عليها للحباب مَشِيبُ

(ق . رقم 43)

فقدم الخمر وعتقها لا يمنعها من أن تكون نضرة اللون لامعة ، وهي أوصاف يمتاز بها الشبان ، ويؤكد الشاعر على انتسابها الى هذين النوعين ، فهي عجوز وتذكر فى نفس الوقت بالفتاة الغضة التي لم تمس . فتشخيص الخمر ، وتشبيهها بالعذراء ، ينقلنا الى عالم الغزل والمتعة ، ويشير ابن خفاجة الى فكرة العذراء المتزوجة التي تعرض لها أبو نواس بالتفصيل 145 . فيقول :

4 ـ زف الزّجاجُ بها عروس مـدامة

تجْلَى ونُوَّارُ الغصون نِثـار

5 ـ في روضة جنح الدّجى ظِلاً بها

وتجسّمَتْ نَوْرًا بِهَا الأَنـوار

(ق . رقم 221 ص 351)

والخمر الصافية النقية تؤدي بابن خفاجة الى التصريح بأنـه لا يستسيغ الخمر المشعشعة ، لأن الماء يقضي على عذريتهـا ، فيقول :

3 ـ سقانا وقد لاح الهلال عشـيَّة

كما عوجَّ في دِرْعِ الكمى سِنَا ن

4 ـ عُقَارًا نماها الكَرْمُ فهْيِ كريمة

ولم تزن بابن المُزْنِ فهي حَصَانُ

(ق . رقم 177)

ثم يتعرض شاعرنا الى الاوصاف التي تتمتع بها العين فيشير الى لون الخمر وصفائها ولمعانها اشارة خفيفة بدون تفصيل .

وقد تتجلى لنا الخمر فى غالب الاحيان بلونها الاحمر وهذا ما يسمح للشاعر بتشبيهات واستعارات عديدة متنوعة ، فيصرح لنا فى البيت التالي بفلسفته فى الحياة قائلا :

1 ـ إنما العيش مدامٌ أحمرٌ قام يسقيه غلام أَحْوَرُ

(ق . رقم 86)

وهذا اللون يذكر ابن خفاجة بالوردة المتفتحة فيقول مشبها :

16 ـ وقبِلتُ الكأس من يده فاجْتَنَيْتُ الوَرْدَ من عَنَم

(ق . رقم 60)

وتارة بالشفق فيقول :

3 ـ وربَّ ليلة وَصْلٍ قد لهوتُ أبها

مغازلا فلقاً أو شاربا شفقا

(ق . رقم 122)

وتارة بوجنة العذراء فيقول :

4 ـ وشَرِبْتُهَا عذراءَ تحسب أنها معصورةٌ من وَجْنَتَي عذراء

(ق . رقم 191)

ويقول أيضـــا :

3 ـ غازلتهُ حيث المدامة والحبـــا

به وجنة تَدْمَى وعينٌ تنظـــر

(ق . رقم 166)

فهل تذكره الخمر بجمرة متوقدة ؟ يعمد شاعرنـــا لشغفـه بالتعابير الغريبة الى وصف ساق أسود البشرة ويأتينـــا بهـذا الطباق فى قوله :

1 ـ ربّ ابن ليل سقانـــا والشمس تطلـــع غُـــرّهْ

2 ـ فظلَّ يسّودّ لـونـــا والكـأس تسطـع حمْـره

3 ـ كـأنـه كـدْس فحـم قد أُوقِـدَتْ منـه جَمْـــرَهْ

4 ـ وللمـدام مديـــــر يشبُّ جمـرة خَمْـــرَهْ

(ق . رقم 27)

وما انتقالنا من اللون الأحمر الى اللون الذهبي الا لنلاحظ أن ابن خفاجة يكتفي بتكرار صور بيانية كلها تقليدية . فيرى هو أيضا أن الكأس تشبه الماء الصافي المتجمد وما فى الكأس يشبه الذهب السائل فيقول :

10 ـ لو ذاب هذا لجرى فضّـــة

أو جمدت تلك لكانت ذهب

(ق . رقم 190)

وقد يشبه الشاعر هذه المدامة بشمس حان وقت غروبها فيقول :

1 ـ خذْها كما أَطلعتْ إليك عرارةٌ
مُفْتَرَّةٌ عن لؤلؤ الأَنْدَاء

2 ـ صفراءَ في بيضاءَ تحسب أنها
شمس العشية في قَرَارِ الماء

(ق . رقم 192)

وقد يرجع ابن خفاجة مرة ثانية الى ساقيه الأسود الذي يحرك خياله فيوفق شاعرنا الى صور وتشابيه شيقة طريفة فيقول :

5 ـ فجاءنا يلبس من جلده ثوبَ حِدَادٍ كُمُّهُ مُذْهَبُ

6 ـ كأَنه والكأس في كفِّه قِطْعٌ من الليل به كوكب

(ق . رقم 323)

فاذا كان هذا الساقي محدودب الظهر جاء بالتشبيه الآتي :

3 ـ فخِلْتُه من سَبَح رَبْوةً قد انبتَتْ من ذَهَبٍ نرْجسَهْ

(ق . رقم 155)

ويتعرض ابن خفاجة بعد ذلك الى فكرة طعم الخمر ورائحتها. فيكتفي هنا أيضا باشارات قليلة خفيفة لا تستوقفنا لعدم طرافتها . ويعترف شاعرنا أيضا بأن الخمر تلذع اللسان ولكن سرعان ما يستحسن الشارب هذا الطعم ، وتذكره عذوبتها بفم محبوبته فيقول :

7 ـ ناريَّةِ اللَّذْعة نُورِيَّـــةٍ   في صفـرة فاقعــة أو صهْبْ
(ق . رقم 190)

الى أن يقول في محل آخر :

1 ـ حيِ بها ونسيمهًا كنسيمه   فشربتــها من كفِّــه في ودُّه
2 ـ منساغةً فكأنــها من ريقه   محمرّةً فكــأنها من خـــدّه
(ق . رقم 296)

أما رائحتها التي هي بطبيعة الحال رائحة طيبة فتذكر الشاعر برائحة المسك المنتشرة في الجو .

ونصل الآن الى فكرة المزج الذي هو أكثر أهمية ، فاختلاط الماء بالخمر يؤدي لا محالة الى ذكر صورة تقليدية الا وهـي صرة وصل الحبيب بمحبوبته ، فيصور لنا ابن خفاجة باديء الأمر مشهدا هادئا حيث نرى الماء والخمر كزوجين سعيديـن مبتسمين قد جمعهما الحب . فيقول :

5 ـ وقد قَبَّلَ الماءُ كأس المدام   فأضحك ثغراً لـــهـا أشـنَبَ
(ق . رقم 234)

ويقــول أيضــا :

4 ـ ومـ أزْبَدَتِ الكـأس في كفـ
ولكنَّـــهَ ضحكتْ عن ســرورْ
(ق . رقم 10)

وازاء هذا المشهد حيث يتمتع المتحابان برغد العيش ، يصور لنا ابن خفاجة مشهدا مخالفا ، يعبر فيه عن الفتنة والاضطراب ،

وذلك فى الوقت الذي يمتزج فيه الماء بالمدامة فترفض هـذه الوصل بعنف فتصير جمرة محرقة .

6 ـ وشبَّ المزَاج بها جمرة

تكاد بها الكأس أن تلْهَبَا

(ق . رقم 234)

ويلاحظ الشاعر أن الكأس يعلوها حباب أبيض بعد المزج فيعبر عن هذا بتشبيه نجد فيه تلك المقابلة بين العذراء والعجوز، فيقـول :

7 ـ عروسا ترى خدها أحمرا يشوق ومَفْرَقَهَا أشْيَبَا

9 ـ يلوح عليها مشيب الحباب

وتمنعها السِّنّ أن تَخْضَبَا

(ق . رقم 234)

ثم يتعرض ابن خفاجة الى وصف تأثيرات هذا الشراب ـ الذي مدحه وتغنى به ـ وصفا دقيقا . فيرى أن الخمر قبل كل شيء مصدر الحرارة تدفيء القلوب ، وتبعث الحمرة فى الخدود ، ويؤكد على التباين الموجود بين الكأس الشفافة التي تذكر بالثلج أو الماء المتجمد ، والحرارة التي يبعثها ملؤها فى وجه الانسان ، فيقول :

5 ـ مشمولة بَيْنَا تُرَى في كفّه

ماءً تُرى في خدّه ألْهُوبَا

(ق . رقم 217)

وقد يتكرر هذا الطباق أكثر من مرة فى مواضع مختلفة ، ثم يذكر دبيب الخمر فى قوائم شاربها ، فيصيبه التراخي شيئا فشيئا حتى تصبح أقدامه غير ثابتة وقامته غير معتدلة .

37 ـ الى أن سَرَتْ في جسمه الراح والكرى
ومالا بِعَطْفَيْهِ فمال على عَضُدي
(ق . رقم 278)

ورؤية جسم منحن تسمح لابن خفاجة أن يأتي بهذا التشبيه فيقول :

5 ـ وكأنه والسُّكرُ يَلْوي عطفه
غصن تعانقه الرِّياح مُنَوِّرُ
(ق . رقم 166)

وأخيرا يبلغ أثر الراح ذهن الانسان فيفقد هذا رشده ويصبح سكرانا لا يفرق بين السماء والأرض ويوفق ابن خفاجة الى هذه الصورة :

4 ـ وأكبّ يشربها وتشرب ذِهْنَه
فرأيتُ منه شاربا مشروبا
(ق . رقم 217)

« باكوس لياوس » ، وباكوس محلل المشاكل . فتحت هذا اللقب كان القدماء يجلون الخمر لما لها من فضل فى القضاء على الهموم والأحزان ، فيتعرض الشاعر بدوره الى هذا الغرض

ويعترف بفضل هذه المدامة ، اذ هي مصدر السرور والهناء وراحة البال فيناديها أم الطرب . أليست هي التي تبعث شاربها على الانبساط والمزح فى نشوته ؟

5 ـ وجاء بها حمراء أمّا زُجَاجها
فماء وأما مِلْؤُه فلهيب

7 ـ تجافتْ بها عنّا الحوادث برهة
وقد ساعدتْنَا قهوةٌ وحبيب

(ق . رقم 43)

ويقول أيضا :

1 ـ خُذْهَا وقد سَفَرَتْ اليك يد الصَّبا
عن وجه أفْق با لغمام مُلَثَّم

2 ـ وأقدحْ بهازَنْدَ السّرور وقد طمى
بحر الدّجى وطفا حَبَابُ الأَنجم

(ق . رقم 232)

وحبه المدامة ومالها فى النفس من أثر ممتع عجيب يؤدي بشاعرنا بطبيعة الحال الى تصفيتها ـ كما فعله أبو نواس قبله ـ من كل مادة تدنسها فيمثلها بنفس الحياة وبالروح الطاهرة الخالصة . فيقول :

11 ـ والزِّق مُنْجَدِلٌ يكبّ لِوَجْهِهِ
ويَمُج رُوحَ الرَّاح منه فتيل

(ق . رقم 196)

ثم يعود ابن خفاجة الى الواقع فيذكر الآنية المستعملة عادة لمعالجة الخمر وتعتيقها مختصرا فى وصفها فيكتفي بذكر الـدن (ق . رقم 201 بيت 6) وهو راقود عظيم لا يقعد الا أن يحفر له ، ثم الزق (ق.رقم 196 ، بيت 11) وهو دلو صغير لم ينتف شعره، أما الكأس الشفافة المملوءة خمرا ، فان ابن خفاجة يصفها وصفا دقيقا ممتعا . ولقد مر بنا تشبيهه الكأس بالماء المتجمد أو بالفضة السائلة ، فان كانت هذه الكأس مملوءة ذكرت رؤيتها شاعرنا بفرس أشقر فيقول :

12 ـ والكأسُ طِرْفٌ أشْقَرٌ قد جَال في

عَرَق علاه من الحَباب يسيـــل

(ق . رقم 196)

وقد يتغنى ابن خفاجة فى قطعة شعرية بكأس مريشة أهداها اليه بعض النبلاء فيوفق الى أسلوب رائع اذ يقول :

1 ـ ومثلك مدَّ يبـين النَّدى بعلقٍ يُطِيـلُ عِنَـان النَّظَـرْ

2 ـ بأزرقَ سالتْ به صُفـرةٌ كمَا طرَّز البرق ثوب السَّحَرْ

3 ـ أتتني به النَّار في صورة أرى للجنان عليها صُـــوَرْ

(ق . رقم 213)

ويأخذ الآن ابن خفاجة بيدنا فيدخلنا الحانة حيث تستقبله بحفاوة امرأة فى الكهولة غير مسلمة فيما يبدو ، فتسقيه خمـرا طيبة ، ومن العسير علينا ونحن نقرؤها أن نغفل عما تحرك بـه

قلم أبي نواس فى وصفه جولاته الليلية ، وابن خفاجة هنا يقلده ، مقتديا بطريقته ، فيصف لنا صاحبة الحانة قائلا :

4 ــ فمهما تيمّمْتُ خمّــارة ركبتـ الى أشقرٍ أشهبـــا
5 ــ وحيّيْتُ حانتها طـارقـا فقالتـ تجيب ألا مـرحبـا
6 ــ وقامتـ بأجْيد من كأسها لأَوْقَصَ من دَنِّـها أحدبـــا
7 ــ فجاءتْ بحمراء وقَّـادةٍ تَلَهَّبُ فيِ كأسـها كوكبـا

(ق . رقم 201)

ويدعونا ابن خفاجة كغيره من شعراء الخمر الــى مجالــس أنسه المنعقدة فى غالب الأوقات فى أحضان الطبيعة وقد أســدل

ويدعونا ابن خفاجة كغيره من الشعراء الخمر بين الى مجالس أنسه المنعقدة فى غالب الأوقات فى احصان الطبيعة وقد أسدل الليل ذيولــه .

ولو جمعنا ما نجده مبعثرا فى الديوان من اشارات الى هذه الأماكن حيث كان يقضي ابن خفاجة لياليه متناولا خمرا معتقة فى رفقة ندماء مازحين باسطين لرأيناه تارة على حافة نهر (ق.رقم 203 ــ بيت 7 الى 10) وتارة على ربوة (ق.رقم 230 ، بيت 2) وتارة تحت باقة أشجار مزهرة تعلوها طيور مغردة . ويبدو أن شاعرنا كان يفضل أن يرتاح تحت شجرة لأنــه كثيرا ما يشير الى ذلك . فيقول مثلا :

2 ـ ألقيْتُ أرحُلَنَا هنالك بقبّــةٍ

مضروبــة من سَـرْحَةٍ غينــاء

3 ـ وقسمت طَرْف العين بين رباوة

مُخْضَــرّة وقــرارة زرقـــاء

4 ـ وشربتها عذراء تحسب أنها معصورة من وجنتَيْ عــذراء

(ق . رقم 191) (وانظر ق . رقم 229)

وان ابن خفاجة يجعل من الشجرة شخصا ينضم الى هؤلاء المجان ، وينظر اليهم بعطف وحنان ويوفق شاعرنا الى تشبيــه رائع طريف حين يقول :

2 ـ وَمِلْ إلى أيكةٍ بَلِيـــلٍ تهفو اهتزازا بهــا قُـــدامى

3 ـ تهزّ أعطافها الـقـوافي لهـا وأكــواسهـــا النَّــدامى

4 ـ كَـأَنَّ أمــًّا بــها رَؤُومًــا تــحضُن من شَرْبهـــا يتامى

(ق . رقم 21)

يتجلى لنا بعد قراءة خمريات ابن خفاجة أن مضمونها مـــن أشخاص وأغراض لا يخالف ما اعتدنــاه فى أي شعر من هذا النوع . فنجد الندماء والغلمان المغنين والساقــين والرواقيــد المملوءة خمرا والكؤوس فى دورانها المستمر بين الحاضرين .

واذا كان أبو نواس يصف لنا أحيانا ندماءه مخبرا عن أصلهم وعن وضعيتهم الاجتماعيــة وعن أدبهم فابن خفاجة يكتفــي باشارات وجيزة اليهم تتخلل قصائده هنا وهناك . ولا نجد فى

الديوان شعرا يتضمن وصفا تاما كافيا لهذه المجـالس ، واذا جمعنا هذه الاشارات كلها تبين لنا أن هؤلاء الندماء ينتسبون الى أصل شريف ويعدون من الخاصة ويمتازون بالظرافة والأناقة، ويسلكون فى الحياة سلوك السادة والأعيان . وأما الساقي فدوره أن يسقي الشاربين وأن يلهيهم فتارة يغني وتارة يرضي رغائب هذا أو ذاك من الندماء ، وقد يذكره ابن خفاجة مرارا مشببـا به كما سنراه عن قريب فى الشعر الغزلي .

2) الأغراض الغزليـة :

مال ابن خفاجة كما رأيناه آنفا بكل ارتياح الى اللهو والمجون بلا حساب ، لارضاء طبيعته « الابيقورية » ولم يحرم على نفسه أن تذوق كل ما أهدتها الحياة من لذة ، فتمتع بحاضره غير نادم على ما مضى ، وغير مبال بما سيأتي به الغد ، فقد اقتدى اقتداء تاما « بأكارب ديام » لهوارس . وشعره رغم ما فيه من مجون شعر خال من الرذالة والسفاهة لأن ابن خفاجة لا يرضى لنفسه بما لا تسمح به كرامة الانسان فيتجلى لنا رقيق الحواس لطيف الذوق مغرما بالجمال الى حد بعيد . فلا يمكن أن يتهم بالفسق والفجور ، بل بالعكس هو ذلك الفنان الحساس فى طلب مـا يمتعه ويطربه وهذا هو السبب الذي دفعه الى تعديد وتنويع اتصالاتـه .

غازل ابن خفاجة النساء كغيره من الشعراء ــ ونحن الآن أمام أمر واقع لا يستغربه أحد ــ كما غازل الغلمان وأغرم ببعضهم اغراما شديدا ، وميله الى الجنسين من أنثى وذكر أدى به كمن

سبقه من الشعراء الى الخلط بينهما ، فاستعمل فى مخاطبته الحبيبة صيغة المذكر عوض المؤنث . وقد لاحظ المستشرق بيراس هذه العادة الغير العادية وعلق عليها : « من المعروف أن الشعراء استعملوا المذكر بقدر مااستعملوا المؤنث ليخاطبوا معشوقاتهم وهذا ليس من شأنه أن يسهل التمييز بين الأبيات الموجهة الى الغلمان والأبيات الموجهة الى المرأة . (الشعر : ص 416) .

ويمكن أن نقول بدون مبالغة أن الحب كان لابن خفاجة بمنزلة ديانة ثانية كما يدل عليه ديوانه حيث استغرقت الأغراض الغزلية قسطا وافرا من شعره .

وينبغي لوضوح تحليلنا أن نميز أول الأمر الأغراض الوصفية التي يشار فيها الى ذات الحبيب أو الحبيبة ، فيتاح لنا أن نطلع على القوانين القديمة فى الحب ، مع ما طرأ عليها من تغيرات حسب اختلاف الأوساط والعصور ، ثم نستأنف بحثنا حول قصة الحب ، ان أمكن هذا التعبير ، من لقاء وموعد وفراق وعواطف سامية تنتمي الى الحب العذري .

فغرض الشعر لم يتكرر فى الديوان ، ويشير ابن خفاجة فى البيت الآتي الى شعر غزير شديد السواد فيقول :

1 – يا رَبَّ ليل بتُّه

وكأنه من وحفِ شَعْرِك

(ق . رقم 72)

ويقابل فى بيت آخر بين نصاعة جبين المحبوبة وشدة سواد هذا الشعر فيأتينا بصورة لا تخلو من تكلف ليعبر عن هذين الغرضين فيقول :

2 ـ جمعتْ ذؤابتهُ ونور جبينه بين الدجنَّة والصباح المشرق

(ق . رقم 108)

ومن المعلوم أن شعر الحبيبة طيب الرائحة يفوح مسكا (عدد 274 ، بيت 4) وهذا ليس بجديد لدينا . ثم يذكر شاعرنا الصدغ وهو الشعر المتدلي بين العين والأذن فان كان متقنا ومرتبا ترتيبا فنيا ذكر الشاعر بالكتابة المخططة بيد ماهرة على تلك الصفحة الحية الغضة التي يمثلها الخد . وهذا التشبيه معروف لدى الشعراء ، ولكن ابن خفاجة جدد ما سبقه اليه غيره ، ووفق الى صورة رائعة طريفة فى البيت الآتي :

6 ـ تخال ما احمرَّ من خَدَّيْه ملُتهِبا

بها وما اسودّ من صُدْغَيْه مُحترِقا

(ق . رقم 122)

والجبين ، مثل الشعر ، لم يتردد كثيرا فى الديوان ، وما لفت نظر شاعرنا هو بياضه ونعومته ، فأتانا بصور يعبر بها عن هذين الصفتين قائلا :

4 ـ وبدا هلال في نقابك طالع

ولربما انحدر النِّقاب فأقمرا

(ق . رقم 237)

ويقول أيضـــا :

6 ولربّ ليل قـد صَدَعتُ ظلامه بجبين بَدْرِك

(ق . رقم 72)

ولم تستوقف الحواجب ابن خفاجة أو تكاد ، واكتفى بتكرار صور ملتقطة من الشعر القديم . وتشبيه الحاجب بالقوس (ق . رقم 75 ، بيت 2 فى الهامش) صورة تتردد كثيرا وستنتشر انتشارا واسعا فى عهد شعراء النهضة الايطالية والفرنسية ولم يكن للرمش حظ أوسع من حظ الحواجب فيشبهها الشعراء دائما بالصوارم أو بالرماح الحادة المصوبة نحو قلوب العاشقين ، فيقول ابن خفاجة بدوره :

14 ـ شاكي السلاح بقَدِّه وبطرفه

رمحٌ أصمّ وصارم مسلول

(ق . رقم 196)

الى أن يقول :

11 ـ قد أَسكرتْ خمرُ الصِّبى عِطفَه

فماد في بُرْدَيْه مخمورا

12 ـ مُعَرْبِدًا يجر حني طرفه وكَان ذنبُ السُّكْر مغفورا

(ق . رقم 88)

وقد وفق ابن خفاجة بعد رؤيته رموشا غاطسة فى عيون دامعة الى صورة غير معتادة . فيقول :

2 ـ عَثَرتْ بخدّي عبرتي في عَتْبِــهِ
فتعثَّــرتْ أقـــلامُــه بدَوَاتِــهْ
(ق . رقم 328)

أما العين فمن الأغراض التي اهتم بها شاعرنا اهتماما كبيرا وقد تكرر ذكرها مرارا فى الديوان ، وهل لنا أن نعجب من ذلك ؟ كلا . فمن المعلوم عند جميع الناس أن العــين مرآة النفس ، المترجمة الأمينة عن العواطف المكنونة فى فؤاد الانسان . أو لم يعترف بدورها الأساسي الذي لا يقوم به غيرها فى التفاهم بين العاشقين ؟ ولكن ينبغي ألا نطيل الكلام حول أمور معروفــة شائعة فى عالم الحب ، ولنلتفت الى ابن خفاجة حتى نعرف طريقته فى تعرضه لهذا الغرض .

شاعرنا يفضل بطبيعة الحال العين السوداء ، وهذه الصفة مستحسنة عند العرب منذ قرون عديدة ، ولا يصف ابن خفاجة العين وانما يكتفي بذكرها مفهومة من صفاتها المعروفة وما اتصل بها كالطرف والجفن والمقلة والنظر فهو يقول مثلا :

8 ـ علقتُه أَحْوَى اللَّمى أحورا عــاطر أنفاس الصِّبى عــاطلا
(ق . رقم 189)

وكثيرا ما تذكر لطافة النظرة بعين الغزالة ـــ فيأتي هذا التشبيه ضمن صور أخرى فى البيت الآتي :

20 ـ غزاليَّةُ الأَلـحاظ رِمِيَّةُ الطـــلى

مداميَّة الأُلـمـى حبابيَّة الثَّغـر

(ق . رقم 1)

وتارة يأتي الشاعر بهذا التشبيه ليلفت النظر الى التضاد الناشيء من بياض العين وسواد انسانها فيقول :

8 ـ وغـازَلَنا جفنٌ هنـاك لنَرْجِسٍ

وَمُبْتَسَمٌ للأَقحوان شَـنيـبُ

(ق . رقم 43)

وعذوبة النظرة ولطافتها لا تتركان الانسان أبدا فى غفلته ، فسرعان ما ينتبه الى هذه العين الساحرة ، فيفتتن بها ويقع تحت سيطرتها الجبارة . ويعبر ابن خفاجة عن هذه الحالة ببيت من الشعر تضمن طباقا بديعا فيقول :

8 ـ لـه نظرٌ فـاتِنٌ فـاتِـرٌ يحلُّ قُوَى عَزْمَتِى ضَعْفُـه

(ق . رقم 54)

وابن خفاجة فى استعماله الطباق ينتهي الى اثبات علاقة السبب بأثره بين ضعف عين حبيبته وحالة الضعف التي وصل هو اليها فيقول :

صَمِمْتُ سمعا فما أُصْغِى إلى العذل

وَهِمْتُ قلبا فما أصحو عن الغزل

2 ـ وإنَّ سُقمي لمن طَرْفٍ به سقم

خِلْوٍ من الْكُحْلِ مملؤ من الكَحَل (147)

(ق . رقم 97)

ويتشكى الشاعر من سوء حظه ، وظلم الدهر اياه ، حين يرى معشوقته تتمتع بالنوم بينما هو ساهر لا يذوق آية راحة ، فيقول متسائلا :

2 ـ قاسمني طرفك الضَّنى أفلا

قاسم جفنَيَّ ذلك الوسنا

(ق . رقم 71)

ويتعجب شاعرنا لما رأى أن العين والقلب معنيان بالحب فى آن واحد ، وأن كلا منهما يعاني ما يعانيه فى سبيل الهوى من ألم وعذاب . فيتأتي لابن خفاجة أن يصور لنا هذه الفكرة فى هذا الطباق يقول :

4 ـ عجبتُ والعينُ ماء والحشى لهَبٌ

كيف القتتْ بهما فى حبّه الطُّرق

(ق . رقم 68)

ولكن ماء العين ليس بماء عادي ، فيرى الشاعر أنه يذكر الخمر العتيقة بما له من أثر فى نفس الانسان ، ومن أطال النظر الى الحبيبة معجبا بها شعر بدبيب السكر فى أعضائه ، وهل

يوجد فى المعشوقة ما لا يفتتن به العاشق ؟ . يقول ابن خفاجة فى غلام قام يسقي الندماء :

2 ـ وانتحتْنا من طرفه ويديْه وَلَمَاه ووجنتيه مُدامَه

(ق . رقم 174)

ثم يعود ابن خفاجة مرة أخرى الى العيون (ق . رقم 182 ، بيت 7) ليلفت نظرنا الى المحب وما له من قوة سحرية اذا رنا قوة يتأثر بها وجه الحبيبة الابيض فتارة يصفر وتارة يحمر ويحاول شاعرنا أن يصور هذه الفكرة فينتهي به الامر الى تعابير معقدة غير واضحة من العسير فهمها فيقول :

5 ـ أرسلُ في روض وجنتيه لحظةَ عين تفيض عَيْنَا

6 ـ كَأَنَّمَا اللحظ كِيمِيَاء تذهب من وجهه لُجَيْنَا

7 ـ وما توهَّمتُ أَنَّ طَرْفَا يَقْلِبُ عَيْنَ الّلجيْن عينا

(ق . رقم 270)

ومن ذا الذي تخونه ، قواه ، ولا يفشل أمام عيون قاهرة قاتلة ؟ لقد عمد ابن خفاجة ليعبر عن هذا المعنى الى صورة حربية تمثل جيدا ما فى الحب من جبروت فيقول :

3 ـ يدير أجفان مُسْتَمِيتٍ يُوسِعُ كلّ الأَنَام حَيْنَا

4 ـ كالسيف تلقى الغِرَارَ عَضْبًا

يمضي وتلقى المَجَسّ لَيْنَا

(ق . رقم 270)

والوجه من الأغراض التي كثر تردادها فى الديوان ، الا أن التشابيه التي استعملها شاعرنا ليصف محيا الحبيبة تشابيه تقليدية ، ترد كثيرا فى شعر القدماء فالوجه لكي يوصف بالحسن والبهاء ، يجب أن يكون مستديرا حتى يذكر بالبدر فى كماله . يقول ابن خفاجة فى هذا الشأن :

1 – لقد زار مَنْ أهوى على غير مَوْعِدٍ

فعـايـنتُ بدر التِّمّ ذاك التّلاقيا

(ق . رقم 304)

ويقول أيضـا :

2 – طال ليليِ فيِ هوى قمـر   نـام عـن ليلـيِ ولم أنـمِ

(ق . رقم 60)

وقد يحار الانسان فى التمييز بين وجه الحبيبة والهلال لشدة التشابه بينهما .

4 – لو كنتَ حيث تَرَى الهلال ووجهَه

لو قفتَ شكا وقِفـة المتحيّـر

(ق . رقم 6)

ويستمر ابن خفاجة فى وصف الوجه ونضارته فيذكر كواكب أخرى يشبهه بها ، فيقول مثلا :

20 – ناجيت منه عُطَـارِدا ولربمـا

قبّلتهُ فلثمـت وجه المُشْتَـرِي

(ق . رقم 6)

ثم يذكر الشاعر الشمس بأشعتها الساطعة الباهرة فيأتينا بطباق يصدمنا به فيقول :

4 ـ نادمتُــها ليلا وقد طلعتْ بــه

شمسا وقد رقَّ الشَّرَابُ سَــرَابَـا

(ق . رقم 219)

ويقول فى محل آخر :

41 ـ أغازل منه الغصن في مَغْرِبِ النَّقَى

وأَلثمُ وجه الشمس في مطلع السَّعْدِ

42 ـ فإن لـم يكنها أَو تكنه فإنــه

أَخوها كماقُدّ الشراك من الجلد

(ق . رقم 278)

واذا كانت الحبيبة هادئة ساكنة تتمتع براحة البال فان وجهها يتجلى لعين الناظر منبسطا يسطع بياضا ، ولا يقل نضارة اذا تلون فاحمر لسبب من الأسباب . يقول الشاعر :

1 ـ غازلته من حبيب وجهه فلــــق

فما عدا أَن بدا في وجهه شفـق

2 ـ وارتجّ يعثر في أَذيال خجلتــه

غصن بعطفيه من إِسْتِبْرَقٍ ورق

(ق . رقم 68)

وقد نعثر فى بيت آخر على صورة قديمة تقليدية تعود الى غرة الفرس التي يرمز بها الى بهاء الوجه وبناعة أديمه . يقول ابن خفاجة :

13 ـ يسعى بها قمر له ولكأسه

وجه أَغَرٌّ وَمَبْسِمٍ معسول

(ق . رقم 196)

وقد يذكر هذا الوجه بفضل بياضه الناصع ، وشكله المستدير درهما ستتغير مادته بعد قليل :

7 ـ وجه به من بِدَعِ الحسن ما

يقوم للعشاق أعذارا

8 ـ قد طبع السحن به درهماً

تَسبُكُ منه العين دينارا

(ق . رقم 75)

وبعد ذكر الوجه بجملته يتعرض ابن خفاجة الى الأجزاء التي كونت سر لطافته وبهائه ، فيبدأ بوصف الخد الذي يستميل العاشق ببناعة لونه ـ ويوحى احمراره البديع الخلاب الى شاعرنا أن يتذكر النار المتوقدة قائلا فى جملة الصور :

1 ـ وأغيد حلو اللَّمى أملد

يذكي على وجنتيه الجمر

(ق . رقم 116)

فهذه النار المشتعلة في خد الحبيبة تذكر ابن خفاجة بالنار المعبودة عند المجوس وتلهمه تشبيها غير خال من طرافة فيقول :

12 ـ فلي به عين مَجُوسيَّة تعبد من وجنته نارا

(ق . رقم 75)

وكثيرا ما يوجه الشاعر نظره نحو الطبيعة بعامة والأزهار بخاصة ، ليعبر عن نضارة الخد ويناعته فيقول :

6 ـ ولربّ ليل قد صدعْتُ ظلامه بجبين بدركْ

7 ـ ولهوتُ فيه بدرة مكنونة في حُقّ خِدْرِكْ

8 ـ تندى شقائق وجنتيك به وتنفح ريح نشركْ

(ق . رقم 72)

ولهذا الخد ـ الذي يشبه الورد لونا ـ حلاوة الفواكه ، فيتمنى الشاعر أن تهدى له ، فيقول :

13 ـ أغار لخديه على الورد كلَّما

بدا ولعطفيه على غُصُن البان

14 ـ وهَبْني يجني ورد خدّيه ناظري

فمنْ لفمي منه بتفاح لبنان

(ق . رقم 277)

وقد يتأنق ابن خفاجة في وصف هذا الخد وقد عالته حمرة ، فتتأتى له الصورة التالية :

4 ـ أبكي فيستَحْي ففي وجنتي

مــاء وفي وجنته خمــــــــر

(ق . رقم 116)

واذا سالت الدموع على خد الحبيبة فان شاعرنا يوفق الى صورة لطيفة فيقول :

14 ـ وسال قطر الدمـع في خــدّه

فرفّ روضُ الحسن ممــطورا

(ق . رقم 188)

ونعثر على أبيات كثيرة فى الديوان تبرهن على افتتان العاشق أمام صفحة الجمال التي يمثلها الخد (ق . رقم 188 ، بيت 3) وتتكرر زيارته الى الحبيبة آملا أن تسمح له بقبلة . فلا يعرف راحة فى طلبه اياها ، الى أن ترضى له بما هو راغب فيه فيقبل على هذا الخد بلهف اقبال الجائع على الطعام ، فيرى الشاعر أن قبل هذا العاشق تذكر فى سرعتها بالخيل فى سباقها فيقول :

23 ـ أَرُوحُ اليه ثم أغدو وانما

أنْكِبُ عن مجد الى ملتقى وَجْــدِ

24 ـ الى حيث ألقى الرُّمحَ نهــدا مُثَقَّفَا

فأطرد خيلَ اللثّم في ملعب الــخدّ

(ق . رقم 278)

وأما الخال فمن الأغراض التي لا يكثر ترددادها فى الديوان . ولما كان الخال مما يزيد الخد جمالا فلم يذكر ابن خفاجة وحده وانما فى رفق صور أخرى . وكلنا يعلم أن النساء يعتقـدن أن الخال يتقى به من « العين » فيضعن نقطة سوداء من العنبر على خذهن فيجمعن هكذا بين الحسن والمفيد . وعند الاشارة اليه يكتفي شاعرنا بتكرار صور معروفة مثل تشبيهه الخال بفتاتة المسك (ق . رقم 61 ، بيت 3) الا أنه يوفق فى بعض الأحيان الى تشابيه تدل على رغبته فى التجديد والاتيان بما هو طريف لطيف ، فيقول مثلا :

3 ـ تَخَالُ خِيلانَه في نُور صفحته

كواكبا في شُعَاع الشمس تحـترق

(ق . رقم 68)

وقد يرى ابن خفاجة علاقة بين الخال المحترق فى نار الخد وقلب الحبيب المحترق فى نار الصدود والجفاء ، وهذا أمر معروف لدينا (ق . رقم 62 ، بيت 1) فليس الخال دائما ـ فى رأي شاعرنا ـ من الأشياء المزينة وانه ليجهد نفسه فى الغض منه . ويحق لنا أن نتساءل : أهو مجدد أم مقلد ؟ ألم يشر الى تلك القصيدة الشائعة لابن الرومي فى وصفه الورد كما ينبه اليه ناسخ الديوان ؟ يقول ابن خفاجة :

1 ـ ألا قل لذات الخال عنِّي إنَّنِي

لأَرغب عن خال تطلع في خدّ

2 ـ وزهّدني في ذلك الخد نـــسبة

أراها لـخال الـخد مِنْ جُعَلِ الورد

(ق . رقم 63)

وقد نجد العذار ــ وهو مـــن الأغراض التي تتردد كثيرا فى الشعر العربي ــ مذكورا فى أبيات عددها غير قليل فى ديوان شاعرنا . وينبغي أن نلاحظ أن العذار أصلا هو ما سال من اللجام على خد الفرس لشد الرسن كما يعني به أيضا الخد وكما يعني به الشعر الذي ينبت عليه ، ويستعمله الشعراء غالبا بهذا المعنى الأخير ، ويعتبر العذار من أهم الاشياء فى وصف المرآة بالجمال حتى ليكاد يعتبر عدم وجوده آفة كبرى .

ويرسم لنا ابن خفاجة فى مرح صور مختلفة للعذار ــ كلها تقليدية فهو يشبهه تارة بالآس :

1 ـ ألَمَّ يُسْقِنِي ســلاغة ريقــه

وطــورا يُحَيِّينِي بـــآسِ عِذَار

(ق . رقم 61)

وتــارة بالنـــد :

20 ـ وأغيدَ قد صار العذار بخـــدّه

كما خُطَّ بالكافور سطر من النَّــدِّ

(ق . رقم 278)

وتارة بالزمرد ، ويجعل الخال بازاء العذار فى الأبيات الآتية فيقول :

4 ـ وشَتِ المَـلاحة وجهـه وجرى العـذار به فـأَغْلَـمْ

5 ـ فقرأتُ سطـر زمُــرّدٍ فيه يمسك الخال معْجَـمْ

(ق . رقم 268)

ورؤية العذار وقد كسا خد الحبيبة تسمح لابن خفاجة باستعارة رائعة اذ يقول :

2 ـ ترى للصِّبى نارا بخدّيْه لم يَثُرْ

لها من سوادَي عارضَيْنِ دخان

(ق . رقم 177)

وقد يتأسف ابن خفاجة اذا لم ير بخد الحبيبة عذارا فيقول :

5 ـ إن لم يكن آسُ العذار بـدا بروضتـه فقـد هـمْ

(ق . رقم 274)

ويشير شاعرنا الى خد مكسو بعذار يضرب لونه الى الخضرة فيأتينا بصور نباتية مأخوذة من الطبيعة كما في قوله :

ـ أبيضّ وأخضرّ شَطْرُ عارضه فـاقترن النَّورُ منه بـالورقْ

(ص 359 ـ سطر 10)

ويأبى ابن خفاجة أن يفارق الطبيعة حتى يأتينا بصورة أخرى حية ممتعة فيقول :

2 ـ وكأنَ صفحتَه وبدءَ عِذاره

مـاء يثـور بصفحتيْه طُحْلُبُ

(ق . رقم 142)

وها هو الآن ينتقل من المدح الى الذم كما كان الأمر فى شأن الخال ، لم يستبشر بالعذار فأمدنا بالصورة التالية ، وقد استعار مادتها من الطبيعة مرة أخرى فيقول :

1 ـ أطلَّ وقد خطَّ في خـدّه من الشَّعْرِ سَطرَ دقِيق الحروف

2 ـ فقلت أرى الشمس مكسوفة

فقوموا نصلي صلاة الكسوف

(ق . رقم 140)

وقد يصور شاعرنا العذار فى صورة غير جميلة ليقنعنا بأن العذار يقضى على نضارة خدْ الحبيبة فيقول :

2 ـ سُـوِّد مـا وُرِّد من خدّه فـآل فحْمـًا ذلك الجمـر

(ق . رقم 141)

وأما الفم فقد اكتفى ابن خفاجة بذكر بعض صفاته مثل العذوبة والبرودة أو لون الشفاه ولمعان الاسنان ــ وليعبر عن جمال هذه الأشياء كلها عمد الى صور قوية أخذها فى غالب الأحيان عن الشعراء الأقدمين ــ وأول تشبيه خطر بباله ــ بطبيعة الحال ــ هو التشبيه بزهرة ، فيقول :

23 ـ أروح اليه ثم أغدو وإنّما

أنكِّبُ عن مَجْدٍ إلى مُلْتَقَى وَجْـدِ

25 ـ إلى حيث أجنى الأُقْحُوَانَـةَ من فَمٍ

شهيٍّ وأثني الخَيزُرانَة من قَـدِّ

(ق . رقم 278)

ويعتصر شاعرنا كل ما تسمح به له هذه الزهرة من صور متلونة ، فهي من نوع فى حاجة الى الحفاظ عليه والاعتناء به . وينبغي لكيلا يذهب رونقها ورائحتها الطيبة الزكية أن تسقى دائما ولكن بأي ماء ؟ يجيبنا ابن خفاجة قائلا :

21 ـ تندّى بفيه أقاحة نفّاحَة شربتْ على ظمإٍ بماء الكَوْثَرَ
(ق . رقم 6)

ونعثر على صورة أخرى تثيرها رؤية فم ناد ، ألا وهي صورة نبع يتدفق ماء صافيا ، وهي صورة معروفة من قديم الزمان عند جميع الأمم ، ولذلك نرى فن التصوير والنقش اليوناني ، ثم الروماني ، يجعل الينابيع تنفجر من أفواه الآلهة . ولم يتخلف شاعرنا عمن سبقه فيقول بدوره :

45 ـ وقد وِلتُ من تقبيل خدّ إلى فم
أقول بتفضيل القراح على الورد
(ق . رقم 278)

وليس هذا الماء ، فى عين الحبيب الذي يعبد حبيبته ، الا ماء مقدسا . ويصور ابن خفاجة هذا المعنى فى التشبيه الآتي فيقول :

6 ـ طُفْنَا بكعبَة فتنة منه لنا من فيه زَمْزَمْ
(ق . رقم 274)

وعندما يتكلم ابن خفاجة عن الشفاه يكتفي باشارات خاطفة وجيزة ـ ويأتينا بما هو معروف ومعتاد عند الشعراء ، فهو ـ

مثلا ــ يشير الى لون الشفاء وتنديها وعذوبتها فيقول فى جملة من الصور :

1 ــ وأغيد معسول اللَّمى والمرا شـف

صقيل الحلى والْمُجْتَلَى والسَّوا لـف

3 ــ فنادمتُ حُلْوَ البِرّ واللَّفظ واللَّمى

جميل الْمُحَيَّا والْحُلى والْعَوارف

(ق . رقم 129)

ثم يقابل مرة أخرى بين سمرة اللمى وبياض الأسنان اللامعة ، (ق.رقم 182 ، بيت 7) ولكن الفم بشكله المستدير ، والشفاه بلونها الأحمر القاني،يذكرانه ــ لا محالة ــ بالكأس المملوءة خمرا والى ما تتركه من أثر فى نفس الشارب . ويذكر ابن خفاجـة فى مقطعة شعرية تلك الأوقات « حيث كان الحب بأمواجه العالية يسقيه » سكر السعادة ، فيقول :

7 ــ كأن لم يَصِلْنِي فيه ظَبْيٌ يمُوم لي

لَمَاهُ وصُداغاه براح وريْحَـانِ

(ق . رقم 277)

ويعود ابن خفاجة مرة ثانية الى هذه الصورة ، يجلى لنـا المحب ينتظر فى قلق شديد بفارغ الصبر ، الوقت الذي سيتاح له فيه أن يتمتع بما وهبه الله من جمال ، ويصف لنا غلاما حديث السن تغلب عليه السكر فهوى ، فتسلمه شاعرنا قائلا :

1 ـ قام يسعّى بها غلام تَغـنّى

فأنْشَنَتْ خُوطَةٌ وناحت حمامة

2 ـ وانتحتنا من طرفه ويديه ولمـاه وَوَجْنَتَيْـهِ مُـدامـهْ

(ق . رقم 174)

والملاحظات التي ذكرناها حول الشفاه هي نفس الملاحظات التي نجدها عند وصفه الأسنان ، حيث يتحدث عن بياضها ونصاعتها وشفافتها . يشبهها تارة بالحباب فيقول :

20 ـ غزاليَّةُ الألحاظ ريميَّةُ الطُّلَى

مداميَّة الألْمَى حبابيَّة الثَّغر

(ق . رقم 1)

وتارة بالجوهر فيقول :

3 ـ مُتَنَفِّسًا عن مثل نفحة مِسْكَة

مُتبسِّمًا عن مثل سِمْطَيْ جوهر

(ق . رقم 6)

وتارة بالبرد فيقول :

3 ـ أشكو الظَّمَاء وريِّي في حصى بَرَدٍ

لوْ بَلَّ من غُلل أبللتُ من عِلَلِ

(ق . رقم 97)

وقد يصنع ابن خفاجة باقة من صور متعددة تضم مختلف ما تملكه الحبيبة من اللطائف والمحاسن فيقول :

36 ـ ونَقْلِي أَقَاحُ الثَّغْر أو سُوسَنُ الطَّلى

ونرجسة الأَجفان أو وردة الخد

(ق . رقم 278)

ونجد الشاعر يبرز بياض الأسنان ونصاعتها بمقابلتها بالشفاه السمراء ، فيذكر هنا امرأة سوداء ليتأتى له هذا الطباق البسيط بين بشرة سوداء وأسنان بيضاء ، فيقول :

ـ تجرّدتْ عن غَسَق وابتسمتْ عن فلَق

(ق . رقم 117)

وأما جيد الحبيبة فلم يعثر عليه الا فى أبيات معدودة ، حيث تذكر تلاعته ولطافته بذلك الحيوان اللطيف الرهيف كما جاء فى البيت الآتي :

20 ـ غزاليَّة الأَلحاظ ريميَّة الطُّلى

مداميَّة الأَلمى حبابيَّة الثغر

(ق . رقم 1)

وكما يذكر جيد الغزالة اذ يقول :

6 ـ هي الظَّبِيُ طرفا أحورًا وملاحِظًا

مرَاضًا وجيدا أتلعا وَنِفَارا

(ق . رقم 170)

وأغلب التشبيهات التي استعملها ابن خفاجة قديمة تقليدية وأكثرها ترددا فى الشعر العربي هو تشبيه الجيد بالسوسن

لشدة بياضه عدد (ق.رقم 278 بيت 36 ، ورقم 266 بيت 1) .

وأما صدر الحبيبة فمن الأغراض التي مر بها الشاعر مسرعا مكتفيا باشارات خفية ، فشبه الثدي بالرمان وهي صورة معروفة أخذها عن الشعراء الأولين . (ق.رقم 72 بيت 5) . وقد وفق الى تشبيه آخر لا يخلو من طرافة فيقول :

43 ـ تسافر كِلْتَا راحتيَّ بِجِسمه
فطورًا إلى خصر وطورًا إلى نهد

44 ـ فتهبط من كَشْحَيْه كِفٌّ تِهَامَةً
وتصعد مِنْ نَهْدَيْه أخرى إلى نَجْدِ

(ق . رقم 278)

وكذلك الأمر فيما يخص يد الحبيبة فان ابن خفاجة اكتفى

2 ـ وضحتْ سوالف جيدها سوسانة
وتورَّدتْ أطرافها عُنَّابَا

(ق . رقم 219)

ويقول مرة اخرى :

16 ـ وقبلتُ الكأس من يده فاجتنيْتُ الورد من عَنَمِ (14)

(ق . رقم 60)

وقد عثرنا على أبيات عديدة يشير فيها ابن خفاجة الى قامة الحبيبة ، ويتجلى لنا ان الشاعر كان يميل الى

صاحبات القامة الطويلة المنسجمة الهيفاء ، والصورة التي كثر ترددها هي تلك التي تشبه فيها القامة بالقضيب أو الغصن المياد ، فيقول مثلا :

3 ـ ومرّ يجدّ بي فيه هواه وقد نعب الصَّبي بقضيب قَدِّه
(ق . رقم 62)

ويذكر ابن خفاجة مرارا غصن شجرة البان لليونته ولطافته فيقول :

5 ـ فجنيتُ روضا في قناعك زاهرا
وقضيبَ بَانٍ في وشاحك مثْمِرا
(ق . رقم 237)

ثم يعود الشاعر الى هذا التشبيه فى مقطعة شعرية فيصف لنا الحبيبة ومالها من محاسن مشيرا الى تلك القامة المستقيمة المنسجمة مع الأعضاء الأخرى للجسد ، فيقول :

39 ـ وعانقتُه قد سُلَّ من وَشْيِ بُرْده
فعانقتُ منه السيف سُلَّ من الغِمْدِ

40 ـ لَيَانَ مجسٍّ واستقامة قامة
وهِزَّةَ أعطافٍ ورونقَ إفْرَنْدِ
(ق . رقم 278)

وقد يذكر ابن خفاجة فى محل آخر صورة تقليدية حيث يشبه القامة بالألف فيقول :

3 ـ قد قام في سطر لندامى فاستوى

فحسبتهُ ألفــــا بــه مكتــوبا

(ق . رقم 217)

واذا شبه قامة المحبوب بالألف تمنى لو يشبه هو باللام ، وقد جاءت هذه الصورة في البيت الآتي :

4 ـ وأقام مُرْهَفُ قدِّه ألفاته   فوَدِدتُ أني كنتُ من لاماتهْ

(ق . رقم 328)

وتغنى الشاعر بالقامة الهيفاء ، فتخيل هذه الصورة التــي لا تخلو من مبالغة فيقول :

2 ـ قولا لأَخوى باللِّوى متُنصِّر

عقد النجــولُ بخصره زُنــَّارا

(ق . رقم 212)

ويقول أيضا في هذا الغرض :

1 ـ وأهيفٍ قام يــــسقـــي   والسُّكْرُ يــعطـــف قَـــدَّهْ

2 ـ وقد ترنح غـــصنـــا   واحمــرَّتِ الـكـأس ورْدَهْ

(ق . رقم 286)

وينبغي للمرأة كي تكون جميلة فتانة أن تكون نحيلة الخصر، ممتلئة العجز ، الا أن ابن خفاجة لم يعتن بهذا الغرض والأبيات التي يشير فيها اليه قليلة . ورغم هذا فانه اكتفى هنا أيضا بذكر أوصاف طرقها من سبقه من الشعراء ، لم يخالفهم في ذوقهم ،

وصرح بميله الى العجز الممتلىء ، بحركاته المتموجة ،فتأتت له هذه الصورة اذ يقول :

12 ـ وتعبٌ مـن رجـراج رِدْ فِلَك موجـة فيِ شطٍّ خصـرك

(ق . رقم 72)

وأجدر بالذكر استعارة طريفة وفق اليها الشاعر فى محاولته المطابقة بين نحالة الخصر وامتلاء العجز فيقول :

2 ـ من الهيف أما ردفه فمنَعَّمٌ

خصيـب وأما خصره فجديب

(ق . رقم 43)

ويتعرض ابن خفاجة الآن الى هيئة الحبيبـة ، فيصفها لنـا تتهادى فى مشيتها وقد كثرت الأبيات التي يشير فيها الشاعر الى هذا الغرض . ومن المعلوم أن كل امرأة جميلة اذا أرادت ايثار اعجاب الناظرين اليها تأنت فى سيرها ، وقصرت من خطاهـا ، يقول ابن خفاجـة :

2 ـ يمشي الْهُوَيْنَى نخوة ولربّمـا

أَطَرَتْه طَوْرًا نشـوة وشبـاب

(ق . رقم 203)

ولا يمل شاعرنا ولا يكل من التحديـق فى الحبيبة ، وهي تنتقل من مكان الى مكان ، فيتتبع حركات هذا الجسم ، حركات لطيفة شيقة ، وهل لابن خفاجة أن يصفها دون أن يستمد صوره من الطبيعة حبيته الثانية ، يقول :

2 ـ كُلَّمَا مَرّ قاصرا من خُطَاهُ يتهادى كما يمرّ الـــغمـــام

3 ـ سلّم الغصن والكثيب علينـــا

فعلى الغصن والكثيب الســلام

(ق . رقم 15)

ويقول أيضـــا :

10 ـوأقبل بالحسن إد بارهُ يلاعــب خُــوطتَه حِــقْفُــــهُ

(ق . رقم 54)

فهذه السيدة المفتخرة المزهوه بجمالها ، الواثقــة بنفسها ، تمتاز بصفات أنثوية محضة تزيدها جمالا وبهاء . ولكنها تبدو بوجه آخر فى ظروف معينة أخــرى فيشير الشاعر الى خجلــها وحيائها قائلا :

1 ـ غازلتهُ من حبيب وجهه فَلَــقُ

فما عدا أَن بدا في وجهه شَفَــق

2 ـ وارتجّ يعثر في أَذيال خجلته

غصن بعطفيه من إِسْتَبْــرَقٍ ورق

(ق . رقم 68)

وتوفر هذه الصفات كلها فى الحبيبة يجعلها من المخلوقـــات الكاملة ، فيشبهها ابن خفاجة تارة بالنبي يوسف عليه السلام ، لجماله الفائق الباهر ، وتارة بسليمان لجلالته وعظمته فيقول :

17 – تراءى لنا فى مثل صورة يُوسُفٍ

تراءى لنا في مثل مُلْكِ سلَيْمَان

(ق . رقم 277)

وأخيرا يصل شاعرنا الى أقصى درجة فى اعجابه بحبيبته حيث يراها فريدة فى نوعها وكل ما يعمد اليه من رموز للتعبير عن بهائها يبدو له ناقصا ضئيلا دون سيدته . فيقول :

3 – فإذا رنا وإذا شدا وإذا سعى وإذا سفرْ

4 – فضح المدامة والحمامة والغمامة والقمر

(ق . رقم 96)

ويقص علينا ابن خفاجة الآن قصته الغرامية ، فيتجلى لنا ذلك الفنان ذو العواطف اللطيفة والأخلاق الحميدة والنفس الزكية ، اذا التقى بحبيبته تمتع بالنظر اليها فى اعجاب واحترام لا يحط من قيمتها أبدا ، ولا يهينها بما لا تسمح به كرامة الانسان لنا مقطعة شعرية رائعة تجلوه لنا فى سذاجة واخلاص ، بعد وجس ، ولم نعثر ولا مرة واحدة فى الديوان على كلام رذيل كما هو الأمر عند أبي نواس مثلا .

ولم يرض ابن خفاجة لنفسه الا باشارات خفية وجيزة تسمح للقارىء أن يتخيل نوع العلاقات التي بينه وبين الحبيبة ، وخلف لنا مقطعة شعرية رائعة تجلوه لنا فى سذاجة واخلاص ، بعد أن فاجأته الحبيبة بزيارة غير منتظرة ، فيقول :

1 ـ لقد زار من أهوى على غير موعد

فحاينتُ بَدْرَ التمِّ ذاك التلاقيا

2 ـ وعاتبتهُ العتْبَ يحلو حديثه

وقد نلغتـ روحي لديه التَّراقيا

3 ـ فلما اجتمعنا قلتُ من فرحي بـه

من الشِّعْر بيتا والدموع سَوَاقِيَا

4 ـ وقد يجمع الله الشَّتِيتَيْن بعدما

يظنَّان كلَّ الظَّنِّ أن لا تلاقِيَـا

(ق . رقم 304)

ولدينا قصيدة أخرى بديعة قالها شاعرنا فى الغزل حيث يرفع لنا الستار عن مجلس أنسه وقد اجتمع بالحبيبة فيصف لنا تلك الأوقات السعيدة التي قضاها فى رفقتهـا . ورغم ما فى هـذه الأبيات من مجون فان المجموع لم يتسم بالرذالة والاستهتار ، فيقول مثـلا :

36 ـ وَنَقْلِي 148 أقاح الثغر أَو سوسن الطلى

ونرجسة الأَجفان أَو وردة الخدّ

37 ـ إلى أَن سَرَتْ في جسمه الراح والكرى

ومالا بعطفيه فمال على عضُدى

38 ـ فأقبلتُ أستهدي لما بين أضلعي

من الحرّ ما بين الثنايا من البَرْد

39 ـ وعانقته قدسلٌّ من وشي بـــرده

فعانقت منه السَّيف سُلَّ من الغِمد

43 ـ تُسافر كلتا راحتييَّ بجسمـــه

فطورا إلى خصر وطورا إلى نهــــد

45 ـ وقد ملتُ من تقبيل خدّ إلى فم

أقول بتفضيل القراح على الورد

46 ـ وغيّرت بالتجميش كافور خدّه

وإنِّي لَعَفٌ مِئْزَرِي طاهر بُردي

(ق . رقم 278 وانظر رقم 60)

وجود قصائد من هذا النوع أوقع ابن خفاجة فى مأزق ـــ كما أشرنا اليه سابقا ـــ وقتما اتهمه معاصره ابن خاقان بالمجون فى عهد كان يخشى الانسان على نفسه عواقب تهمة كهذه . وقـــد رد على رفيقه ولامه على قوله مصرحا بأن ما جاء فى شعره من مجون ما هو الا ثمرة خياله وانه سلك فى حياته سلوك الأعفاء يشير المستشرق بيراس الى عفة شاعرنا فيقول : ما نعرفه عـــن ابن خفاجة يسمح لنا بالاعتقـــاد أن العفاف فى نظـــره ـــ ونظر غيره ـــ لا يعني به الامســـاك عن الجماع مطلقا ، وليس هـــو العفاف بمضمونه حسب الآراء الغربية ، وانما هو الامســـاك بأمرأة واحدة فريدة (أنظر الشعر ص 424 ، تعليق 4) ونرى بدورنا نحن أن العفاف هو الكف عما لا يحل .

وأما الحبيبة فانا لا نعرف عنها شيئا جديرا بالذكر ما عــدا جمالها الالهي الذي لا يمل الشاعر من التغني به ولا يكــل . ونحن نجهل مثلا اسمها وأصلها ومكانتها الاجتماعية كما نجهل شخصيتها . ولم يبح الشاعر بأي شيء يمس عرضها أو يدنس شرفها ، وبسلوكه هذا اقتدى بالأولين ، فخطا خطاهم ، وامتثل للقوانين ، حتى يكون له ذلك الحب المثالي الذي من واجبه الا يجهر باسم الحبيبة اتقاء شر الوشاة والحســاد وغيرهم مــن الأشخاص المشار اليهم فى الشعر الغزلــي ، ولكن ابن خفاجــة ــ فيما يبدو ــ لم يتبرم من وجود هؤلاء السفهاء ، ولم يصغ الى أقوال العاذلين ، ولم يذكر الكاشــح فى الديوان الا مــرة واحدة فيقول :

4 ــ وأسْتكْتُمُ الشِّعرَ اسمَه خوف كاشح

فبيني وبين الشِّعر فيــه ذِمــام

(ق . رقم 210)

ونتساءل الآن عن شخصية الحبيبة فقد يبدو أن الشاعر لــم يعطها فى غالب الأحيان الا دورا ضئيلا ، فيكتفي بوصفها راضية فى اجتماعاته السرية بها ، فلا تفوه ببنت شفة ، ولا تقوم بأيــة حركة سوى الاستسلام الى الحبيب ، الا أنه يتراءى لنا خلال بيت من الشعر أن ابن خفاجة اشتكى من الحبيبة اذ يقول :

1 ــ وساقٍ لخيل اللَّحظ فِي شأوِ حُسنه

جِماح وبالصبر الجميل حِـران

(ق . رقم 177)

ولم يعرف ابن خفاجة أوقات السعادة بزياراته المتكررة الى الحبيبة فحسب بل تجرع أيضا مرارة الفراق والاغتياب لأننا نجد فى ديوانه أبياتا شعرية تشير الى الفراق والجفاء . ولا يرى ابن خفاجة فائدة فى ذكر أسباب ابتعاد الحبيبة عنه ، وانما يرى أنه من أقسى الأمور وأشدها ألما ، لما يعانيه من حزن وكآبة ، فتمر عليه الليالي وعينه ساهرة . ويأتينا ببيتين يصور لنا بهما حالته أحسن تصوير فيقول :

1 ـ أبى البرق إلا أَن يحنّ فؤادُ
ويكحَلَ أجفان الْمُحِبِّ سُهَاد
2 ـ فبتُّ ولي من قانىء الدّمع قهرةً
تُدارُ ومن إحدى يديَّ وِساد
(ق . رقم 82)

وتظهر له ليالي الأرق طويلة جدا ، لا نهاية لها ، فيدرك أنه ليس لدائه دواء سوى عودة الحبيبة ، تلك التي لا قيمة للحياة بدونها فيقول :

1 ـ اللَّيل إلاَّ حيث كنتَ طويل
والصبر الا منذ بِنْتَ جميل
2 ـ والنفس مالم تَرتقبْك كئيبةٌ
ولطرف مالم يلتمحك كليل

وأمام عجز شاعرنا عن الاتصال بحبيبته فانه يبحث عمن يزورها آملا فى أن يأتيه بأخبارها ، ولكن من هو هذا الرسول ؟ يولي ابن خفاجة نظره نحو الطبيعة الحنون فيذكر البرق والرياح، ربما لسرعتهما ، فيقول :

1 ـ أرقتُ لذكرى منزل شطّ نازح
كلفت بأنفاس الشَّمال له شمّا

2 ـ فقلت لبرق يصدع الليل لامح
ألا حيِّ عني ذلك الرَّبْعَ والرَّشْدا

3 ـ وأبلغ قطين الدّار أني أحبّهم
على النأي حبّا لو جزوني به جمّا

4 ـ وأقرِىء عُفَيْرَاءَ السلام وقل لها
ألا هل أرى ذاك السّهى قمرًا تمّا

(ق . رقم 40)

ثم يلتفت الى رياح الشمال والى رياح الجنوب فيكلف كلا منهما بمهمة فيقول :

2 ـ ولا رُسْلَ الا للرّياح عشيَّةً
تكرّ جنوبًا بيننا بينا وشمالا

3 ـ فأستودع الرِّيح الشَّمَال تحية
وأستنشق الريح الجنوب سؤالا

(ق . رقم 74)

الفصل الثالث :

اغراض مختلفـة :

يحتوي ديوان ابن خفاجة على بعض المقطعات الشعرية التـي تعرض فيها الى أغراض شعرية مختلفة تتفاوت أهمية ، وسنقوم الآن بتحليلها .

لم يعرض للبنيان المشيد الا مرة واحدة فى الديوان وبطريقة عرضية فقد صدر ابن خفاجة قصيدة غزلية ببيت أشار فيه الـى منزل قضى فيه أوقاتا سعيدة :

1 ـ وقوراَءَ بيضاء المحاسن طَـلقةٍ

لبستُ بها الليل البهيم نهارا

(ق . رقم 170)

وأحق بالذكر عنده الآثار القديمة ، والأبنيـة المخربة ، وقـد يشير ابن خفاجة الى قصر حطمته يد الانسان فيرثيه ويأتينا بثلاثة أبيات فيقول :

1 ـ ومُرْتَبَعٍ حططتُ الرَّحْل منـه

بحيث الظِّلُّ والماء القـراحُ

2 ـ تَخَرَّم حُسْنَ منظره مليك تَخَرَّم مُلْكَه القَدَرُ المُتَـاح

3 ـ فجريةُ ماء جدوله بكـاء عليه وشدوُ طائره نِيـاح

(ق . رقم 89)

وفى قطعة شعرية أخرى يصف لنا ابن خفاجة منزله وقد فاضت عليه مياه وأمطار غزيرة نزلت على المدينة وضواحيها . (أنظر ق.رقم 240) .

ومن بين الابنية نذكر الحمام ولم يشر اليه ابن خفاجة الا مرة واحدة وهو من الاغراض المتداولة بين الشعراء ، وقد اكتفى شاعرنا فى بيتين بتكرار ما يقال عادة فى هذا الغرض :

1 ـ أهلا ببيت النار من منزل شِيدَ لأَبرار وفُجَّار
2 ـ نقصدهُ مُلْتَمِسِي لذَّة فندخل الجنة فِي النَّار
(ق . رقم 320)

ونعثر فى الديوان على غرض آخر يردده أكثر من مرة وهو النيران والرشاش والدخان ومن ثم فهو جدير أن نعتني به عناية خاصة . نجد أربع مقطعات شعرية عدد أبيات كل منها لا يتجاوز العشرة (القصائد رقم 28 ، 29 ، 44 ، 83) يشير فيها الشاعر الى النار ويعدها من المنافع بما تبعثه من حرارة مدفئة ، ورؤية بعض الندماء وقد جلسوا حلقة حول مجمر حملت ابن خفاجة على انشاد أبيات كثرت فيها صور غير خالية من تكلف وتعقيد ، فجاءت غامضة المعنى فى بعض الأحيان . فقال مثلا :

1 ـ وَمَوْقِدِ نار طاب حتَّى كأنّما
يشُبُّ النَّدى فيه لِسَارِي الدُّجَى نَدًا

2 ـ فأَطلع من داجي دخانٍ بَنَفْسَجـا

جَنِيًا ومن قاني شُواطٍ لـه وَرْدَا

3 ـ وضاحك غُرًّا من وجوه وَضِيَّةٍ

فلم أدر أَيٌّ كان أذكا هما وَقْدَا

6 ـ أرى خير نار حولها خير فتيـة

أنافتْ لهم جيدا وحفّوا بها عِقْـدَا

7 ـ إذَا الريح باستْ من سواد دخانها

عِذَارًا ومن مُحْمَرٍّ جاحمها خـدّا

10 ـ وبالجمر في أكنافها مسٌّ رِعـدة

كأَنَّ بحامي الجمر من شدّةٍ بَرْدَا

(ق . رقم 83)

ويصف لنا الشاعر فى بيتين شمعة مشتعلة ، ورؤية حركـات اشتعالها فى الليل المظلم سمحت لابن خفاجة أن يأتي بصور بلاغية مجسمة غير بها صورة هذا الشيء البسيط حتـى ان الانسـان لا يتبين ان الشاعر يقصد وصف شمعة لو لم يساعده ناسـخ الديوان بما كتبه تقديما لهذين البيتين :

1 ـ وصعدةٍ لَبِسَتْ سِرْبَالُ مُشْتَهِـر

بالحبِّ منْغَمِسٍ في الدمع والحـرَقِ

2 ـ ما زال يطعن صدر الليل لَهَذْمُهَـا

حتى بدا سائلا منه دَمُ الشَّفَـق

(ق . رقم 326)

ويتضمن الديوان كذلك وصف الأسلحة مثل القوس والسهم ، والسيف والرمح .

فالرمح والسيف من الأسلحة التي يشير اليها ابن خفاجة مرارا ولا سيما في قصائده المدحية حيث يصف لنا حاميه وسط المعارك العنيفة قاضيا على أعدائه بسيفه ونلاحظ أن ابن خفاجة لا يفرق بين السيف الأندلسي والسيف المشرقي ، فكلاهما مهند صارم معضب ، وهي صفات يستحسنها جميع المحاربين ، وقد يزيـد ابن خفاجة في التأنق آتيا بصور لا تخلو من مبالغة بل من غلو فيقول مثلا :

1 ـ وأَبيض عَضْبٍ حالف النَّصرَ صاحباً

فكاد ولم يُسْتَلَّ يمضي فيفتِكُ

2 ـ يبُشِّرد بالنصر إرْهَاف نصـله

فيهتزُّ في كفّ الكمي ويضحـك

(ق . رقم 208) ، و (انظر ارقام 207 ، 209)

وعثرنا كالذلك على السيف في شعر الغزل ، استعمله الشاعر رمزا للتعبير عن استقامة قامة الحبيبة فسماه بالمثقف ولا يختلف

فى صفاته عن المهند (أنظر أرقام 198 ، 278 ، 280) .

وأما القوس والسهم فلم يذكرهما ابن خفاجة فى ديوانه الا مرة واحدة فى وصفه راميا فقال :

1 ـ عَوْجَاء تُعْطَف ثم تُرسل تارَّةً
فَكَأَنَّمَا هي حيَّة تنساب

2 ـ وإذا انتحتْ والسهم منها خارج
فهي الهلال انقضَّ منه شِهَاب

(ق . رقم 294)

ومن بين الاسلحة التي يتقى بها نجد الدرع والقوس مذكورين فى المشاهد الحربية الموصوفة فى القصائد المدحية ، وقد يتكرر ذكر الدرع مرارا (قصائد رقم 49 ، 81 ، 85) أما القوس فقد ذكرت مرتين (رقم 85 ، 150) . ويكتفي ابن خفاجة فى كل مرة بالأوصاف المعروفة عند القدماء .

ويصف لنا شاعرنا أيضا السفن ولاشك أنه أتيح له أن يشاهدها وهي تسير على المياه ، فقد خلف لنا قطعة شعرية شيقة حيث يقول فيها :

1 ـ ورائحةٍ رَيَّا تَهَادت بها الصَّبَا
تهادَى عِفط المترف المتبختر

2 ـ وقد صقلت من صفحة الماء منْصُلا

به من شعاع الشمس رونق جَوْهَرِ

3 ـ فمن شبكٍ قد حِيكَ حوْك مفاضة

ومن سمك قد صِيغَ صيغة خنْجَرِ

(ق . رقم 327)

ويتكرر هذا الغرض مرتين ويأتي دائما فى مجموعة من الصور (أنظر رقم 91 ، 149 ،) .

ويصف لنا أيضا الزوارق التي كانت تقطع نهر شقر واصلة بين حافتيه ولاشك أن ابن خفاجة كان يشاهد ذلك يوميا ، فرسم لنا الصور الآتية اذ يقول :

12 ـ ثم ارتحلتُ ولِلْمَسَاء ذؤا بـة

شيباء تُخضَب والظلام خِضاب

14 ـ حيث استقل الجَسْرُ فوق زوارقٍ

نُسِقَتْ كَمَا تتواكب الأَحباب

15 ـ لم تستبق وكأنها مصطفّة

دُهْمٌ تنازعتِ السِّباق عِراب

(ق . رقم 203) و (انظر رقم 91 ، 149)

ونعثر فى الديوان على أغراض أخرى لا أهمية لها مثل وصف قلم(رقم 274) ويا قوتة (رقم 318) وخاتم سماوي الفص

(رقم 104 ، 106) والأجدر بالذكر من بينها هو وصف أسود يسبح فى غدير فى بيتين يرد ذكرهما فى كتب المؤرخين كالمقري 150 مثلا ، يقول :

1 ـ وأَسودٍ يسبح فيِ لُجَّة لا تكتمُ الحصباءَ غدرانُها
2 ـ كَأَنّهَا فيِ شكلها مقلة زرقاء والأَسود إنسانُها

(ق . رقم 299)

الفصل الرابع :

الأغراض الشعرية التي الهمته بها الطبيعة :

لقب الشاعر ابن خفاجة بالجنان لأن وصف الطبيعة قد استغرق القسم الاوفر من انتاجه الشعري . ولقد رأينا أن فضل الاسبقية لا يرجع اليه فى هذا الميدان فقد وجد ابن خفاجة أمامه شعرا كثيرا قاله من سبقه من الشعراء الاندلسيين فى وصف الطبيعة ولكن فضله كان فى التوسع فى هذا النوع واحيائه بخبرته الشخصية . ولقد رأينا فعلا أن شاعرنا نشأ بمنطقة تمتاز بطبيعة يانعة متلونة تثير اعجاب الناظرين بل افتتانهم بها ، وكان ابن خفاجة لا محالة من هؤلاء ، فمال الى هذه الطبيعة الجميلة ، وكانت له نبعا فياضا استقى منه طيلة حياته .

وينبغي أن نعترف لابن خفاجة أن من العسير عليه أن يمتاز ويتفوق على غيره من الشعراء فى نوع سبقوه اليه وتهافتوا عليه

فوجه كل جهوده لخدمة العبارة لعله يهتدي الى ألفاظ وصور شيقة لطيفة طريفة .

فشعر ابن خفاجة يتضمن مجموعة من الاشارات تمثل أهم الظواهر الطبيعة الجوية التي أتيح له أن يشاهدها مباشرة . وهذه الأغراض المختلفة هي التي نود الآن أن نقوم بتحليلها .

أول ما نلاحظه هو أن ابن خفاجة لم يهتم أبدا بوصف السماء ، فلا يشير اليها الا فى أبيات معدودة كمشبه به ، فرؤية موقد مثلا بجمره المحمر تذكره بسماء اشتعلت نجومها فيقول :

4 – فـي مـوقِـد ... ...
5 – مُنْقسم بين رماد أزرقٍ وبين جمر خلفه يلتهب
6 – كَأَنَّمَا خَرَّتْ سماء فَوقه وانْكَدَرَتْ ليلا عليه شُهُب
(ق . رقم 39)

وعلى العكس من ذلك ، فقد يبدو أن للظواهر الجوية الفضل فى تحريك خياله لأنه كثيرا ما يشير اليها ويشكل لها حياة تذكرنا بالحياة الانسانية .

فالسحابة لا يأتي وصفها مستقلا وانما يرد ضمن مجموعة من الظواهر الأخرى . ويبدو أن ابن خفاجة أطال النظر اليها لأنه يلاحظ تغير شكلها وحركاتها ، تارة بطيئة وتارة سريعة فيقول :

1 – وغمامَةٍ لم يستقلّ بها السُّرى
فمشَتْ على الظلماء مشيَ مُقَيَّدِ

2 ـ حملتْ بها ريح القبول سحابة
سحَّابةَ الأذيال تلْمَس باليـد
(ق . رقم 148)

وقد يكرر شاعرنا الصور للتعبير عن سير السحاب فى السماء فيقول مثلا :

4 ـ وَكَأَنَّ الغمامِ والبرق يهمو
راكب أسلم النُّعاس زِمـامَـهْ
ق (ق . رقم 174)

وفى قطعة شعرية يقرن بين هاتين الحركتين لاجئا فى ذلك كعادته الى صور رائعة تزيد المشهد حيوية فيقول :

1 ـ وخميلةٍ قد أخملتْ سِرْبالـها
كفاً صناع تستهل هَـتُـونِ
2 ـ طوتِ السُّرى والبرق سوط خافق
بيد الدُّجى والرِّيح ظهر أَمُـون
3 ـ نشوى تهادى فيِ وشاح مُذْهَـبٍ
قلق وتسحب مـن ذيول جـون
(ق . رقم 184)

ويلاحظ ابن خفاجة بعد حركات السحابة تلونها فهي تارة عنبرية اللـون :

1 ـ باكرتُه والغيم قطعةُ عنبـر

أمشبوبةٌ والبرق لفحــة نـار

(ق . رقم 2)

وتارة تميل بلونها الى السواد فيأتينا بتشبيه فى بيت قد أشرنا اليه فيقول :

3 ـ سقانا ....

5 ـ وقد جال من جَوْن الغمامة أَدهمٌ

له البرق سوط والشَّمال عِنـان

(ق . رقم 177)

ويحاول الشاعر فى البيت الآتي أن يقابل بين سحابة مذهبة وليلة مظلمة للمطابقة ، فتسيل السحابة ماء فضيا وصنع ابن خفاجــة من كل هذا صورة خفية فى غاية الدقة فيقول :

4 ـ فذهّب ليل السُّرى عارض

يفضِّض بالمـاء مـا ذهبـــا

(ق . رقم 236)

ويذكر ابن خفاجة بعد ذلك الرعد والبرق ولا يفصل بينهما فى غالب الأحيان وقد تعددت فى ديوانه الابيات التي يشير فيها اليهما ، ولا يرى ابن خفاجة فى الرعد والبرق الا رسولين يودعهما أسراره ، منتظرا منهما أن يأتياه بأخبار الأحباء ، ويجعل منهما شخصين حتى يؤديا هذه المهمة ، فان كان للرعد ضجة قوية مزعجة

فينبغي ألا نستخلص أن نيته سيئة ، وانما تلك طبيعته وكيفيته في تقديم الأنباء ، يقول مثلا :

1 ـ من ليلة للرعد فيها صرخـة

لا تُسْتَطَابُ وللحيا إيقـاع

(ق . رقم 171)

وفي قطعة شعرية لما سمع الشاعر الرعد يرعد شاهد البرق يلمع قـال :

5 ـ رعدتْ فرجَّعت الرُّغاءَ مَطِـيَّة

لـم تدر غيـر البرق خَفْقَ زِمَام

6 ـ أو حثّ هنالك الى الرّبى أن بشِّري

بالرِّي فـرع أراكـة وبَشَـام

(ق . رقم 44)

وقد تستقبل الطبيعة بسرور وحفاوة هذا المبشر الكريم فيوفق شاعرنا الى تصوير مشاهد شيقة لطيفة فيقول مثلا :

3 ـ وقد انثنى عِطْفَ الأَراكة فانثنى

سُكرا ورجّع في الغُصونِ هَديل

4 ـ وتطلّعتْ من برقة وغمامة

في كـلِّ أفق رايـةٌ ورعيـل

(ق . رقم 196)

واذا جمع الشاعر دائما بين البرق والرعد فليبين مهمة كل واحد منهما وذلك فى استعارات أنيقة فيقول :

9 ـ قَدِ ارتجز الرّعد المُرِنّ بأفـب

10 ـ كأنّ لسان البرق فيه عشـيّة
لواء خضيب أو رداء مُـذهَّبْ
(ق . رقم 238)

وينبغي أن نلاحظ أن الشاعر لم يهتم بالرعد كما اهتم بالبرق ، لأن هذا الأخير ترك فى نفس ابن خفاجة أثرا شديدا بلمعانه الباهر فى الليلة الدجناء فانظر كيف يشير اليه :

19 ـ وغمامة نشرتْ جناح حما مة
والبرق قد نسخ الظلام نهـارا
20 ـ مُتَـأَلِّق صدع الدّجى وسقي الثرى
فـابيضّ ذا نُـورًا وذا نُـوّارا
(ق . رقم 99)

وقد يرجع الشاعر مرة أخرى الى هذا المشهد كي يرسخ فى خيالنا ، مستعينا فى ذلك بصورة قوية حين يلهب البرق سواد الليل فيقول :

3 ـ فِي ليلة ليلاء يلحس حبرها وَهْنًا لسان البارق المتـوقِّد
(ق . رقم 148)
(انظر ايضا ق . رقم 236 ، بيت 3)

وأما المطر فانه من الأغراض التي كثر تردادها فى الديوان ، ولكن لم يأت ذكره الا فى مجموعة من الظواهر وقد يكتفي الشاعر باشارات وجيزة ، فيشير تارة الى مطر خفيف نافع ، وتارة الى مطر غزير ينزل من السماء بلا انقطاع فيقول مثلا :

7 ـ وباتَ سقيط الطّل يضربُ سَرْحَةً

تَرِفُّ بواديها وينضَح أَجْرَعا

(ق . رقم 78)

وبفضل المطر تحيا الارض ، وتنتعش الطبيعة ، فتزداد جمالا وبهاء ، ويعبر ابن خفاجة عن هذا المعنى بصورة ـ أصبحت تقليدية ـ وهي تشبيه ماء المطر بالفضة ويتأتى للشاعر هذا البيت الذي سبق لنا ذكره :

23 ـ وكفتْ فَسَالَتْ فضّةً ولربّما

ضَبعتْ بكل عرارة دينارا

(ق . رقم 99)

وقد يصف كذلك الزوابع والأمطار الغزيرة فيشبهها كمن سبقه من الشعراء قائلا :

1 ـ أما ومسيلٍ سائل الغيث كالسّطرِ

يؤُمّ قَرَارا دائر المَاء كالعَشْر

(ق . رقم 240)

والماء الذي ينزل من السماء ماء له رائحة الصندل فيسقي الارض وهذا ما يتيح لابن خفاجة تشبيها فى غاية الدقة فيقول :

2 ـ وقد غمر القيعانَ ماء مُصَنْدَل

كما أترع الساقي الزّجاجة بالخمر

(ق . رقم 240)

وفى رسالة وصف لنا ابن خفاجة بأسلوب مسجع ، زوبعة شديدة فأطال الكلام عن عواقبها السيئة (أنظر ق . رقم 239) .

وأما البرد فلم يرد ذكره الا مرتين فى الديوان ، وعوض أن يتعرض الشاعر الى وصفه كما كان الأمر فى المطر دعانا الى أن نعتبر ما توصل اليه فى تفسيره . فقد رأى أن البرد آية من آيات الله تدل على غضبه ، فيقول :

1 ـ ألا نسخ الله القطار حجارة

تَصُوب علينا والغمامَ غُمُوما

2 ـ وكانتْ سماء الله لا تُمْطِرُ الحصى

ليالِي كنّا لا نطيش حلُوما

3 ـ فلما تحوَّلنا عفاريتَ شِرَّةٍ تحول شُؤْبُوب الغمام رُجوما

(ق . رقم 30)

وفى القطعة الثانية يعود الشاعر الى نفس المعنى ، الا أن المجرم الذي تريد السماء تأديبه هو الأرض لا الجنس البشري ، فيقول :

1 ـ يارُبَّ قُطْرٍ عاطل حلّي بـه

نحر الثرى بَرَدٌ تَحدَّر صائب

2 ـ حصب الأَباطح منه ماء جا مــد

غشّى البلاد به عذاب ذائـــب

3 ـ فالأَرض تضحك عن قلائـــد أنجم

نُثِرتْ بها والجوّ جَهْمٌ قاطب

4 ـ وَكَأَنَّمَا زنتِ البسيطة تحتــــه

فأكبّ يرجمها الغمام الحاصب

(ق . رقم 31)

وأما الثلج فلم يكن حظه بأوفر من حظ البرد ولا نجد الا أبياتا معدودة فى الديوان يشار فيها اليه بين صور أخرى . ويكثر الشاعر من التشابيه ليؤكد نصاعة بياض الثلج وانتشاره على الأرض بما فيها فيقول :

4 ـ نسخ الضريبُ بها الظلام حمامة

فابيض كلّ غراب ليل أسود

5 ـ شابت وراء قناعها لِمَمُ الرّبــى

واشمطّ مَفْرِق كلّ غصن أملَــد

(ق . رقم 148)

(انظر ق . رقم 201 ، بيت 2 ، 3)

ويقول أيضا يصور لنا مشهدا طريفا بديعا :

2 ــ والأَرض فضيّة الآفاق تحسبها
شمطاء حاسرة قد مسَّها الْكِبَرُ

3 ــ فكل نَجْدٍ وَوَهْدٍ قد أطلَّ به
روض تجلّى بنَوْرٍ ما له ثمر

4 ــ وَلِلْأَقَاحِي ثغور فيه باسمة
لها من الثلج ريق بارد خَصِرُ

5 ــ كَأَنَّ فيِ الجوّ أَشجارا مُنَوِّرة
هبَّ النَّسِيم عليها فهيِ تنتثر

(ق . رقم 317)

وأما الرياح فهي من الظواهر التي كثر ذكرها فى الديوان ويشير الشاعر مرارا الى رياح الصباح العليلة ، ويشخصها فيجعل منها رسلا مؤتمنين يودعهم أسراره فى اطمئنان وارتياح . ولقد سبق لنا أنه بعث مع رياح الشمال سلامه الــى حبيبته أو أحبابه ، وبقي ينتظر رياح الجنوب لتأتيه بأخبارهم .

ولما كانت الرياح فى جوهرها حركة فان ابن خفاجة أشار الى الطبيعة بما فيها والرياح تهب عليها . هل لنا أن نلاحظ أن وصفه لم يكن موضوعيا ؟ وأنه يشاهد الاشياء فيتصورها على غــير وجهها ، فيأتينا بمشاهد لطيفة شيقة هي ثمرة خياله ؟ ها هو يذكر الريح فى صورة غزلية فيقول :

17 ـ والريح تلطم فيه أرداف الرّبى

لعبا وتلثم أَوجه الأَزهـــــار

(ق . رقم 2)

ولا تتحلى الطبيعة بالأزهار المنتشرة من أغصان الأشجار الا بفضل الرياح ، فيلهم ذلك ابن خفاجة هذه الصور الجميلة ليعبر بها عن هذا المعنى ، فيقول :

4 ـ زار وريح الفجر قد قلَّصتْ

ذيل غـــمـــام باتـ مجـــرورا

5 ـ وقلَّدتْ أجيادَ تلك الرّبى درًّا من النُّـــوَّار مـــنثـــــورا

(ق . رقم 188)

وها هو يرى شجرة وقد أمالتها الرياح فيستعيض الصـــورة الواقعية بصورة أخرى شعرية خيالية ، تتمثل فى التشبيه الآتي ، فيقول :

5 ـ والريح تلوى عِطف كلّ أراكة

ليّ السرى وَهْناً لعِطف النّاعس

(ق . رقم 173)

وكل شاعر يستحسن ويستلذ النسيم الخفيف العليل ، ولـــم يتخلف ابن خفاجة عن الاولين فى ذلك فأشار اليه فى ديوانه مرات عديدة ، بأوصاف نجدها عادة فى وصف الحبيبة ، فيقول مثلا :

2 ـ فهبَّ وريح الفجر عاطرة الجنى

لطيفة مسّ البَرْد طيّبة الْمَسْرى

(ق . رقم 41)

ولا يفوت ابن خفاجة كلما أشار الى مشهد من مشاهد الطبيعة ، حيث قضى أوقات سعيدة ، أن يذكر النسيم الذي يزيدها حياة بهبوبه الخفيف اللطيف ، فيقول مثلا :

4 ـ نشرتْ بِحِجْرِ الروض فيه يَدُ الصَّبَا

درر النَّدى ودراهـــم الأَنـــوار

5 ـ وهفَتْ بغِرٍّ يد هنالك أيكــة

خفــاقة بمهبِّ ريــح عـــرار

6 ـ هزَّتْ له أَعطافها ولربّما خلعتْ عليه مُلاءَة النُّـــوَّار

(ق . رقم 230)

ومن الطبيعي أن يتشوق ابن خفاجة وهو بعيد عن وطنه الى جزيرته بما لها من جمال خالد ، فيذكر هبوب نسيمها العليل ، وما لبث أن صرخ بحبه الشديد لبلاده ، فيقول :

1 ـ ان للجنَّة بـــالأَنـــدلـــس مُجتلى حُسْن وريا نَفَـــــــس

2 ـ فسَنا صُبْحتها مِن شَنَـــب ودجى ليلتـــها من لَعَـــــس

3 ـ فإذا ما هبّت الرّيح صَبًا

صِحْتُ واشَــوْقِــي إلى الأَنـد لـس

(ق . رقم 88)

وتعرض ابن خفاجة الى وصف الليل فتعددت فى ديوانه الابيات التي يشير فيها اليه . وأول ما نلاحظه هو أن ابن خفاجة ، كغيره من الشعراء ، افتتن بالليل وهاله ما يضمه من الغرائب والعجائب ، والليل يبدو حسب ما يتصوره المتخيلون فى ظروف مختلفة ، تارة يطل بوجه هاديء يبعث الاطمئنان فى النفس ، وتارة بوجه مرعب مخيف يكاد أن تطيش له الألباب . فكيف يصور شاعرنا هذا الليل ، انه يرى الليل بعد أن أرخى سدوله ، يبعث الانسان على التفكير والتأمل ، ويثير الذكريات المسرة والمحزنة ويحتضن مجالس الأنس غاضا طرفه عما يتعاطاه الندماء من ملاه وملذات بجميع أنواعها ، من خمر وحب وشعر . وقد يعترف له ابن خفاجة بالفضل ولا سيما فى هذا الدور الأخير ، ولذلك يصف شاعرنا الليل دائما ، أو يكاد ، فى أبيات تتصل بالغزل .

فيبدأ فى أول الأمر بذكر صفته المحسوسة ، أعني ذلك الظلام الداجن الكثيف ، ويعدد الصور البلاغية ليتأتى له ذلك كاملا فيقول :

6 ـ وخضتُ ظلام الليل يَسْودُّ فحمة
ودستُ عرين اللَّيث ينظر عن جمر

7 ـ وجئتُ ديار الحيِّ والليل مطرق
مُنَمْنَم ثوب الافق بالأَنجم الزُّهر

(ق . رقم 1)

وقد يذكر الليل شاعرنا برجل متدثر من رأسه الى رجليه بشملة لونها لون القار (أنظر ق . رقم 2 ز ، بيت 31) وهذه الصورة أدت بابن خفاجة الى تحليل صورة أخرى أنيقة غير خالية من طرافة فيقــول :

8 ـ واللــيـــل ... .

9 لبس المجرّ على السَّواد فخِلتَهُ
مُترهبــا قد شَدَّ من زُنَّـــار

10 ـ ووراء أستار الدُّجى مُتَمَلْمِـل
يُلقي بيمُـــنى تارة ويسار

(ق . رقم 2)

أكان لابن خفاجة أن يلاحظ سحابا مبددا فى السماء ؟ فيسمح له خياله بهذا التشبيه الذي لا يخلو من تكلف فيقول :

4 ـ فرفلتُ فِي سَمَل الدُّجى وَكَأَنَّما
قَزَعُ السَّحاب بِجَانِبَيْه رِقَــاع

(ق . رقم 171)

وقد لاحظنا مرارا أن الشاعر يذكر الغراب كمشبه به ، وهذا أمر طبيعي لأن الغراب عادة يشبه به لسواده القاتم ، فنجد فى البيت الآتي صورتين قويتين تشتركان فى التعبير عن شدة سواد الليل . فيقول :

5 ــ وليلٍ كما مدَّ الغرابُ جناحــه

وسال على وجه السِّجلِّ مــــداد

(ق . رقم 82)

ولكن الغراب من الطيور التي يتشاءم بها وابن خفاجة حين يعبر به عن الليلة التعسة المحزنة يجمع بدقة بين الرمزين المنسوبين عادة الى هذا الطائر 16 . فيقول مخاطبا ابن مفوز :

4 ــ ووُقِيتُ فيك من الليالي إِنَّهَا

غربانُ بَيْنٍ بــالتفــرُّق تنعــق

(ق . رقم 159)

ويقول أيضـــا :

11 ــ من ليلة أرخى عليَّ جنا حــه

فيها غرابُ دجنَّة لم يُــزْجَــرِ

(ق . رقم 6)

وكان لامتداد الليل الى ما لا نهاية أثر شديد فى نفس شاعرنا وهذا ما أدى به الى ذكر البحار الواسعة بأمواجها المتلاطمة فقال :

52 ــ أَرقبُ أَغوص على درُّه وقد ماج بحر الدُّجى والتَطَمْ

(ق . رقم 5)

والليل فى نظر ابن خفاجة ــ كما لاحظنا عليه ــ هو ذلــك الحجاب الكثيف الذي يستر الاسرار كما هو حبيب العشاق والشعراء الرعاع والخلعاء ، ينتظره كل منهم مع اختلاف أهدافهم

بفارغ الصبر . يقول ابن خفاجة مشيرا الى العاشق الذي لا يتمتع برضى الحبيبة الا ليلا :

23 ـ وقد خلعتْ ليلا علينا يدُ الهوى

رداء عناق مزقتْه يـــدُ الفجــر

(ق . رقم 1)

ثم يذكر الشاعر لياليه وكان يقضيها فى رفقة الحبيبة ، انه لا يذكر الليل الا وذكرها معه ، حتى أنه لا يميز بينهما ، فينسب لليل نفس الصفات التي ينسبها للحبيبة فيقول :

46 ـ ويا ربّ ليل جَنِيِّ المنى

شهيّ اللَّمــى مُستَطاب اللَّمَـم

47 ـ لهوتُ ودون التماح الصَّباح

ظـلام سجا وغمـــام سجَــم

48 ـ نُمِدُّ الشراب ببَرْد الرضــا ب

وجُنحَ الظَّـلام بســود اللّمَـمْ

49 ـ وقد كتم الليل سرّ الهوى

ونمّت بمـا استَوْدعتْه النَّيَـمْ

(ق . رقم 5)

وكان ابن خفاجة يوجه نظره أحيانا الى السماء فى الليــل ، فيستسلم للتفكير والتأمل ، ونجد فى ديوانه شواهد كافية ، من

اشارات الى الكواكب والنجوم اللامعة القارة منها والآفلة المنتظمة حول القمر الساري ، فيقول مثلا :

21 – تَرنَّحَ فى مَوْشِيَّةٍ ذهبيَّة
كما اشتبكت زُهْرُ النجوم على البدر
(ق . رقم 1)

وأما الثريا فالشاعر يلفت نظرنا الى لمعانها الشديد فى صورة أنيقة حيث يقول :

53 – وقد وقف الليل لا يهتدى
فتخطو بِهِ للثُّرَيَّا قَدَمْ
(ق . رقم 5)

وقد يذكر ابن خفاجة الشعرى فيطابق بين ضيائها وظلام الليل فيتأتي له التشبيه الآتى :

1 – ومَفَازَةٍ .. ..
2 – تتلهّب الشِّعْرَى بها وكَأَنَّهَا
فى كفّ زنجيّ الدجى دينار
(ق . رقم 47)

ثم يذكر شاعرنا فى قطعة أخرى النجوم الآفلة التي تمزق السماء المظلمة فيقول :

3 – وشقَّ الدُّجى نَقْطٌ من النّجم مُرْسَل
ترامى من الليل البهيم به فجر
(ق . رقم 107)

وعندما أراد أن يعبر عن قرار القطب أتانا بهذه الصورة قائلا :

4 ـ والْقُطْبُ ملتزم لمركزه بها
فَكَأَنَّهُ فِي ساحةٍ مسمار
(ق . رقم 47)

وقد عثرنا على الهلال كمشبه به فى القصائد المدحية والغزلية ، أما الاشارة اليه بصفة مستقلة فانها لا تتكرر الا مرتين فى الديوان ، وليعبر الشاعر عن بهائه الذي يزيد مجالس الأنس الليلية رونقا جاءنا بتشابيه مختلفة فى جملة منها ، فيقول :

9 ـ واهتزَّ عطف الغصن من طرَبٍ بنا
وافترّ عن ثغر الهلال المغرب

10 ـ فكأنه والغيم ثوب أدكنٌ
طوقٌ على برد الغمامة مُذهب
(ق . رقم 229)

ومن جهة أخرى يذكر الهلال فى صورة حربية حيث يقول الشاعر :

3 ـ سقانا وقد لاح الهلال عشيَّة
كما اعوجَّ فِي درع الكمِي سنان
(ق . رقم 177)

ويجدر بنا الآن أن نخص بالذكر البدر فى تمامه ، فهو من الكواكب التي وقف أمامها شاعرنا باهتا ، فذكره مرة واحدة فى

الديوان فى قطعة شعرية عدد أبياتها تسعة ، ومع ذلك ينبغي أن ننعم النظر فيها لأهميتها ، وقد نبه الناسخ الى قيمة هذه القطعة فى مقدمة لها صدرها بقوله : فقال (ابن خفاجة) وقد طلع عليه القمر فى بعض ليالي أسفاره فجعل يطرق فى معنى كسوفه وأقماره وعلة اهلاله تارة وسراره ولزومه لمركزه مع انتقاله فى مداره معتبرا بحسب قوة فهمه واستطاعته ومعتقدا أن ذلك معدود فى عبادة الله وطاعته لقوله تعالى :

« ان فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب 152 » فقال وقد أقام معاينة تلك النصبة واستشراف تلك الحالة والهيئة مقام المناجاة لمن خـلا بنفسه يفكر ونظر نظر الموفق يعتبر :

1 ـ لقد أَصَخْتُ إلى نجواك من قمر
وبت أدلج بين الوَعْيَ والنَّظر

2 ـ لا أجتلي لـمَحًا حتى أعي مُلَحًا
عدلاً من الحكم بين السمع والبصر

3 ـ وقد ملأْتَ سواد العين من وَضَحٍ
فقرَّطَ السمع قُرْطَ الأُنس من سمر

4 ـ فلو جمعتَ إلى حُسْنٍ محاورة
حُزتَ الجمالين من خُبْرٍ ومن خَبَر

5 ـ وان صمتَّ ففي مَرْآك لي عِظة
فقد أفصحتْ لي عنها ألسن العِبر

6 – تمرّ من ناقص حَوْراً ومكتمِـلٍ

كَوْرا ومن مُرتَقٍ طورا وَمُنحدِرِ

7 – والنَّاس من مُعرِضٍ يلهى ومُلتفِتٍ

يرعى ومن ذَاهِلٍ ينسى وَمُدَّكَر

8 – تلهو بساحات أَقوام تُحد ثنـا

وقد مضوا فقضوْا أَنَّا على الأَثـر

9 – فأن بكيْتُ وقد يبكي الجليد فعن

شجو يفجِّر عين الماء في لحـجر

(ك . رقم 80)

فابن خفاجة كما يتجلى لنا بوضوح لم يتعرض البتة لوصف البدر : وانما كان غرضه مخاطبة هذا الكوكب الصامت الأبكم ، فاستطاع أن يعرض علينا مرة أخرى أفكاره المعروفة ، وما وصل اليه بعد التأمل العميق : فيقابل بين البدر الساري وعمر الانسان ، فالأول يتمتع بالدوام والبقاء ، والثاني مصيره لا محالة الخراب والفناء ، ثم لا يفوته أن يشير الى غفلة الانسان وعدم مبالاته بالأمور فينتهي الى نظم أبيات شعرية فى الزهد .

مرارا فى الديوان ، وهذا ما يدل على اهتمام شاعرنا بها ، ولم يفت ابن خفاجة أ يشير الى ذلك المنظر الرائع الخلاب حين يلوح الفجر يعلن اشراق الشمس التي ستقهـر الظلام فتقضي عليه فيقول مثلا :

3 ـ والصبح قد صدع الظلام كَأَنَّهُ

وجه وضيء شفَّ عنه قناع

(ق . رقم 171)

ورؤية النهار بضيائه الذي يتقدم بتأن وثبات قاضيا على الليل بظلامه الداجن ، تذكر ابن خفاجة بالفتح ، فيسمح له خياله بصور حربية قوية اذ يقول :

10 ـ وكأنّ ضوءَ الصّبح راية ظافر

نفضتْ بها الهَيْجَاءُ نضحا من دم

(ق . رقم 185)

ويقول أيضا :

6 ـ والصّبحُ قد مزّق عن نحره

جيب ظلام كان مزرورا

(ق . رقم 188)

وأما فى البيت الآتي فلا نجد ذلك الاصطدام والصراع بين الليل والنهار الا أننا نشعر بما فى الصبح من عدوان وما له من شوكة حين يشبهه بالاسلحة الماضية ، يقول :

12 ـ أجوبُ جيوب البِيد والصّبح صارم

له الليل غِمْدٌ والمجرّ نِجاد

(ق . رقم 82)

وقد يذهب بالشاعر خياله الى استبدال هذه الرؤية العدوانية برؤية هادئة ساكنة كما يتجلى ذلك فى قوله :

24 ـ ولما انْجَلى ضوء الصّباح كأنّه

مشيبٌ بغود الليل طالع من خَطْرِ

25 ـ وحُطَّ رداءُ الغيم عن منكِب الصَّبا

ونَمَّ على ذيل الدجى نفَسُ الزَّهر

26 ـ صددتُ ودون النَّجم سترُ غمامة

يشفّ كما شفّ الرّماد عن الجمر

(ق . رقم 1)

ويشاهد الشاعر فى اعجاب هذه المعجزة التي تتكرر يوميا فتعود بفضلها الأشياء الى أشكالها وألوانها وبهائها ، فلا غرابة اذن أن يشير ابن خفاجة الى الصباح بألفاظ وعبارات غزلية فيقول مثلا :

5 ـ لقد ضحك الصباح بمُجْتَلاه

وراء الليل عن ثغر شنيب

(ق . رقم 50)

ويقول اذا لاح له نور الصباح الناشىء :

5 ـ وافترّ مبْتَسَم الصّباح كأنه

وضَحٌ بقادمة الغراب الأَعْصَمِ

(ق . رقم 232)

ويصطبغ الأفق بألوان زاهرة تتضاعف بقدر ما يتقدم الصباح بضيائه ، فيصور لنا الشاعر ذلك بقوله :

7 ـ والصّبح محطوطُ القنــاع قد احتبى

فيِ شملــة وَرْسِيَّــةٍ وتــأزّرا

(ق . رقم 237)

وبعد أن قابل ابن خفاجة بين الفجر والليل وهما فى صراع يتكرر فى كل يوم الى الأبد ذهب الى مقارنتها فصرح لنا أيهما يفضل قائلا :

10 ـ والفجر ينظر من وراء غــمامة

عن مقلة كُحِلَتْ بها زرقــاء

11 ـ فرغبت عن نَوّرِ الصّباح لِزَوْرَةٍ

أغــرى اها بِبَنَفْسَــجِ الظلــماء

(ق . رقم 113)

ولكن سرعان ما يتدارك فيقــول :

2 ـ والصبح أبهى فيِ العيون من الدّجى

وأعــمّ إشراقــا وأبهج منظرا

(ق . رقم 330)

ويجدر بنا أن نخص بالذكر منظرا من مناظر الطبيعة تأثر به شاعرنــا تأثرا شديدا ألا وهو منظر غــروب الشمس ، فحين طوى هذا الكوكب مسافته النهارية فبلغ منتهــاه وقد أصابــه الكلل والفشل . شبهه ابن خفاجة بالمريض حيث يقول :

4 ـ وقد نظرتْ شمسُ الأَصيل الى الرّبى

بأضعف من طَرْف المريض وأفتر

(ق . رقم 327)

ويقول أيضا :

3 ـ والشَّمْسُ تجنَح للغروب مريضـة

والرعد يرقى والغمامة تَنْفُثُ

(ق . رقم 225)

ومشاهدة الشمس وهي تختفي شيئا فشيئا لا تحزن شاعرنا ، لعلمه أن هذا الانهزام ليس نهائيا وان الشمس ستشرق بضيائها ومجدها وجلالها ، بل تثير فى نفسه اعجابا شديدا فيتمتع البصر بألوانها المختلفة النيرة ، ألوان تنعكس على الطبيعة فتزيدهـا ورونقا وجمالا ، فكان لنا من خيال الشاعر هذا البيت :

6 ـ والرّيح تعبث بالغصون و قد جرى

ذهب الأَصيل على لُجَين الماء

(ق . رقم 290)

ويأتينا ابن خفاجة فى قطعة شعرية بأبيات متوالية يؤكد فيها على تلك الألوان فيقول :

4 ـ وقد نظرتْ شمس الأَصيل الى الرّبى ...

5 ـ ولاح على بِلَّوْرة من غديره

شعـاع شراب للعشية أَصفر

6 ـ وصفرة مِسواك الأَصيل تروقنى

على لَعَسٍ من مَسْقَط الشَّمس أسمر

7 ـ إلى أَن توارتْ بِالحِجاب مريضة

تَلفَّعُ في ثوب من الليل أخضر

8 ـ وغازلني جفن من الأَفق أَنجل

يدير من الظلماء مقلة أحور

(ق . رقم 327)

وقد يذهب به خياله حتى ينسب للشمس قدرة الكهان فى تغييرهم الأشياء فيقول :

6 ـ فالرَّوض .. ..

7 ـ ريّان فضَّضه النَّدَى ثم انجلى

عنه فذهَّب صفحتيه أَصيل

(ق . رقم 196)

أما البحر فمن الأغراض التي لم تستوقف ابن خفاجة مدة طويلة والأبيات التي يشير فيها اليه معدودة فى ديوانه ، ويبدو لنا أن الشاعر لم يستأنس بالبحار وأمواجها المتلاطمة على الدوام ، لاعتياده على ما سمحت به طبيعة جزيرته ، من مناظر يانعة هادئة ممتعة . ونجد فى الديوان قطعة شعرية يشير فيها الى نفسه وقد أبحر يوما فخالجه الرعب ، فتوقع أخطارا هالكة ، وربما كان مبالغا فى ذلك ، فتوجه بدعائه الى الله قائلا :

1 ـ لئن كنَّا ركبنا ها ضلالا فيا لِلَّهِ إنَّا تائبونا

2 ـ فأَخرجْنَا على المرغوب منها

فان عدنا فإنَّا ظالمونا

(ق . رقم 272)

وكثيرا ما يسوء ظنه بالبحر ان أمكن هذا التعبير ، وقد يرد بعنف على من يؤيد عكس ذلك قائلا :

1 ـ يا مادحَ البحر وهو يجهله

مهلا فإنِّي خَبَرتُهُ علما

2 ـ فَائِدُهُ مثل قعره بُعدا ورزقه مثل ما به طعما

(ق . رقم 271)

ويصف لنا ابن خفاجة فى قطعة شعرية ركوبه البحر وهو خائف ، ولكن قد يفارقه خوفه أحيانا ، فيطمئن وينظر الى صفحة البحر المتموجة ، فتلهمه صورا شعرية متوالية حية فيقول:

9 ـ وجاريةٍ ركبتُ بها ظلاما يطير من الصباح بها جناح

10 ـ إذا الماء اطْمَأَنَّ فرقَ خصرا

علا من موجه رِدْفٌ رَدَاح

11 ـ وقد فغر الحِمام هناك فاه

وأتلع جيده الأَجلُ المتاح

12 ـ فما أدرى أَمَوْجٌ أم قلوب

وأَنفاس تصعد أم رياح

(ق . رقم 91)

وأشرف ابن خفاجة على البحر من أعلى ، فمتع نظره برؤية الامواج المصطخبة اثر زوبعة عنيفة ، وسمح له هذا المشهد الهائل بصور بديعة لا تخلو من طرافة :

1 ـ ولجّة تَفْرَقُ أَوْ تعشق فماتني أحشاؤها تخفق
2 ـ شارفتها وهي بدا هاجها من الصَّبا مزبدةٌ تقلق
3 ـ فخِلتني في شطّها فارسا قُرِّب منه فرس أبلق

(ق . رقم 90)

أما المناظر الطبيعية الأرضية فطالما استرعت نظر شاعرنا فأكثر القول فيها ، وذلك لحبه الطبيعة حبا شديدا كما لا حظنا عليه سابقا ، واعجابه بهذه الطبيعة ، ويسوغ لنا أن نقول افتتانه بها ، هو الدافع له على رسم مشاهد مختلفة حيث يعرض علينا طبيعة مسقط رأسه المتنوعة .

فبلاد الأندلس لمن عرفها تشبه واحة مترامية الأطراف بظلالها وهوائها المعتدل ، يكثر فيها تغريد الطيور فى جو ملؤه روائح الأزهار الطيبة ، وبلاد الأندلس لدى شاعرنا هي الجنة لا غير ، يجرؤ على القول بهذا ، كما فى الأبيات الآتية :

1 ـ يا أَهلَ أندلسٍ لِلّهِ درّكمُ ماء وظلّ وأنهار وأشجار
2 ـ ما جنَّةُ الْخُلْدِ إلاّ في دياركمُ
وهذه كنتُ لو خُيِّرْتُ أختار

3 ـ لا تتَّقوا بعدها أَنْ تدخلوا سَقَرَا

فليس تُدخَل بعد الجنة النَّــار

(ق . رقم 301)

ويذكر ابن خفاجة فى قطعة شعرية أخرى بلاده ذكر الحبيب لحبيبته ، فتأتى له الصور الغزلية الآتية اذ يقول :

1 ـ ان للجنَّــة بــالأَنـدلــس مُجتلى حُسْنٍ وريَّـــا نَفَــس

2 ـ فسنا صبحتِــها من شنب ودجى ليلتــها مـــن لَعَـس

3 ـ فإِذا ما هبَّت الرّيح صَبًا صِحت وَاشْوَقِي إِلى الأَندلس

(ق . رقم 88)

وقد أشار شاعرنا مرارا الى نهر شقر بضفتيه المزهرتين وقد جذبتاه طويلا وكثيرا ليتجول بهما ويقضي ساعات متمتعا برونقهما تاركا لخياله العنان فى وصفها ، فنسب لهما أوصاف المرأة ذات الجمال الفتان فقال :

1 ـ لِلَّه نهرٌ سال في بطحاء أَشهى ورُودا من لَمَى الحسناء

2 ـ متعطِّف مثل السِّوار كَــأَنَّــه

والـزَّهر يكنُفُــه مَجَــرُّ سمـاء

3 ـ قد رقَّ حتى ظُنَّ قوسا مُفْرَغًا من فضة في بُرده خـضراء

4 ـ وغدتْ تحُفُّ به الغصون كَأَنَّهَا

هُدْبٌ تحُفُّ بمقلـة زرقـاء

(ق . رقم 290)

ولكن هذا النهر فى تدفقــه الهاديء قد يصير عنيفا خطــيرا عقب الزوابع ، ويلاحظ المستشرق بيريس أن : من المحتمــل أن نهر شقر بنفسه فى عهد الأمطار الغزيرة قد يبعث الخوف فى قلوب سكان ضفتيه ولا سيما فى الجزيرة . ومن ثم يصف لنا ابن خفاجة فى قطعة شعرية عواقب عنف هذا النهر فى سنة 480 هجرية كما أثبته ناسخ الديوان فقــال :

1 ـ أَلاَ إِطمّ بحر أَتِيٍّ طمــا وجدّ انكِفَمــاءُ سماءٍ تجــودْ

2 ـ فأهوتْ تخِر هناك البِنــيِ كمــا تتلقّى الملوك الوفودْ

3 ـ ومالت كَأَنَّ عليها صلاة فبعض ركوعٌ وبعض سجــود

(ق . رقم 241)

ثم يتعرض لوصف سيل مندفع دون أن يشير الى مكانه ، ويظهر أن ما استلفت نظره هي حركة الماء السائل وبياض زبده، فيكتفي ابن خفاجة للتعبير عن هذه الرؤية بصور سبقه اليهــا الشعراء القدماء فيقول :

6 ـ فَقُلْ فيِ أَتِيٍّ قَدْ تهادى كَأَنَّهُ

إذا ما ثنى أَعطافه حيَّةٌ تســعى

7 ـ وماء مسيل سائل لِتَمــرارة

فبينما ترى منه حُساما ترى دِرعا

(ق . رقم 48)

وقد أتيح للشاعر أن يقطع بلاده وهو راكب فرسا فمرت على

بصره مناظر متنوعة من أودية وسهول ورواب وجبال ، فمهل فرسه كي يتمتع بهذه الروائع فتأتت له هذه الأبيات :

6 ـ جاذبتهُ فضْلَ العنان وقد طغى
فانصاع ينساب إنسياب الأَرقم

7 ـ في خصْر غَوْرٍ بالأَراك مُوَشَّح
أَو رأس طوْدٍ بالغمام مُعمَّم

8 ـ أَوْ نَحْرِ نَهْرٍ بالحَبَاب مُقلَّد
أَو وجهِ خَرْق بالضَّريب مُلثَّم

(ق . رقم 185)

ونجد للشاعر أبيات معدودة ذكر فيها الأودية والبطاح ، فلفت نظرنا الى اخضرارها والى ظلالها المتلاعبة ، مع ما يتسرب خلالها من ضياء ، واستخدام كعاداته صورا غزلية فيقول :

1 ـ سَقْيًا لَهَا من بطاح أنْس   ودَوْح حُسْنٍ بها مُطِلّ
2 ـ فما ترى غير وجه شمس   أطلَّ فيه عِذار ظِلِّ

(ق . رقم 94)

ويقول أيضا :

1 ـ وقد غَشِيَ النَّبْتُ بطحاءَه   كبدو العذار بخد أَسِيل

(ق . رقم 329)

فاذا نزل عليها الطل ازدادت يناعة ورونقا فيقول :

3 ـ فدنّر الزّهر مُتون الربى   ودرْهَمَ القطر بطون البطَاح
(ق . رقم 126)

واستوقفت الروابي شاعرنا فأشار اليها فى جملة من الصور حين توجها الغمام أو بعد أن نزل عليها المطر فاخضرت المزارع وازدهرت الطبيعة بأسرها فقال :

4 ـ فذهَّب ليل السرى عارض
يُفَضِّض بالماء ما ذهّبا
5 ـ فأعشب ما جاد من تَلعة   وطرّز بالنَّوْرِ ما أعشبا
6 ـ فردّى مناكبَ تلك الغصون
وأزّر أردافَ تلك الرُّبى
(ق . رقم 236)

وأما الجبال فمن الأغراض التي لم يأت ذكرها الا مرتين فى الديوان (ق.رقم 107 و 164) وبصفة عامة فان الجبل ـ مثل البحر ـ لم يلهم شعراء الأندلس ـ كما لاحظه المستشرق بيريس ـ الا بصور مخيفة مروعة ... فذكرهم للجبال لا يكون الا عن بعد ، فاذا وفقوا الى بعض التشابيه يعبرون بها عن ضخامتها وثباتها على الارض ، يكونون قد استفدوا كل ما تسمح لهم به من صور شعرية . (أنظر بيريس : الشعر الأندلسي ص 159) الا أنه ينبغي أن نلاحظ أن شاعرنا ، وان كان يشارك

المسافرين المتعودين على السير فى السهول اضطرابهم أمام الجبال الشاهقة ، لم يبق جامدا عند رؤية هذا المشهد بجماله الوحشي .

ومن حسن الحظ احتفظ لنا التاريخ بقصيدتين تدل على طرافة ما ألهم به شاعرنا ويجدر بنا أن نعتني بهمـا اعتناء خاصا . في القطعة الاولى يتعرض ابن خفاجة الى وصف الجبل فى خمسة أبيات من ثمانية ، فيذكر هيئته العظيمة الغريبة وصمته المستمر الهائـل .

وأما القطعة الثانية فهي أكثر أهميـة من الأولـى ، وخص شاعرنا فيها الجبل بتسعة عشر بيتا من ثمانية وعشرين ، ومن المفيد أن نأتي بها :

10 ـ وأَرْعَنَ طَمّاح الذُّؤابَة باذخ
يُطاول أعنان السَّمَـاء بغـارب

11 ـ يسدُّ مهبَّ الرِّيح عن كلِّ وِجْهَة
ويزحَم ليلا شُهبَه بالمناكب

12 ـ وقورٍ على ظهر الفلاة كأنَّه
طِوال الليالي مُطْرِقٌ في العواقب

(ه) ـ فَتِيٍ على طول الزمان وربَّما
جلا لَك عن فَرْعٍ منَ الثَّلج شائب

13 ـ يلوث عليه الغيم سُودَ عمائمٍ
لـها من وميض البرق حُمْر ذوائب

14 ـ أصخْتُ اليه وهو أخرس صامت

فحدّثني ليل السّرى بالعجائب

15 ـ وقَالَ ألا كم كنت مَلْجَأً فاتك

وموطن أَوّاهٍ تبتّل تائب

16 ـ وكم مرّ بي من مُدْلِجٍ ومؤَوِّبٍ

وقالَ بظلّيٍ من مَطيٍّ وراكب

17 ـ ولا طم من نُكْبِ الرِّياح معاطفي

وزاحم من خُضر البحار جوانبي

(ه) ـ وكم سفرت لي من شموس وأَقْمُرٍ

وباتت تراني من عيون كواكب

18 ـ فما كان الا أَن طوتْهم يد الرَّدَى

وطارتْ بهم ريح النّوى والنّوائب

19 ـ فما خَفْقُ أَيْكِي غير رجفة أَضلعُ

ولا نَوْح وُرْقِي غير صرخة نادب

20 ـ وما غيّض السلوان دمعي وإنَّمَا

نزفتُ دموعي في فراق الأَصاحب

21 ـ فحتى متى أبقى ويظعَن صاحب

أُوَدِّع منه راحلا غير آيِب

22 ـ وحتّى متى أَرعى الكواكب ساهرا

فمن طالع أُخْرَى اللَّيالي وغارب

23 ـ فرُحماك يا مولاى دعوةَ ضارع

يمدّ إلى نُعمـاك راحـة راغب

24 ـ فـأسمعني من وعظه كلَّ عِبرة

يتُرجمـها عنه لسانُ التَّجـارب

25 ـ فسلّى بما أبكى وسرّى بما شجـا

وكان على ليل السُّرى خيرَ صـاحب

26 ـ وقلتُ وقد نَكَّبْتُ عنه لِطِيَّـة

سلامٌ فإنَّـا من مُقـيم وذاهب

(ى . رقم 164)

وكما يمكن !ن نلاحظه فان الجبل هنا شخصية حية ، تخاطب شاعرنا بالعجائب والغرائب وهذا ما يكسب القطعة روحا ملحميا، مع ما فى الهام الشاعر من عظمة ، ومن الجلي أن ابن خفاجة يأخذ مكان الجبل ، بل ويمتزج به ، فينسب اليه أحواله وعواطفـه وتبر ما ته . واستطاع الشاعر بفضل هذه الرؤيـة الخيالية أن يبوح بها فى ضميره فى نغمات أليمة موجعة مما يضاعف من قيمة هذه القصيدة وينبغي من جهة أخرى أن نلفت النظر الى البيت الذي يشير فيه الى التائب العائد الى ربه ، والذي علق عليـه المستشرق بيريس بقوله : لا يزال هذا البيت غريبا لأنه يشهد

بوجود متبتلين وزهاد فى أواخر القرن الحادي عشر وفى أوائل القرن الثاني عشر بلغتهم أفكار المتنسكين المستوردة منذ قليل ، فألهمتهم الاعراض عن الدنيا وتذوق الحياة الرهبانية ، (أنظر الشعر الأندلسي لبيريس ص . 160) .

وقد تفرغ ابن خفاجة بمواهبه كلها لوصف الحدائق فأجـاد وتفنن واستحق تلقيبه بالجنان ، هل نحن فى حاجة الى التنبيه بأن هذا النوع المسمى عادة ــ بالروضيات ــ كان منتشرا رائجا فى الشرق اثر القرن الثالث والرابع الهجري ، ولا سيما تحت راية الصنوبري ؟ ان طرافة شاعرنا كما لا حظنا عليه سابقـا ليست فى المعنى وانما هي فى المبنى .

ليس لنا من هذه الحدائق اليانعة المفروشة بالزهور ، الممتازة بالظلال والطراوة أي وصف مفصل ، وانما اشارات خفيفة تترك المجال للخيال أن يتمم تصوير هذه المشاهد الشيقة .

ولا يفوت الشاعر أن يشير غالبا فيما يصوره لنا الى الندى والى النسيم العليل والى تغريد الطيور .

وتتسم مشاهد ابن خفاجة ، بفضل هذا كله ، بالمرح والانشراح ويحق لنا أن نلاحظ ذلك فى الابيات التالية ، حيث يصبح البستان شخصا يتحلى بالصفات المنشودة عند الفتـاة اللطيفة الجميلة فيقول مثلا :

2 ــ ومهَب نفحةِ روْضة مطلولة   فيِ جَلْهَتَيْهَا للنسيم مجال

3 ـ عازلته والأقحوانةُ مبسم والآس صدغ والبنفسج خال
(ق . رقم 70)

والازهار الكثيرة التي تتحلى بها جزيرة شاعرنا تمتع نظره حتى أصبحت تذكره بجنة الخلد ، واذا أراد ابن خفاجة أن يشير الى الأراضي المكسوة خضرة والمتلونة ، عمد الى صور رائعة لنذكر منها على سبيل المثال الأبيات الآتية :

5 ـ في روضة جنح الدجى ظِلاًّ بها
وتجسّمت نَوْرًا بها الأنوار
6 ـ غنَّاءَ ينشر وَشْيَه البَزَّازُ لي
فيها ويفتُق مِسكَه العطّار
7 ـ نامِ الغبار بها وقد نضح النَّدى
وجه الثَّرى واستيقظ النُّوَّارُ
(ق . رقم 221 م ص 351)

وقد تعددت فى الديوان الأبيات التي يشير فيها ابن خفاجة الى الطل لأن البساتين تزداد بفضل قطراته رونقا وبهاء ، ونعثر فى الأبيات الآتية على صورة تقليدية حيث يشبه الماء بالفضة ، ما ان يعقبها الاصيل حتى تستحيل ذهبا فيقول :

6 ـ فالرَّوض مهتز المعاطف نِعمةً
نشوانُ تعطفه الصَّبا فيميل

7 ـ ريَّانُ فضَّضه النَّدى ثم انجلى

عنه فذهَّب صفحتيه أَصيل

(ق . رقم 196)

ويأتي بتشبيه آخر ، وهي صورة معروفة ، حيث يشبه قطرات الندى بالجمان فيقول :

6 وَضَمَّخَ رَدْعُ الشَّمس نَحْرَ حد يقة

عليه من الطَّلِّ السَّقِيط جُمَان

7 ـ ونمَّتْ بأَسرار الرِّياض خَمِيلَةٌ

لها النَّوْرُ ثَغْرٌ والنَّسِيم لسان

(ق . رقم 177)

والأبيات التي من هذا النوع كثيرة فى الديوان (فلنرجع مثلا الى أرقام القصائد 78 ، 267) .

وأما الأشجار بأغصانها وورقها وأنوارها وثمارها فقد استوقفت شاعرنا مرات عديدة . ويلاحظ المستشرق بيراس فى هذا الشأن قائلا : ان ما يلفت نظر الشاعر هو الورق الأخضر المرتفع فى الهواء ، الذي يبعث الظلال على الأرض ، فليست الأزهار لديه الا من الكماليات ، فهو شاعر مهتم بالمشاهد الطبيعية ، يرى قبل كل شيء الشجرة ، دون أن يميز نوعا من الأنواع بصفة دقيقة 153 .

ونجد فى البيت الآتي شاهدا حسنا تأييدا لما سبق من الكلام :

18 ــ وَمَنَابِرُ الأَشجار قد قامتْ بــها
خُطباءُ مُفْصِحةٌ مـــن الأطيـار
(ق . رقم 2)

فابن خفاجة لا يميز فعلا بين أنواع الأشجار المختلفة ، ولو أنه يسمى البعض منها كما سنرى . وينبغي أن نلاحظ قبل كل شيء أن شاعرنا امتثالا للتقاليد الكلاسيكية يشير الى أشجار تنبت فى جزيرة العرب لا فى الأندلس ، فيذكر مثلا السرح وهو شجر يطول ولا شوك فيه ، والأيك وهو شجر ملتف ملتوي الأغصان والأراك وهو شجر ذو شوك خوار العود تتخذ منه المساويك .

فالسرح قد ورد ذكره فى الديوان أكثر من مرة (أنظر القصائد أرقام 138 ، 178 ، 191) . وفى قطعة شعرية نجد مــن بين ذكريات الشاعر هذا الشجر حيث قضى ابن خفاجة تحت ظلــه أوقاتا سعيدة هانئة ، فيقول :

1 ــ سقيا ليوم قد أَنَخْتُ بِسَرْحَـــةٍ
ريًّا تلاعبــها الرِّيــاح فتلعب

2 ــ سَكْرى يُغَنِّيــها الحَمام فتنثني
طربا ويسقيها الغمام فتشـــرب

3 ــ نلهو فتُرْفَع للشبيبة رايةٌ فيه ويُسْرَجُ للتَّصــابي مركب
(ق . رقم 229)

وفى قطعة أخرى يتعرض الى ذكر السرح وقد أشرف على نهر فجاءنا بأبيات كثرت فيها الصور البيانية فدلت على أسلوب معقد فيه تكلف وتصنع (ق . رقم 138) .

وأما الأراك فهو من الأشجار التي ورد ذكرها مرارا فى الديوان (أنظر رقم 196 بيت 2 ، 3 ، 185 بيت : 7 ، 225 بيت 2) .

وقد يجتمع الشرب على حافة نهر تحت ظلال أراكة ممتعة . وينسب ابن خفاجة فى الأبيات المقتبسة من مجموعة الى هذه الشجرة أوصافا نجدها فى الشعر الغزلي فيقول :

1 ـ وأراكة ضربتْ سماءً فوقنا
تندى وأفلاكُ الكؤوس تُدَارُ

2 ـ حفَّتْ بدوحتها مجرَّةُ جدول
نشرتْ عليه نجومَهَا الأَزهار

3 ـ فَكَأَنَّهَا وَكَأَنَّ جدول مائها
حسناء شُدَّ بخصرها زُنّار

(ق رقم 221 م) ص 351

وقد تتأثر الشجرة بسماع الطيور المغردة وبروعة جمال الصبح فتطرب ويتجلى لنا طربها فى حركاتها .

8 ـ وأراكة سجع الهَديل بفرعها
والصبح يُسْفِرُ عن جبين نهار

9 ـ هَزَّتْ له أَعطافها ولرُبَّما خلعت عليه مُلاءَةَ النــــوَّار
(رقم 230 م ص 336)

وأما الأيك فقد ورد ذكره أكثر من مرة فى الديوان ، يشير اليه الشاعر والى ما يتمتع به من ظلال طرية . ونأتي على سبيل المثال بهذين البيتين :

5 ـ وهفَتْ بغرِّيدٍ هنالك أيكة
خفَّـاقــة بمهبّ ريح عَــــرار
6 ـ هزَّت له أَعطافها ولربّما خلعت عليه ملاءة النـــوَّار
(رقم 230)

ونعثر على شجرة النارنج ثلاث مرات فى الديوان تارة مزهرة وتارة مثمرة في مقطعات ذات بيتين أو خمسة أبيات أو تسعــة أبيات (رقم 19 ، 20 ، و 21) .

ويضع الشاعر هذه الشجرة كعــادته وسط منظر من مناظر الطبيعة ، يقدمها فى ألفاظ وصور من شعر الغزل . والقطعــة الآتية جاءت ظاهرة التكلف والتصنع حتى ليلتبس المعنى علــى القارىء فى بعض الاحيان ، ولو لم يصرح ناسخ الديوان بأن الشاعر يعني فى هذه الابيات شجرة النارنج لما اهتدينا الى ذلك فيقول مثلا :

4 ـ وحاملةٍ من بنات القنى أماليدَ تحمل خُضْرَ العَــذْبْ
5 ـ تنوب مُورَّقَةً عن عِــذار وتضحك زاهرةً عن شَنَــبْ

6 ـ وتندى بها في مَهَبِّ الصَّبا

زَبَرْجَدَةٌ أَثمرتْ بالذَّهب

7 ـ تفاوح أنفاسها تارة وطورا تغازلها من كَثَب

8 ـ فتبسم في حالة عن رضًى

وتنظر آونةً عن غَضَب

(رقم 19)

وقد ورد ذكر أنواع أخرى من الشجر فى الديوان ولكن فى سياق آخر (أنظر الفهرسة ص 403) . فنجد مثلا البان كمشبه به للتعبير عن استقامة القامة (رقم 75) . و فى موضع آخر ينادي الشاعر هذه الشجرة ليودعها عواطفه (رقم 233 ، بيت 8) . وكذلك الأمر فى شأن الدفلى (رقم 109) .

وأما الأزهار فقد جاء ذكرها فى أبيات كثيرة ، وهذا مما لا سبيل الى التعجب منه ، لأن ابن خفاجة كان يعد الأزهار من حلية الطبيعة ، فاستطاع أن يأتي بصور متنوعة شيقة كما تشهد به هذه الأبيات :

1 ـ أَلا ربّ يوم حثَّتِ الكأسُ خطوَهُ

فطار وأيّام السرور قِصار

2 ـ عثرتُ بذيل السكر فيه عشيَّة

وللرّيح في موج الخليج عِثار

3 ـ وقد فضَّض النوَّار كلَّ ربا وة
وسال عليها للأَصيل نُضــــار
(رقم 224)

ويقول فى موضع آخر :

3 ـ وتجسّم النَّوْرُ فيه نُـــورًا فكلُّ غُصْن بــــه ثُـــريَّـــا
(رقم 25)

فالزهرة تعرض على عين الشاعر حلتها اليانعة فى الصباح بعد ما نضحها الندى ، فهل من الغريب اذن أن ينسب اليها ابن خفاجة أوصاف الفتاة الجميلة ، وهو القائل :

1 ـ حُثَّ المدامةَ فالنَّسيم عليل
والظِّلُّ خفَّاق الـرَّواق ظليــل
2 ـ والنَّوْرُ طَرْفٌ قد تنبّه دامع
والماء مُبتَســم يـروق صقيـل
(رقم 196)

ولنتذوق فى الأبيات الآتية رقة الصور المتعددة وطرافتها حين يشير الى النور فيقــول :

1 ـ وكِمامــةٍ حدر الصَّباحُ قِناعــها
عن صفحة تندى منَ الأَزهــار
2 ـ فى أبطح رضعتْ ثغور أقاحِــهِ
أخلافَ كلِّ غمــامة مـــدرار

3 ـ نثرت بحجر الروض فيه يدُ الصَّبَا

دُرر النَّدى ودراهـم النـوار

(رقم 230 م ـ ص 336)

وقد عثرنا فى دراستنا للشعـر الغزلي على أزهار مختلفـة استعملها الشاعر كمشبه به ليتغنـى بجمال محبوبته ، فالأنواع التي أشار اليها الشاعر أكثر من مـرة هي : النارنج والريحان والورد والشقيق والأقحوان والعرار والنرجس والآس والبنفسج والسوسن ، والنيلوفر .

فورد ذكر الريحان ثلاث مرات فى الديوان ولا يفوت ابن خفاجة أن يجعله فى صورة شخص فى كل مرة ، ألم يذكره بمحبوبته ؟ ففي القطعة الشعرية الآتية لا يذكر الشاعر الريحـان بعينيه ، ويرجع الفضل مرة أخرى الى الناسخ الذي ساعدنا على اكتشاف الموضوع ، ويتجلى لنا ابن خفاجة فيها ذلك الشاعر الفنان الماهر فيقـول :

1 ـ ومعشوقة الحسن مَمْشُوقة يهيم بها الطَّرف والمعْطِـس

2 ـ لها نَضْرَةٌ سِمْتُهَا نَظْـرَةٌ وتكلَفُ بالأَنفُـس الأَنفُـس

3 ـ فمن ماء جفني لها مَكْرَع يسيح ومن راحـتي مغـرس

(رقم 36)

وأما الورد فهو من الأزهار التي ورد ذكرها أربع مرات في الديوان (أنظر رقم 38 ، 39 ، 101 ، 102) .

ففي القطعة الاولى ذكر ابن خفاجة الورد حين تعرض الى وصف مجلس أنس وهو ببلنسية مع اخوان صدق وبين أيديهم ورد قد فرش ونوار نارنج عليه قد نثر ، فقال معددا الصور :

4 ـ والنَّوْرُ مبتسِم وخدّ الورد محطوط النِّقابْ
5 ـ يندى بأخلاق الصِّحاب هناك لا بِندَى السحاب
6 ـ وكلاهما نَثْرٌ كَمَا نثروا القوافيَ في الخِطَاب
7 ـ فَكَأَنَّ كأس سُلافة ضحكتْ إليهم عن حَبَاب

(رقم 38)

وتمتاز القطعة الثانية بطرافتها حيث يتخلى الشاعر تماما عن وصف الوردة لكي يتغنى بما تمتع به من نضارة فيقول فى شأنها وقد تفتحت فى غير زمانها :

1 ـ وغريبَةٍ هشَّتْ إليَّ غريرة فَوَدِدْتُ لو نُسِخَ الضِّياء ظلاما
2 ـ طلعتْ عليَّ مع المشيب تشوقني
شيخا كما كانتْ تشوق غلاما
3 ـ مقبولة أَقبلتُها عن لوعة نظرًا يكون إذا اعتبرتَ كلاما
4 ـ عذرتْ وقد أجللتُها عن نشوة
كِبَرًا وَأَوْسَعَتِ الزَّمَانَ ملاما
5 ـ عبقتْ وقد حنَّ الرَّبيع على النَّوى
كرَمًا فأهداها إليَّ سلاما

(رقم 101)

ولو لا مقدمة الناسخ لما علمنا هنا أيضا أن الشاعر يعني فى هذه الأبيات وردة تفتحت فى غير زمانها ، وهذه القطعة الشعرية لها أهمية كبرى من ناحية مضمونها لأننا لا نجد فيها أي ذكـر لكلمة وردة ، وانما اختفت وراءها ما أحس به هذا الشاهر ، وقد بلغته الشيخوخة ، من غبطة وسرور لرؤية هذه الوردة فاعترف لها بالفضل الجزيل .

وأما النيلوفر فلم يذكره ابن خفاجة الا مرة واحدة فى ديوانه ومما لا شك فيه أن شاعرنا قد شاهد هذا النبات المائي بأزهاره العائمة المتفتحة على سطح الماء فى النهار فاذا جاء الليل تكممت وبدل أن يصف لنا الشاعر هذه الاعجوبة بدا له أن يؤولها فقال فى بيتـين :

1 ـ وَنَيْلُوفَرٍ لم يَدْرِ ما مسُّ حُرْقة

بِحُبٍّ ولاما لـوعـة وغـرام

2 ـ يهبُّ مع الإصباح من سِنَة الكرى

ويُطبِق ليلا جفنـه فينـام

(رقم 297)

ولم نعثر على الشقيق الا مرة واحدة فى الديوان ، ولا شك أن لونه الأحمر المقتحم قد حرك خيال شاعرنا حين شاهد حقولا مترامية الأطراف قد اكتست به من كل ناحية ، فصور فى الأبيات الآتية مشهدا حربيا غير خال من أناقة وطرافة فقال :

1 ـ يا حبّذا والبرد يزحف بكــرة
جيشــا رحيقٍ دونـــه وحريـق
2 ـ حتّى إذ ولّى وأسلم عَنْوَةً مــاشئتَ من سهــل وذِرْوَة نيِق
3 ـ أخذ الرَّبيع عليه كلّ ثنية
فبكـلِّ مَرْقَبَــةٍ لــواءُ شقــيق
(رقم 287)

وأما العرار بأزهاره الطيبة الرائحة فقد ذكره الشاعر مرارا فى ديوانه ، ولكن ذكره لم يأت الا بصفة ثانوية ، فأكد على رائحته بخاصة (أنظر رقم 67 ، بيت 8 ورقم 69 ، بيت 4) .وقد يستعمل العرار فى موضع آخر كمشبه به (أنظــر رقم 230 بيت 5) . وكمشبه أيضــا بالدنــانــير (أنظــر رقــم 99 ، بيت 23) . وأخيرا يأتي فى استعارة حيث أصبح العرار عينا تفيق من النوم صباحا مغرورقة بالدموع فيقــول :

15 ـ أَيْقَظَ برد الصّبح جفْنَ عــرارة
تَرَقْرَقَ دمعُ الطَّلِّ فيــه فســالا
(رقم 74)

ومن بين الأزهار ينبغي أن نذكر الأقحوان أيضا وقد تعددت الأبيات التي أشار فيها ابن خفاجة اليه . ويعترف شاعرنا بفضل هذه الزهرة لأنها تزيد مناظر الطبيعة رونقا وجمالا (أنظر مثلا رقم 126 ، بيت 7 ، 150 ، بيت 35 ، 267 ، بيت 17) .

والتشبيه الوحيد الذي نعثر عليه فى الديوان هو حين يشبه الأقحوان بالثغر المبتسم ، وقد سبق لنا ذلك فى دراستنا للشعر الغزلي .

وأما الخيرية فلم يأت ذكرها الا مرة واحدة فى الديوان وقد يحيى ابن خفاجة هذه الزهرة التي لا تفوح روائحها الا ليلا ، فتأتي لشاعرنا هذا التصوير الرائع اللطيف حيث قال :

1 – وخِيرِيَّةٍ بين النَّسِيم وبينها
حديث إذا جنَّ الظلام يطيب

2 – لها نفَسٌ يسرى مع الليل عاطر
كَأَنَّ له سرّا هناك يُريب

3 – يدِبّ مع الإمساء حتى كَأَنَّمَا
له خَلْفَ أَستار الظلام حبيب

4 – ويخفيِ مع الإصباح حتَّى كَأَنَّمَا
يظلُّ عليه للصباح رقيب

(رقم 42)

وأما الثمار فلم تكن أوفر من الازهار حظا ، والانواع التي ذكرها ابن خفاجة فى ديوانه منها قليلة وهي النارنج والتين والعنب والرمان .

فثمر النارنج بلونه الساطع ، ورائحته الطيبة ، ورد ذكره ثلاث مرات (أنظر رقم 20 ، 23 ، 24) .

وفى الأبيات الآتية لا يصف ابن خفاجة هذا الثمر وصفا واقعيا وانما يذهب به خياله الى عالم آخر ، فيقدم لنا شعرا غزليا يوهم القارىء ، ولولا مقدمة الناسخ لما علم أن الشاعر يقصد ثمــرا معينا ، واليك هذه الأبيات :

1 ـ ومحمولة فوق المناكب عِــزَّةً
لها نَسَبٌ فِي روضة الحَــزْنِ مُعْــرِقِ

2 ـ رأيتُ بمرآها الْمُنَى كيف تلتقي
وَشَمْلَ رياح الطيب كيف تَفَرَّقُ

3 ـ يضاحكــها ثغر من الشمس واضح
ويلحظها طرفٌ من الماء أزرق

4 ـ وَتُجْلَى بــها للماء والنَّار صورة
تروق فَطَرْفِي حيث يَغرَق يُحْرَقُ

(رقم 23)

والقطعة الثانية تدل على أن ابن خفاجة نظر الى هذا الثمــر وأمعن النظر فيه ، فعبر عن احمرار لونه المختلط باخضرار الورق فى صور بديعة فيقول :

1 ـ وميّاسةٍ تزْهَى وقد خلع الحــيا
عليها حُلَى حُمْرًا وأردية خضرا

2 ـ يذوب لها ريق الغمامة فــضّة
ويجمد في أعطافها ذهبا نضرا

(رقم 23)

وقد ذكر ابن خفاجة التين كذلك باقتصاد ، فلا نجده في الديوان الا في ثلاث مقطعات شعرية قصار لاتتجاوز احداها أربعة أبيات . واستلفت نظر شاعرنا فيه ، قشرته السوداء وشكله المستدير ، فأتاح له هذا أن ينتقل بنا الى الشعر الغزلي ويأتينا بصور يشخصه فيها فيقول :

1 ـ وَسُودِ الوجوه كلون الصّدودْ
تبسَّمْنَ تحت عُبُوس الغَبَشْ

2 – إذا ما تجلّى بياضُ الضحى
تطلَّعْنَ فيِ وجهه كالنَّمشْ

3 ـ كأنِّي أُقَطِّفُ منْهَا ضحى ثُدِيّ صغار بنات الحَبَشْ
(رقم 322)

وأما الرمان فلم يأت ذكره الا مرة واحدة في ديوان الشاعر ويذكر ابن خفاجة بنفسه المناسبة التي قال فيها هذه الأبيات : « حضرت يوما مع أصحاب لي ومعهم صبي متهم في نفسه واتفق أنهم تباروا في تفضيل الرمان على العنب فانبرى ذلك الصبي فأفرط في تفضيل العنب فقلت بديها أعبث به » فجاءت هذه الأبيات وهي خالية في نظرنا من أية فائدة (أنظر رقم 308) .

وكان العنب من الثمار التي تعرض لها الشاعر مرات عديدة في خمرياته كما رأيناه سابقا .

ففي قطعة شعرية عدد أبياتها أحد عشر (رقم 279) يبدأ ابن خفاجة بمدح قصيدة أرسلت اليه ، فيذكر ما كان لها من أثر

فى نفسه ونشوة ، ويسوقه هذا الكلام الى ذكر العنب أم المدامة فيصفه لنا وصفا غزليا :

5 ـ رضعنا لها أمّ المدام عشيّـة

ويا عجبا ما للرّضاعة والكهل

6 ـ وأسود معسـول المجاج لوَانّه

لَمَى شفة لم أروَ يوما من القُبْـل

7 ـ حكى ليلة الهجر أسودادا وإنّه

لأَشْهَى وأندى من جنى ليلة الـوَصْل

(رقم 279)

فى هذه الطبيعة التي نسميها عادة بالصامتة والتي نفخ شاعرنا فيها روحا فأحياها ، يعرض علينا ابن خفاجة بعض الحيوانـات التي بودنا أن ننظر كيف أشار اليها فى شعره . لقد سبقت لنـا أبيات عديدة اسمعنا فيها الشاعر تغريد الطيور من أعلى الأشجار الملتفة الورق ، بجانب صدح الحمائم التي ورد ذكرها مـرارا (أنظر مثـلا رقم 223 ، بيت 16 ، ورقم 231 ، بيت 1 و 2 ، ورقم 235 ، أبيات 1 ، 2 ، 3) .

ولم يصف الشاعر ولا مرة واحدة هذا الطائر ، وانما اكتفى بذكره خلال وصفه لأغراض أخرى ، ولسنا فى حاجة الى التذكير بأن تغريد الحمام رمز عن الكآبة والحـزن . الا أننا نجد فى الديوان قطعة شعرية اهتم فيها ابن خفاجة أكثر من غيره بصدح

هذا الطائر الذي اعتبره السابقون بكاء ونواحا ، غير أن ابن خفاجة لم يوافقهم على تأويلهم هذا ، فالحمام فى نظره لم يعبر بتغريده عن الألم والحزن وانما عن الحب الخالد ، وقد لفتت الأبيات الآتية أنظارنا بما وفق فيها الشاعر من صور وتعابير جديدة طريفة ، فقال :

1 ــ وهاتفَةٍ فيِ البَان تُمْلي غرامها
عليناو وتتلو من صَبابتها صُحُفَا

2 ــ عجِبْتُ لها تشكو الفِرَاقَ جهالة
وقد جاوبت من كل ناحية إلْفا

3 ــ ويُشجي قلوب العاشقين أنينها
وما فهموا ممّا تغنَّتْ به حرفا

4 ــ ولو صدقتْ فيما تقول من الأَسَى
لما لبستْ طوقا ولا خَضَبَتْ كفّا

(رقم 313)

ومن الغريب أن ابن خفاجة تعرض الى وصف القطاة وهو طائر غير موجود فى اسبانيا ــ وفضلا عن هذا فهو الشاعر الوحيد الذي أشار اليه وذلك مرة واحدة فى ديوانه ، فهل أتيح لابن خفاجة أن يشاهد قطاة فى بلاده أم استعمل فى وصفها ما بلغه عنها ، ومهما كان الامر فمن العسير أن نؤيد أحد القولين دون الآخر ، وعلى كل حال فقد وصف ابن خفاجة هذا الطائر فى أبيات تخللت قصيدة مدحية فقال :

40 ـ ولربّ طيّارٍ خفيف قد جرى

فشلا بجارٍ خلفه طيّار

41 ـ من كلِّ قاصرة الخُطى مُختالة

مشيِ الفتاة تجرّ فضْل إزار

42 ـ مخضوبة المنقار تحسب أنها

كرعتْ على ظمأٍ بكاس عُقار

43 ـ لا تستقرّ بها الأَداحِي خشية

من ليل وَيْلٍ أو نهار بَوار

(رقم 2)

ويبدو أن الحشرات بصفة عامة لم تستوقف شاعرنا ـ نعم أشار مرة واحدة فى ديوانه الى النحل لكن ذلك كان فى ظروف معينة ، ذلك أن صديقا لابن خفاجة بعث اليه بشهدة فأنشد الشاعر هذه الابيات فى مدح النحل فقال :

1 ـ لِلّه ريقةُ نحلٍ رعى الرّبى والشِّعابا

2 ـ وجاب أرضًا فأرضًا يغشى مصابًا مصابا

3 ـ حتى ارتوى من شفاء يمُجّ منه رُضابا

4 ـ إن شئت كان طعاما أو شئت كان شرابا

(رقم 324)

ومن بين الحيوانات المفترسة لم نعثر فى الديوان الا على

الذئب ، فقد خصه الشاعر بالذكر فى قطعتين تمتازان بواقعيتهما ، يقص علينا فى احداهما مقاومته ذئبا هاجمه ليلا فقال :

1 ـ ومَفَازة لا نجمَ في ظلمائها . . . . .

5 ـ قد لفَّنِي فيها الظلام وطَا ف بي
ذئبٌ يلِمُّ مع الدَّجى زَوّار

6 ـ طرّاق ساحاتِ الدِّيار مُغَاورٌ
ختّال أبناء السّرى غدَّار

7 ـ يسرى وقد نضح النَّدى وجه الصَّبَا
في فَرْوة قد مسّها أقشعرار

8 ـ فعشوتُ في ظلماءَ لم تُقْدَحْ بها
الا لمقلته وبأسي نار

(رقم 47)

ويرسم لنا فى القطعة الثانية مشهدا مأسويا قاسيا ، صور فيه الظلام المطبق والبرد القارس والجوع اللاذع مع عواء الذئب ، مما يعطي القصة صبغة حقيقية ويغلب على الظن بأن ابن خفاجة لم يتخيل هذه الحادثة وانما خبرها بنفسه ، فيقول :

2 ـ وأطلسُ زَوَّارٌ مع اللَيْلِ أغبشٌ
سرى خلف استار الدّجى يتنكَّر

4 ـ تشاءب من مسّ الطَّوى فَهْو يشتكي
فيعوي وقد لفَّتْه نكْبَاء صَرصَرُ

5 ـ ودون أَمــانيهِ شرارة لَـهْذَمٍ

يُقَلِّبُ فيها مثلها حين ينظـر

6 ـ فمن جوْعَةٍ تُغْرِيه بي فهو يدَّنِي

ومن روعــة تُثْنِيــه عنِّي فيُقْصِر

(رقم 134)

ومن المحتمل فى ضوء ما صرح به المستشرق بيراس تعليقا على هاتين القطعتين ، أن الذئاب فى عهد المجاعة والبرد الشديد كانت تقترب من العمران لتهجم على أسراب الغنم وأحيانا على الانسان نفسه . أما المسافرون الذين يجرؤون على الارتحال فى ظروف كهذه فقد يعرضون أنفسهم للهلاك أو يكادون ، وما عليهم الا أن يعتمدوا على ثباتهم وشجاعتهم .

وعلى النقيض من هذا نجد فى الديوان قصيدة عدد أبياتها ثمانية وعشرون يقص فيها شاعرنا مقاومته أفعى ، وهي قصة ـــ يبدو لنا أنها وليدة خياله.وأعتقد أنه لجأ الى هذا التصوير الخيالي ليثير اعجابنا بمقدرته الفنية ، وقد جاء أسلوبه فيها معقدا متكلفا غامضا أحيانا ، لكثرة ما استعمل من ألفاظ غريبة وحشية فيقول فيها مثلا :

22 ـ وهوى كما أهوى أَتِيٌّ مُزبدٌ

رجمتْ به بعض التِّلاع تِلال

24 ـ فدَرَأتُ بادرة الشُّجَاع بأخضرٍ

في رُقْشَــةٍ هو للشّجَــاع مثــال

25 ـ جمد الغديرُ بِمَتْنِهِ ولرُبَّما

أعشالك إفْرَنْدٌ لـه سيّال

26 ـ وجمعتَ بين المَشْرفي وبينه

فتلاقت الأَشباه والأَشكال

27 ـ وتساوَرَا يتكافحان كما التقى

يوما أبو إسحاقَ والرِّئْبال

28 ـ وكلاهما من أسودٍ ومُهَنَّدٍ

في ضمْنِهِ الآوْجَالُ والأَجال

(رقم 70)

ومن المحتمل فى ضوء ما صرح به المستشرق بيريس تعليقا كثيرا بالفرس ، وهذا مما لا غرابة فيه « لأن اهتمام الاندلسيين لم يقل عن اهتمام المشرقيين بالفرس (أنظر بيراس الشعر الاندلسي ص 225) . فقد وصف الشعراء هذا الحيوان مرارا وسط المعارك العنيفة أو فى الصيد » الا أن أبياتهم خالية مما لا علم لنا به حول هذا الحيوان الذي اعتنى به اللغويون فدرسوه بتفاصيل مدهشة (أنظر بيريس ـ ص 235) . وتبدو لنا أنه كان من العسير على شاعرنا ألا يقع فى وصفه للفرس على ما قاله الاولون فيأتينا بصور يعبر بها عن ميزات هذا الحيوان ، فيشبهه تارة بالنجم وتارة بالشرارة (أنظر رقم 158 بيت 5) وتارة بالقدر فيقول :

أحمى من النجم يومَ معركة

ظهرا وأجــرى به من الــقَــدَر

(رقم 146)

وقد تتراكم تشابيه فى البيت التالي :

3 ـ قدحتْ يَدُ الْهَيْجَاء منه بارقـــا

مُتَلهِّبا يزُجِي الْقَتام ســحــابـا

(رقم 157)

ويعرض علينا ابن خفاجة فى قطعة أخرى صورا متوالية ، لخيل متلاحقة ، تختلف فيما بينها بلون شعرها ، معبرا عن كل لون فى صوره فيقول :

6 ـ من أدهم أخضرِ الْجِلْباب تحسبهُ

قدِ استعار رداء اللَّيل فاشتمـلا

7 ـ وأَشقرٍ قــانىء السِّربــال مُلتهبٍ

قد جال يُوقِدُ نار الحرب فاشتعــلا

8 ـ وأَشهبٍ ناصع الْقِرْطاس مؤْتَلِقٍ

كَأَنَّمَا خاض ماء الصبح فاغتســلا

9 ـ ترى به ماء نَصْلِ السَّيْفِ مُنْسَكِبًا

يجري وجاحمَ نار البأس مشتعــلا

(رقم 154)

ونذكر فى النهاية هذه الابيات حيث يصف الشاعر فرسا فى اقدامه وهجومه العنيف فى الحروب ، ويبدو أن ابن خفاجة قد متع نظره بما امتاز به من أوصاف ، فقال :

1 ـ وأشقر تُضْرَمُ منه الوغى بشُعلة من شُعَلِ البـــاس

2 ـ من جُلنَّار ناصر لــونُه وأذْنه مــــن ورق الآس

3 ـ يُطلِع للغُرَّة فـــي شقْـرة حبــابة تضحك في كاس

(رقم 73)

كذلك ذكر ابن خفاجة الكلب ثلاث مرات فى ديوانه (أنظر رقم 2 ، 8 و 103) . والمعني هنا بطبيعة الحال هو كلب المطاردة لا كلب الحراسة الذي لم يعتبره الشعراء أهلا للشعر ، لدناءة وضعيته ، وقد تعرض شاعرنا لوصف الكلاب فى قصيدة مدحية فأطال فى وصفها ذاكرا كل ما امتازت به عن غيرها ، وذلك فيما يبدو رغبة منه فى ارضاء الممدوح وكان يخرج للصيد بكلابه هذه ، فقال مثلا :

26 ـ طــرد الـــقنيــص ....

29 ـ وبكلِّ نَائِي الشَّأوِ أشدقَ أخْــزَرِ

طاوي الحشى حالي الْمُقلَّدِ ضار

30 ـ يفترّ عن مثل النِّصال وَإنّــما

يمشى على مثل القنى الخطّار

31 ـ مستقرِيًا أَثر القَنيص على الصَّفَـا
والَّليل مشتمل بشَمْلَةِ قـار

32 ـ من كُلِّ مسوَدٍّ تَلَهَّبُ طَرفُـه
ترميك فحمته بشُعلة نـار

33 ـ ومورَّس السِّربال يُخلَع قِدُّه
عن نجمٍ فيِ سمـاء غبـار

34 ـ يستن فيِ سَطْر الطَّريق وقد عفـا
قِدْمًا فيقرأ أَحْرُفَ الآثَـار

35 ـ عطف الضُّمورُ سَرَاته فَكَأَنَّـه
والنَّقعُ يحجبه هـلال سِـرار

(رقم 2)

ونعثر فى نفس القصيدة على وصف حيوان آخر درب للصيد، وان لم يسمه شاعرنا فانه كان يعني البازي بلا شك ، ونعثر فى الديوان على هذا الطائر مرتين ، لقد وصفه ابن خفاجة شعرا ونثرا مسجعا (أنظر رقم 2 و 8) .

فالابيـات الشعرية جـاءت خلال قصيدة مدحية أشرنـا اليها آنفا وفيها وصف الشاعر البازي فى تأدية مهمته . وينبغي أن نلاحظ أن الاندلسيين كانوا شغوفين بالصيد بالبازي ، وطيور الاصطيـاد هذه ـ كما قال المستشرق بيريس ـ كانت تربى باسبانيا نفسها وأصلها من ضواحي أشبونة وجبال شرقي الاندلس

وجزائر البليار وقد كانت مستحسنن كثيرا عندهم (أنظر بيريس ص 347) . فمن المحتمل اذن أن يكون ابن خفاجة قد حضر رحلة صيد بهذا الطائر ، ورسم لنا فى الابيات الآتية مشهـدا يمتاز بدقته النادرة ، فقال :

26 ـ طرد القنيص بكُلِّ قَيْدِ طـريدة
زَجِلِ الْجناح مُـوَرَّدِ الأَظفـار

27 ـ مُلتفَّة أعطافه بحَبِيـرة مكحولة أَجفـانه بِنُضـار

28 ـ يرْمَى به الأَمل القَصِيُّ فينثني
مخضوب راء الظفر والْمنقـار
(رقم 2)

وينتقل بنا ابن خفاجة الآن الى الحيوانات المقتنصة فنعثر أولا على الثعلب فى نفس القصيدة السابقة التي اقتبسنا منها بعض الابيات . وقد أتم الشاعر رسم هذا المشهد بوصف ثعلب يحاول محاولة اليائس أن يتخلص من أعدائه :

36 ـ فلربّ رَوَّاغ هنالك أَنْبَطِ
ذَلِقِ المسامع أطلس الأَطْمَـار

37 ـ يجري على حذر فيجمع بَسْطَـه
يَهْوِي فينعطف انعطاف سوار

38 ـ مُمْتَدَّ حبل الشَّأْوِ يَعْسِل رائغـاً
فيكاد يفُلتَ أَيدِيَ الأَقْـدار

39 ـ متردّدا يرمى به خوفُ الردى

كُرَةَ تـهاداهـا أَكُفُّ قِمَـار

(رقم 2)

ونجد حيوانا آخر أهلا للاستعطاف أكثر من السابق وهو الارنب . فيذكره ابن خفاجة فى بيتين صدر بهما قطعة شعرية من سبعة أبيات تعرض فيها الى وصف كلب صيد ، فقال :

1 ـ وأطلسَ مِلْءُ جانحتَيْه خوف

لأَشْوَسَ مِلْءُ شِدقيـه سـلاح

2 ـ نجا هِربا يطير حِذارَ طاوٍ له ركض يغُص به الْبَـرَاح

(رقم 103)

وأما الجمل أو الناقة فقد أشار اليهما ابن خفاجة فى أبيات عددها غير قليل (انظر مثلا رقم 130 و 200 و 233) . وهذا أمر يثير الغرابة لأننا لا نعثر على الجمل فى الشعر الاندلسي كما لاحظ ذلك المستشرق بيراس : « ان الاندلسيين لم يستطيعوا أن يدخلوا فى شعرهم وصف الجمل الذي كانوا يعرفونه جيدا عن طريق الشعر المشرقي ، فلا يرد عندهم حتى فى الشعر الـذي يذكرون فيه البوادي القاحلة والنساء الراكبات على الهوادج (انظر ص 235) . ولنا أن نلاحظ أن ابن خفاجة اكتفى فى وصفه الناقة بتكرار ما بلغه من أوصافها فى الشعر القديم ، فقد أشار الى سرعة الناقة وضمورها ورقة قوائمها . ومع هذا فان شاعرنا فى محاولته التجديد صور لنا فى هذه الابيات حديثا يدور

بينه وبين راحلته ، لقد اتخذ منها وسيلة ليعبر بها عن داخله وما كان يكنه فقال :

15 ـ فجُبْتُ الدّجى منها بأعْيَسَ ضامر
رميتُ به رُكْنَ الدّجى فتهدّما

16 ـ يُقَلّبُ طَرفا في الكواكب ساميا
كأَنَّ به تحت الظّلام مُنَجِّما

17 ـ ومن عجب أنّي أرى القوس مُنْحنى
به في يد البيداء والسّهمَ مُرْتَمَى

19 ـ ويُطْرِبُهُ سَجْعُ الحمامة بالضحى
فيلوي اليها جيدَه مُتَفَهِّمَا

20 ـ وما كان يدري ما الحنين على النَّوى
ولكنني طارحته فتعلَّما

21 ـ فما عاج بي وَجْدٌ على رَسْمِ منزل
فأعولتُ إلاَّ حَنَّ شوقا فأرزما
(رقم 130)

ونجد أخيرا فى ديوان ابن خفاجة قطعتين شعريتين (رقم 110 و 111) . الاولى فى وصف نعجة والثانية فى وصف كبش ، وقد أوضح لنا الناسخ فى المقدمة الظروف التي قيلتا فيها فقال : « وقال (ابن خفاجة) يداعب صديقا له من الشعراء ويهنئه بنعجة سوداء كان قد تغزل فيها .

ومن اليسير أن نلاحظ بعد النظر فى هذه الاغراض الشعرية المختلفة أن الابيات التي قيلت فى الطبيعة الحية أقل عددا من التي قيلت فى الطبيعة الصامتة وهذا من شأنه ــ بطبيعة الحال ــ أن ينتهي بنا الى شعر جامد لا حرارة فيه . ولكن ابن خفاجة ــ من حسن الحظ ــ توقع ذلك فتداركه باحياء كل ما أشار اليه فى هذه الطبيعة الجامدة . الا أنه ينبغي أن نلاحظ أن ابن خفاجة بقي ذلك الشاعر المقلد فى انتاجه لأن ما جاءنا به من أفكار سبقه اليها غيره من الشعراء ، فكان فضله فى حسن العبارة والاسلوب ، وقد وفق فعلا ، كما أشرنا اليه فى محله ، الى تعابير طريفة شيقة يستحق من أجلها الثناء .

البـاب الثـالث

فـن ابـن خـفـاجـة

الوسيلـة الشعـرية :

خضع ابن خفاجة بأتم ما فى الكلمة من معنى ـ لتكوينـه التقليدي ـ فامتثل للتقاليد الفنية القديمة ، ومن ثم فاننا لم نفاجأ بأمر جديد اثر دراستنا لوسيلته الشعرية لا من ناحيـة اللغة ، ولا من ناحية العروض والقافية ، ولا من ناحية الوسائل الاسلوبية البلاغية .

1) ولنبدأ بدراسة اللغة عند ابن خفاجة : فالمفردات التي يستعملها شاعرنا هي نفس المفردات التي نعثر عليها عند جميع الشعراء ، وقد نجدها مرتبة فى مستويات متعددة ، كل منها ينتمي الى اتجاه معين ، وهكذا تتجلى لنا التأثيرات المختلفة التي طرأت على شاعرنا ، كما تتجلى لنا الطريقة فى تكوينه ، وهي طريقـة حددها بصفة عامة المستشرق بلاشير قائلا 155 : « وينبغي هنا أن يذكر الانسان وجود ذلك المجمع الشعري الذي يجله ممثلوه، لأن الاجماع قد وقع عليه » فمن الطبيعي عندئذ أن نعثر على مفرادت من الشعر الجاهلي بازاء مفردات قرآنية ـ وقد فرضنا على أنفسنا أن ندرس هذه المفردات فرتبناها ترتيبا تاريخيا .

لقد رأينا ابن خفاجة عندما يذكر لنا الناقة ينسب اليها نفس الاوصاف التي استعملها أي شاعر جاهلي وصف ناقته مثل : أعيس وضامر (رقم 130 بيت 15) . ووجناء (رقم 200 بيت 2).

وقد نعثر من جهة أخرى على كمية من المفردات صالحة للحياة فى البوادي مثل : الخيام (رقم 7 بيت 14) والربع (رقم 178 بيت 9) ومربع (رقم 9 بيت 3) وهو الموضع الذي يقام فيه فى فصل الربيع ، والاثافي وهي الاحجار التي توضع عليه القدر (رقم 12 بيت 2) . ومن الطريف أن نجد هذه المفردات مستعملة فى بعض التشابيه كما جاء فى هذين البيتين حيث قال الشاعر :

1 ـ أَقْوَى مَحَلٌّ من شبابك آهـــل
فوقفتُ أندبُ منه رسما عافيا

2 ـ مَثَلَ العذارُ هُنالك نُؤيا دائـــرا
واستودَّتِ الخِيلان فيـه أثافيا

ولدى ابن خفاجة ثلاث عبارات استعملها فى كلامه على الآثار الشاخصة بعد ارتحال القافلة وهي : ربع دارس وأطلال (رقم 151 بيت 12) ورسم عاف (رقم 12 بيت 1 ورقم 124 بيت 2). وقد يستعمل فى موضع آخر هذه العبارات استعمالا مجازيـا حينما يشير الى الشباب الفاني الذي لا يدوم فيقول مثلا :

3 ـ ولم أَدْرِ ما أبكي أَرَسْمَ شبيبة
عفا أم مصيفا من سُلَيْمى ومَرْبعا

(رقم 9)

وقد سجل ابن خفاجة ، اقتداء بالشعر القديم ، أسماء أماكن موجودة بالجزيرة العربية مثل النجد والتهامة فاستعملها تـارة

بمعناهما المادي (رقم 233 بيت 11 ــ 12 ــ 13) وتارة أدخلهما في صور تشبيهية (رقم 278 بيت 44) .

واننا لنعثر أيضا عند هذا الشاعر الاندلسي على ألفاظ خاصة بما ينبت من أشجار في الجزيرة العربية مثل الأراك والأيــك والطلح والغنم 156 .

كما انه لم يأت بجديد في تسميته الاسلحة التي بين أيدي المحاربين الاندلسيين فهي تلك التي توجد عند الشرقيين مثل السيف والرمح والمهند (أنظر ما سبق ص 219) .

فهذه المفردات البدوية القديمة تجر معها صورا عديدة معروفة متداولة بين الشعراء مثل نداء الرفاق حقيقيين كانوا أم متخيلين ــ لاستلفات نظرهم حتى يصغوا الى قول الشاعر في عبارة : يا خليلي ! (رقم 69 بيت 5) التي تتردد بكثرة في الشعر التقليدي ومثل السؤال : من مبلغ عني أو من قائل عني (رقم 63 بيت 1 ورقم 199 بيت 6 ــ 28) ومثل دعوة الرياح الشمالية والجنوبية التي يتخذها الشاعر رسولا بينه وبين الحبيبة .

ويستعمل ابن خفاجة أسماء الاعلام التي أصبحت يضرب بها المثل في أمر معين ، فيذكر حاتم الطائي الذي يمثل الكرم والسخاء، وربيعة بن مكدم الذي يمثل الشجاعة (رقم 52 بيت 15) .

ونعثر في الديوان أيضا على عدد وافر من الحكم والامثال السائرة التي تبرهن على حكمة الامم مثل :

ــ لكل عين نومة وسهاد (رقم 175 بيت 22)

ـ لكل ركب سائق (رقم 175 بيت 33)
ـ قد ينبع الماء النمير من الصلد (رقم 278 بيت 30)
ـ وأيام السرور قصار (رقم 224 بيت 1)
ـ فمبدأ النار سقط : وأول الخط نقطة (رقم 298 بيت 3)
ـ وهل يستقيم الظل والعود أعوج (رقم 310 بيت 2)
ـ وما كل بيضاء تروق بشحمة
ـ ولا كل مرعى ترتعيه بسعدان (رقم 277 بيت 4) .

فجاء ابن خفاجة بهذه الامثلة السائرة تأييدا لما يسبقها من الكلام وقد رأينا ذلك في دراستنا الاغراض الزهدية (انظر ص 163 ورقم 60 بيت 23 ـ 24) .

وينبغي فى النهاية أن نأتي بأبيات شعرية وفق ابن خفاجة فيها الى خلق جو من أجواء قصائد العهد الجاهلي ، يقول :

9 ـ ولمَّا تراءتْ لِي أثافِيِ منزل
أرتْنِي مُحَيَّا ذلك الرَّبْعِ أَشْأَمَا

10 ـ تَرَنَّح بِي لَذْعٌ من الشَّوقِ مُوجِعِ
نسيتُ له الصّبر الجميل تَألُّمَا

11 ـ فأسلمتُ قلبا باتَ يهفو به الهوى
وقلت لدمع العين شَأنَك فانْهَمى

12 ـ وَخَلَّيْتُ جفني والدموع هُنَيْهَةً
فأفصح سِرٌّ ما فَغَرْتُ به فما

13 ـ وعجتُ المَطَايا حيث عاج بيِ الهوى
فحيّيْتُ ما بين الكَثِيبِ إلى الحِمَى
14 ـ وقَبَّلْتُ رسْمَ الدّار حبّاً لأهلها
ومن لم يجد الا صعيدا تيمّما

وقد أشرنا فيما سبق الى مفردات من نوع آخر ، وهي تلك التي اقتبسها ابن خفاجة من القرآن والعلوم الدينية ، ونضيف اليها ما ورد فى شعره من آيات قرآنية . وينبغي أن نصنف هذه المفردات اصنافا :

1 ـ الافعال ومشتقاتها :

ـ ركع وسجد (رقم 149 بيت 6) ـ ساجد (رقم 76 بيت 2) ركوع وسجود (رقم 241 بيت 3) .
ـ صلّى وصلاة (رقم 140 بيت 2 ورقم 241 بيت 3) .
ـ تَيَمَّمَ وَتَيمُّمٌ (رقم 178 بيت 14 ورقم 130 بيت 57) .
ـ صام وأفطر (رقم 74 بيت 5) .
ـ نفث (رقم 225 بيت 3 ورقم 328 بيت 8) وجاء في القرآن : النفاثات في العقد . (سورة 43 آية 4) .
ـ نسخ (رقم 3 بيت 22 ورقم 6 بيت 31 ورقم 30 بيت 1 ورقم 101 بيت 1) .

ـ زلــــزل (رقـــم 9 بيت 48) .

ـ نهــــر (رقـــم 55 بيــت 2) .

ـ صلى يصلي ومصطلى (رقم 79 بيت 5 ورقم 82 بيت 13)

ـ تلا يتلو تلاوة (رقم 96 بيت 2 ورقم 313 بيت 1 ورقم 144 م بيت 2 ص 374) .

ـ عبد يعبد (رقـم 75 بيــت 12)

ـ تبتَّـــل (رقـم 164 بيت 15) .

ـ غفر ومغفور (رقـــم 69 بيت 17 ورقـــم 188 بيت 12) .

ـ أذنب وذنب (رقم 69 بيت 17 ورقم 188 بيت 12) .

ـ حمل ومنه العبارة « حملة القرآن » (رقم 52 بيت 30) .

« وسبحان في العبارة سبحان الله » .

2 ـ الاسمـاء والعبـارات :

ـ القرآن (رقم 277 بيت 19)

ـ الحديث (رقم 52 بيت 30)

ـ الرواية (رقم 52 بيت 30)

ـ الدين (رقم 277 بيت 19)

ـ الكعبة (رقم 277 بيت 19 ورقم 75 بيت 11) .

ـ الحج (رقم 277 بيت 19)

ـ البراق (رقم 120 بيت 1)

ـ المصحف (رقم 328 بيت 7) الكتاب (رقم 161 بيت 3)

ـ في عبارة اللوح المحفوظ (رقم 328 بيت 7) .

ـ المحراب (رقم 76 بيت 1) .

ـ القبلة : حيث يتوجه المسلمون في صلاتهم (رقم 76 بيت 1) .

ـ نذير من نذر وهو من صفات النبي صلعم (رقم 77 بيت 8)

ـ تعويز من عوّذ (رقم 328 بيت 8 .)

ـ خاشع من خشع (رقم 76 بيت 2)

ـ صابر من صبر (رقم 60 بيت 52)

ـ محتسب وحسب (رقم 60 بيت 52 ورقم 137 بيت 3) .

ـ واثق من وثق (رقم 60 بيت 52)

ـ معتصم من العصمة (رقم 60بيت 52)

ـ القدير (ص 315 بيت 6)

ـ الكريم (ص 315 بيت 7)

ـ الحكيم (ص 315 بيت 7)

ـ الحميد (ص 315 بيت 14)

ـ التقديس (رقم 133 بيت 12)

ـ ثجـــاج (رقـــــم 135 بيت 23)

ـ المبدىء المعيد (ص 315 بيت 7)

ـ الوعد والوعيد (ص 315 بيت 15)

ـ الجنة (رقم 88 بيت 1) جنة الخلد (رقم 278 بيت 32)

ـ الجنة والنار (رقم 66 بيت 4 ورقم 301 بيت 3)

ـ النعيم والعذاب (رقم 161 بيت 5)

ـ الجزاء والحساب (رقم 161 بيت 2)

ـ دار الفناء ودار البقاء (رقم163 بيت 3) ودار البـــــلى (ص 315 بيت 8)

ـ المسلمون والمشركون (رقم194 بيت 10)

ـ الشياطـين (رقم 157 بيت 4)

ـ ركن الكفر (رقم 154 بيت 14)

ـ الإســـــلام (رقم 154 بيت 15)

ـ توبة نصوح (رقم 143 بيت 1 ـ أنظر السورة 66 آية 8)

ـ خشية ربـه (رقم 162 بيت 1)

ـ محلّ ومحرم من أحل وأحرم (رقم 130 بيت 35)

ـ مباح من أباح (رقم 194 بيت 10)

ـ صلاة الكسوف (رقم140 بيت 2)

- سورة الفتح (رقم 49 بيت 28) وفي الكتاب رقم السورة 48)
- سورة الضحى (رقم 278 بيت 22 ، وفي الكتاب رقم السورة 93)
- سورة الحمد (رقم 278 بيت 22)
- سورة عبس (رقم 144 بيت 2 ص 374 وفي الكتاب رقم السورة 80)

3 ـ الأعلام :

- الله (رقم 49 بيت 45 رقم 60 بيت 52 – رقم 69 بيت 17 – رقم 205 بيت 8 – رقم 272 بيت 1)
- اللهم (رقم 162 بيت 4)
- عيسى بن مريم عليه السلام (رقم 178 بيت 34)
- يوسف عليه السلام (رقم 97 بيت 6 – رقم 178 بيت 27 – رقم 314 بيت 2)
- داود عليه السلام (رقم 178 بيت 27 – رقم 314 بيت 2)
- يعقوب عليه السلام (رقم 137 بيت 3)
- «يونس» (رقم 137 بيت 3)

4 – اقتباساته من بعض الآيات القرآنية والعبرات المستعملة في الدعاء :

ـ الله يعطي ويمنع (رقم 49 بيت 45)

ـ الله يعفو ويصفح (رقم 205بيت 8 ـ وفي الكتاب سورة 4 آية 100)

ـ تجرى الليالي بما يريد (ص 315 بيت 6)

ـ يامن اليه المآب (رقم 161 بيت 6)

ـ رحماك ونعماك يامولاى (رقم 164 بيت 23)

ـ فكرعت في برد بها وسلام(رقم 44 بيت 3 ـ يشير الشاعر الى السورة 21 والآية 69.) .

ـ كما سواك قبل فعدلك (رقم 163 بيت 1ـ يشير الشاعر الى السورة 122 الآية 7)

والنوع الاخير من المفردات ، وهو أوفر الانواع ، يشمل الالفاظ الشعرية التي تختص بما يمكن العثور عليه من كلمات غريبة وحشية ، وعبارات غير مألوفة ومعقدة ، واننا لنعلم حق العلم أن هذه المفردات موزعة توزيعا دقيقا بين الاغراض الشعرية المختلفة ، فاذا أراد الشاعر مثلا أن ينظم قصيدة فى المدح عمد الى ألفاظ وصور بيانية وبلاغية تختص بهذا النوع من الشعر واذن فقد كان من العسير على ابن خفاجة أن يتحرر فيجدد ، ويأتينا بما فيه طرافة ، سواء أكان ذلك فى مستوى المعاني أم فى مستوى الالفاظ .

لقد كان ابن خفاجة شاعرا تقليديا بأتم معنى الكلمة . وقد سبق لنا ذكر أسماء الشعراء الذين كان يفضلهم على غيرهم (أنظر ص : 43) والذين اقتدى بهم فى بداية تكوينه وقد أشرنا مرارا فى بحثنا الى ما أخذه عنهم فضلا عن الابيات الكثيرة التي رصع بها قصائده (انظر فهرس الديوان ص 401 ـ 402) وهذا يدل بصفة قاطعة على تأثره بالشعراء المشهورين فى عهده تأثرا عميقا .

ولو ألقينا نظرة على هذه الالفاظ الشعرية لرأينا أن ابن خفاجة كان يهوى اللفظ الغريب ، فجاء شعره صعبا ، وفى بعض الاحيان غامضا . واذا كان شاعرنا قد استسلم الى ما سماه المستشرق بلاشير ـ « الولوع بالالفاظ » فان ذلك ـ دون شك كان لارضاء رغبته فى التصنع والتنسيق ، وذلك حتى يعجب القارىء بمقدرته ومهارته فى التعبير . ولما كان احصاء هذه المفردات من الاعمال الشاقة المرهقة رأينا أن فى ذكر بعض النماذج منها كفاية :

فالى جانب أسماء الاسد أو الليث المعروفين نجد الضيغم (رقم 52 بيت 17) .

ـ الضبارم (رقم 70 بيت 18)

ـ الرئبال (رقم 70 بيت 72)

ـ الضرغامة (رقم 154 بيت 18)

ومن الألفاظ القليلة الإستعمال نجد :

ـ ذمر بمعنى الشجاعة (رقم 130 بيت 26)

ـ جساوة بمعنى العداوة (رقم 125 بيت 3)

ـ الودق بمعنى القطر (رقم 172 بيت 34)

ـ اليباب بمعنى الخراب (رقم 132 بيت 6)

ـ الجريال بمعنى الخمر (رقم 70 بيت 12)

ـ الشجاع بمعنى الحية (رقم 70 بيت 24) وهلمّ جرّا

2 ـ اهم الوسائل الاسلوبية التي استعملها ابن خفاجة :

1) علـم البيـان :

أ التشبيه : وهو الوسيلة التي يستطيع الكاتب بواسطتها أن يرسم صورة تستطيع بقوتها التأثيرية المعنوية أن توضح معنى جاء فى الطرف الاول ، فيبقى أهم الطرفين قيمة 157 . وترد بكثرة فى ديوان ابن خفاجة . ولقد أحصينا له 940 تشبيها من بينها ما جاء فيه بأداة التشبيه المعروفة مثل : الكاف ، وكأن ، وكأنما ، ومثل . ومنها ما جاء بغير أداة التشبيه . ونستشهد فيما يلي ببعض الامثلة .

لو رتبنا هذه التشابيه طبقات حسب مختلف حواس الانسان لرأينا أن 500 تشبيه منها أو يزيد يرجع الى حاسة البصر ، ثم يأتي بعدها الشم فى أربعين صورة فقط . هذا بينما عدد الصور المتفرقة على الحواس الاخرى لا يتجاوز العشرة . ولما كانت العين من الحواس التي استنجدها الشاعر بكثرة فيمكن أن نقول ان ابن خفاجة كان يمتاز بخيال بصري .

واذا صح أن يكون الماضي هو مصدر التشبيه ، والذكريات هي منبعه ، فمن الطبيعي أن يتوجه ابن خفاجة نحو الطبيعة التي قضى حياته فى النظر اليها متمتعا بألوانها المختلفة المتنوعة ، ليتزود بما تضمنته من أشياء ، حتى تتضح الفكرة الكامنة فى المشبه أو تزداد رونقا وبهاء . ولهذا ذكر الشاعر النجم فى أبيات عديدة حيث استعمله كمشبه به ليعبر عن ضياء ولمعان الشيء أو الانسان اللذين يشير اليهما (أنظر رقم 149 بيت 40 رقم 175 بيت 35 و 52 رقم 195 بيت 7) .

فابتعاد النجمة عن الارض مما يجعلها مستحيلة المنال يعبر عن الامن التام الذي يتمتع به الانسان فى ظل أمير حام ، أو عن المحارب الراكب على فرس ناشط مدرب (رقم 146 بيت 8) .

وقد يعنى بالنجم كذلك نور الذكاء (أنظر ما سبق ص 137) أو سمو المقام الدال على جلالة الانسان فى سيرته (رقم 149 بيت 31) .

وأما النجوم المجتمعة فهي فى التشبيه ، عبارة عن جمال عائلة فى خلقتها ، وفى أخلاقها . وقد عثرنا فيما سبق على صورة شبه ابن خفاجة فيما بني وحيم بالثريا (أنظر ص 150) .

وقد ذكر ابن خفاجة الشهب مرات عديدة (انظر رقم 1 بيت 29 رقم 203 بيت 5 رقم 211 بيت 3 رقم 267 بيت 3) ، ليعبر عن السرعة والفورية فى الحركة ــ فشبه الشاعر الفرس المقدام ، أو المحارب المهاجم المنقض على العدو ، أو الرمح المسلول بقوة وحزم ، بالشهاب وأما البدر (رقم 173 بيت 25 رقم 198 بيت

17 رقم 267 بيت 1) فهو من قديم الزمان ، وعند سائر الشعراء يعبر عن الجمال الباهر لوجه مستدير لطيف أبيض الاديم (أنظر ما سبق ص 192 ورقم 6 بيت 49) كما يعبر عن حسن الخلق ، وصفاء الخاطر ، وعن بشاشة الامير الحامي ولطافة حديثه .

وأما الهلال فقد عثرنا عليه كذلك أكثر من مرة ، ولكن فى صور مختلفة ، متباين بعضها عن بعض من ناحية مضمونها ــ فيشبه به الشاعر تارة حية ساكنة مستقرة ، وتارة قوسا يخرج السهم منه (انظر رقم 70 بيت 13 ــ 249 2) . وقد رأينا سابقا العلاقة التي وضعها ابن خفاجة بين تميم أبي الطاهر فى عهد الطفولة ــ مع أنه كان يمتاز بصفات الكهولة ــ والهلال الذي هو عبارة عن ابتكار عبقرية وقد عمد الشاعر أيضا الى المجرة ليعبر عن شكل نهر شقر مثلا أو عن لمعان مياهه . (انظر ما سبق ص 250 ورقم 290 بيت 2) .

وقد استعمل ابن خفاجة الشمس كمشبه به ثلاث مرات فى ديوانه (رقم 57 بيت 1 رقم 119 بيت 15 رقم 219 بيت 4) ولما كانت الشمس مصدر الحرارة والضياء فانها تمثل فى نظر شاعرنا السرور والسعادة وحياة النعيم . يقول مثلا :

1 ــ ألاهل أطلَّ الأَمير الأَجلُّ   له الشمس حلَّت برأس الحمل

(رقم 57)

وأما أشعتها القاهرة فهي عبارة عن الجمال الباهر ، وقد رأينا فى دراستنا للاغراض الغزلية ان ابن خفاجة شبه الوجه أو الجبين

بالفجر أو الصبح لنورهما الساطع (أنظر ما سبق ص 186 ورقم 108 بيت 2) . وهو يعمد الى الليل والاصيل ليعبر عن لون الاشياء المشار اليها ـ فقد شبه الشعر القاتم السواد (انظر ما سبق ص 186 رقم 108 بيت 2) أو الفرس الاسود الشعر (رقم 195 بيت 6) بالدجى المظلم أما خد الحبيبة المتلون (رقم 113 3) أو وجهها المحمر حياء (رقم 68 بيت 1) . فقد شبههما بلون الاصيـــل .

وأكثر ابن خفاجة فى ديوانه من تشابيه تعبر عن أهم الحوادث الجوية فجاء بالسحاب (رقم 49 بيت 22 رقم 52 بيت 24 رقم 92 بيت 1 رقم 130 بيت 47 رقم 132 بيت 2) . وقتما تدفعه الرياح فيسير بسرعة معبرا عن صورة الفرار والانهزام ، ثم يذكر من جهة أخرى ، الندى والمطر والمياه بصفة عامة للتعبير عن الكرم والسخاء والسعة فى الحياة فيقول مثلا فى حق ممدوحه :

24 ـ عَلِقَتْ بها حُر الثَّنَاء عمِيـــلةٌ

أَنْدَى يَدَيْن من الغمام المُرزِم

(رقم 52)

ويقول أيضا :

31 ـ غشِيتُ به أندى من المزن راحــة

وأطيب أفياء وأَمْرعَ مرتَعَـــــا

(رقم 9)

ويستعمل المياه (رقم 104 بيت 3 رقم 142 بيت 2 رقم 190 بيت 9 رقم 217 بيت 1 و 5 رقم 219 بيت 3) ، فضلا عما سبق ليعبر عن النقاء والصفاء ، وعن انصياع سيلانها وبرودتها وجمالها. ولهذا تكرر ذكرها كثيرا فى الديوان .

وأما عن الرياح ، التي ورد ذكرها أكثر من مرة فى التشابيه (رقم 37 بيت 5 – رقم 50 بيت 3 رقم 133 بيت فى الهامش رقم 132 بيت 2 رقم 173 بيت 38) فان ابن خفاجة استعملها ليعبر عن حركة نفسانية أو عن طرب شديد : فيقول مثلا :

4 – وأصغى الى لَحْنٍ فَصِيح يهـزه

كما هزّ نَشْرُ الرّيح ريحانة سَكْـرى

(رقم 41)

كما يعبر بها عن حركة جيوش فى لفها العدو :

16 – وقد لفَّ العدُوَّ كأَنَّ ريحـا

على شَرَفٍ تَلَفُّ به هَشِيمَـا

(رقم 67)

ثم يشبه ابن خفاجة بالبرق كل ما هو لامع ساطع متحرك بسرعة وخفة .

وأما الامواج المتلاطمة فى البحار الهائجة (رقم 2 بيت 86 رقم 9 بيت 43 رقم 49 بيت 20 رقم 85 بيت 3) . فهي تعبر عن المظاهر العنيفة الشديدة القاسية مثل الاشتباكات فى المعارك ،

أو هي تعبر عن الجيش العرمرم ، وذلك لما توحي به هذه الامواج من قوة فى حركاتها ، بحيث لا يستوقفها شيء فى اقدامها وهجومها على السواحل . وقد تأتى لابن خفاجة أيضا أن يشبه الفرسان المنقضين على العدو بالامواج .

وفى سياق هذا الكلام جاء ذكر السيل المندفع من أعلى الجبال للتعبير عن حركة الحية المتوجهة نحو فريستها .

وقد ورد ذكر الجداول مرة واحدة فى الديوان كمشبه به اذ التفت ابن خفاجة الى المياه السائلة بهدوء واستمرار ليعبر عن الدموع الهاطلة من شدة الالم والحزن (رقم 304 بيت 3) .

وقد استعمل ابن خفاجة الجبال والبطاح مرة واحدة فى الديوان فى تشبيه مقرون بطباق . فذكر الجبل ليعبر عن الجلالة وعلو الهمة والابهة الاريسطوقراطية ، كما ذكر البطحاء ليعبر عن السهولة واللباقة ولطافة الاخلاق ... وذلك فى هذا البيت فى الحنين الى أصدقاء غائبين :

8 ـ لهم هِمَمٌ كما شمخت جبال
وأخلاق كما دَمُثَتْ بِطَاح
(رقم 91)

وأتى الشاعر مرة واحدة كذلك فى الديوان بفصل الربيع تعبيرا عن الحلل الفاخرة الزاهية وما المراد منها الا شهرة الممدوح التي تسبق صاحبها الى كل مكان فتزيده رونقا وجمالا . (انظر ورقم 172 بيت 25) . ولا يفوت ابن خفاجة فى قصيدة مدح الا يشبه حاميه بالجنان اليانعة الطيبة الروائح .

وقد ترددت هذه الصورة مرارا فى ديوانه (أنظر رقم 199 بيت 49 و 50) وأما الغصن فقد استعمله ابن خفاجة كمشبه به فى صور عديدة . وقتما يكون ساكنا قارا أو متحركا بفضل مهب الرياح . واليك مضمون بعض هذه الصور : فرؤية الشاعر الذي يتراوح دائما بين التوبة وحياة اللهو واللذة تذهب بابن خفاجة الى ذكر الغصن الذي يتمادى يمينا وشمالا (رقم 71 بيت 11) . كما يذكره فى بيت آخر ليشبه به الساقي لنعومته واستقامته (رقم 188 بيت 10) . أو لانعطاف قده تحت أثر الخمر وترنحه فى سيره (رقم 286 بيت 1 و 2) واذا أراد ابن خفاجة أن يعبر عن بشاشة الممدوح وانطلاقه لجأ الى الغصن وقد تفتق نوره (رقم 175 بيت 36) . وانظر أيضا ما جاء فى الصور رقم 89) بيت 7 رقم 196 بيت 17 رقم 286 بيت 3) .

وأما التشابيه التي نجد الازهار فيها مستعملة كمشبه به فهي عديدة جدا وكلها تقليدية معروفة ، فقد استعمل الشاعر الوردة والجلنار ، للونهما ، فى وصف الخمرة ذات الحمرة القانية . (أنظر رقم 122 بيت 2) أو الفرس ذي الشعر الاشقر (رقم 73 بيت 2) .

وأما العنم فانه للونه أيضا يشبه به أطراف البنان المطلية بالحمرة (أنظر ما سبق ص 205) .

وأما الآس فيشبه به تارة أذن الفرس (رقم 73 بيت 2) ، وتارة العذار الناشىء فى الخد (أنظر ما سبق ص 199) ، وتارة شعر الاصداغ .

وتشبيه العين بالنرجس (رقم 173 بيت 2) ، والفم بالاقحوان، والاسنان بالاقاح ، والخد بالورد ، والجيد بالسوسن كثير الاستعمال فى الشعر الغزلي لدرجة فقدت هذه التشابيه معها كل ما فيها من طرافه (أنظر رقم 278 بيت 36) .

ولو انتقلنا الآن الى الطبيعة الحية لرأينا أن ابن خفاجة خص بالذكر الاسد فى أبيات عديدة (انظر رقم 49 بيت 21 رقم 50 بيت 10 رقم 57 بيت 9 — رقم 165 بيت 37 .) فكلما أراد أن يمدح حاميه بما يتصف به من شجاعة وحماسة فى المعارك عمد الى التشبيه بالاسد ، لما يمثله هذا الحيوان من صفات الحرب مثل الشجاعة والاقدام ، ومن الصفات الاريسطوقراطية مثل الجلالة والقوة والاصل الشريف .

وأما الحية فقد ورد ذكرها كمشبه به أربع مرات فى الديوان (انظر مثلا رقم 223 بيت 7 ورقم 294 بيت 1) .

فرؤية نهر ذي مياه سائلة بهدوء فى مجراها الملتوي وسط السهول تذكر الشاعر لا محالة بالحية المتثاقلة فى انسيابها (رقم 48 بيت 6) .

ولنلاحظ ، لئلا يلتبس علينا الامر ، أننا قد عثرنا فيما سبق على تشبيه معاكس لهذا ، اذ شبه الشاعر الحية التي ارتمت عليه بالأتي النازل من الجبل لسرعتها وعنفها (أنظر ما سبق رقم 70 بيت 22) . وقد استعمل ابن خفاجة الحية كمشبه به للتعبير عن الفرس فى عدوه ، اذ يقوه :

6 ـ جاذبتُه فَضْلَ العنان وقدطغى

فانصاع ينساب انسياب الأرقم

(رقم 185)

وشبه الشاعر كذلك القوس فى يد الرامي بالحية (انظر ما سبق ص 220) .

وأما العقرب فقد ورد ذكرها مرة واحدة فى الديوان فى صورة تشبيهية رائعة حيث قرنها ابن خفاجة بالهلال فقال :

7 ـ وسرى الهلال يَدِب فيهاعقربا

وانساب مُنْعَطِفُ المجرّة أرقما

(رقم 223)

وأما النعامة فهي تمثل الصفات التي تمثلها الارنب فى الادب الفرنسي أي الحذر والخوف المفرط والفرار الشديد أمام أي حدث يقع . فهذا الحيوان هو الذي يستعمله الشعراء ليتهكموا بالعدو ، وما يضمره من خوف . يقول ابن خفاجة مثلا :

21 ـ عرضتْ له واللَّيث دونكَ جرْأةً

فأَجفل إجفال النَّعامة تَجزَعُ

(رقم 49)

وقد كان للغزال الحظ الاوفر من بين الحيوانات لدى الشعراء الذين لم يملوا التشبيه به للتعبير عن لطافة وأناقة الحبيبة ، وسحر عيونها الواسعة اللامعة (أنظر ما سبق ص 189) .

وأما الغراب فانه على العكس لم يكن محبوبا لدى الناس ، للونه الاسود ونعابه الحزين ، فلم يستعمله ابن خفاجة الا ليعبر عن الليلة الليلاء ، وقد أرخت سدولها . (أنظر ما سبق 237 رقم 82 بيت 5) . أو عن ليالي النحس التي تمنعه من التمتع بفضائل ممدوحه (انظر ما سبق . رقم 159 بيت 4) .

ولنذكر بهذا الصدد الحمام الصادح الذي يعبر به عادة عن الكآبة والحزن . (رقم 7 بيت 24) .

ولقد رأينا ولوع العرب بالفرس (انظر رقم 175 بيت 49 ـ 226 بيت 9) الذي كان مطيتهم فى ظروف مختلفة كالسفر والحرب والصيد وهلم جرا ... فلا غرابة اذن أن يستعمله الشعراء كثيرا فى تشابيه عديدة .

فقد شبه ابن خفاجة داعي الردى ، فى حرصه على تأدية واجبه ، بالافراس المتسابقة فى عدوها (أنظر ما سبق 164 رقم 165 بيت 15) . وقد شبه بها فى موضع آخر القبل المتوالية بسرعة التي يأخذها الحبيب من خد الحبيبة وهو خد يشبهه ، بطبيعة الحال ، بالملعب (أنظر ما سبق ص 196) .

ولنذكر فى النهاية الصورة التشبيهية التي تشبه فيها الزوارق المصطفة جنبا الى جنب بأفراس السباق 0 (أنظر ص 221 رقم 203 بيت 15) .

ولكي ننتهي من الصور التشبيهية الناشئة عن البصر ينبغي أن نكتفي بذكر أهمها .

ـ تشبيه الكأس بالفضة المتجمدة والخمر بالذهب السائل (أنظر ما سبق 174 رقم 190 بيت 9 و 10) .

ـ أسنان الحبيبة (رقم 6 بيت 3) وكذلك الحباب الذي يعلو الخمر فى الكأس (أنظر ص 174) باللؤلؤ .

ـ مضمون قطعة شعرية جيدة بالياقوت والمرجان (رقم 53 بيت 6) .

ـ الاشفار بالسهام والحاجب بالقوس (رقم 75 بيت فى الهامش) .

ـ استقامة قد الحبيبة وأنياب كلاب الصيد وسيقانها بالرماح (أنظر رقم 2 بيت 30) .

ـ سطح الماء بالدرع (رقم 48 بيت 7) .

ـ الصبح بالسيف المسلول والليل بالغمد (رقم 82 بيت 12)

ـ البرق باللواء الخضيب أو الرداء المذهب (رقم 238 بيت 10) .

ـ المطر بالفضة والأزهار بالدنانير (أنظر ما سبق رقم 99 بيت 23) .

ـ الشمس (رقم 2 بيت 68) والشعرى (رقم 47 بيت 2) بالدينار .

ـ أديم أسود بالفحم ، وكأس الخمر فى يده بالجمر (انظر ما سبق 173 رقم 27 بيت 3) .

وأخيرا تشبيه مقرون بطباق ، اذ يشير ابن خفاجة الى ممدوح جمع بين العزم والرحمة فيأتي بصورة النار والماء فيقول :

20 ـ وكأنَّه من عزمةٍ في رحمـة

مُتركِّبٌ من جَذْوة في مـــاء

(رقم 3)

والتشابيه الناشئة عن الشم قليلة بالنسبة للنوع السابـق (انظر مثلا رقم 2 بيت 54 ـ رقم 150 بيت 60 ـ رقم 178 بيت 12) كما يشبه بها شعرا راقه ، وقد تأتى له هذا التساؤل بروائحه الطيبة ، كمشبه به ، وهي صورة كان يستحسنها جدا . وقد كان المشبه تارة :

ـ شهرة الممدوح ومجده ـ فيقول :

49 ـ فما روضة غَنَّاءُ في رأس رَبْوَة

تُعَلُّ بِمُنْهَلٍّ من المُزن ساجـم

50 ـ بأَحسن مرأى من حلالك لناظر

وأعطر نشرا من نَثَالِكَ لِناسـم

(رقم 199)

ـ وتارة التحيات التي يبعث بها الى الاصدقاء ـ فيقول :

47 ـ تحمّلْ الى قاضي القضاة تحية

تبيت بِمَلْقَى رحـلِه تـتردّد

48 ـ تضوع كما فاحتْ مع الفجر روضةٌ

وطاب بريح المَنْدَلِ الرّطب مَوْقِدُ

(رقم 149)

ـ وتارة مضمون مقطوعة شعرية جيدة راقت الشاعر فقال :

12 ـ وصحيفة .....

15 ـ فكأَنَّ رَوْضًا باتَ يفتُقُ نَوْرُهُ

فيها وطاووسًا يمُدّ جناحـــــا

(رقم 227)

ويشبه شاعرنا ذكرى حبيب عزيز بالرائحة الطيبة (رقم 159 بيت 12) كما يشبه بها شعرا راقه ، وقد تأتى له هذا التساؤل البليغ فى أسلوب خطابي .

1 ـ أنفحةُ طيبٍ ما تنسَّمْتُ أم نظم

وفضلةُ كأسٍ ما ترشَّفتُ أم ظَلْمُ

(رقم 226)

وكثيرا ما يصرح ابن خفاجة بنوع الطيب المشار اليه : فيذكر مرارا المسك الذي يشبه به نفسا عليلا للحبيبة (رقم 6 بيت 3) . أو تحية الصديق لصديقه (رقم 159 بيت 3) أو كأسا مترعة بخمرة عابقة (رقم 278 بيت 34) . ثم يذكر الشاعر أيضا الريحانة التي يعبر بها عن ليلة لهو فيقول :

6 ـ وباتَ يسقيني بحيث الدّجى

ريحانةٌ يضربها القطر

(رقم 116)

(انظر أيضا 53 بيت 1 ـ رقم 99 بيت 27) .

أو عن ذكرى حبيب تملأ نفسه غبطة وفرحا (رقم 99 بيت 27) . ويشبه فى بيت رائع من الشعر تحياته للحبيب بماء الورد المنهمى عطرا (رقم 159 بيت 3) .

وأما التشابيه المنسوبة الى السمع فهي قليلة العدد كما أشرنا آنفا ـ فاذا أراد الشاعر أن يصف صوتا رخيما شبهه بتغريد المكاء (رقم 3 بيت 24) ـ والحمام ، ذلك الطائر اللطيف بما فى تغريده من حنان وتشوق ، كان محبوبا عند الشعراء ، وهكذا يذكر ابن خفاجة الورقاء ، بما ترمز اليه عادة من كآبة وحزن ، اذ يشبه ندب الباكي بتغريد الحمامة (رقم 7 بيت 24) .

وأما التشبيه الذي يقرن فيه ابن خفاجة بين حديث الحبيب ـ وهو المشبه ـ وبين لسان المبشر وهو المشبه به ـ فلم يكن تشبيها عاديا : فيقول :

50 ـ رَطْبُ الكلام على سَماعِ جليسه

فكأنَّ في فيهِ لِسَانُ مُبَشِّرَ

(رقم 6)

ولنذكر أخيرا هذا التشبيه اللطيف الرقيق الذي يشبه فيه ابن خفاجة خرير المياه السائلة بالبكاء ، وتغريد طائر بالنواح (انظر

ما سبق ص 216 ــ رقم 89 بيت 3) . وانا لنجد فى هذا البيت تشبيهين حذفت منهما أداة التشبيه .

ولقد عثرنا اثـر دراستنـا للاغراض الخمـرية على بعض التشابيه التي يرجع مضمونها الى الذوق . ولكن عددها قليل فعلا ، لا يتجاوز العشرة . يذكر ابن خفاجة خمرة رقيقة عذبة يشبه بها أخلاق ممدوحه فيقول :

1 ـ أسجايا كما تَرِقُّ المُدامهْ وعطايا كما تُرِيقُ الـغمـامَهْ

(رقم 92)

أو يشبه الخمرة ، بما تبعثه فى الانسان من حرارة ونشوة ، بالطرب الذي يستولى على قلب الشاعر عندما يذكر صديقا من أصفيائه (أنظر رقم 99 بيت 27 و 28) .

وأما العسل فيشبه به ، بطبيعة الحال ، العطايا والهدايا التي يجود بها الممدوح على مادحه (رقم 153 بيت 9) . كما تشبه القبل التي تسمح بها الحبيبة بالثمار اللذيذة الطعم (أنظر رقم 212 ــ بيت 4) . وقد رأينا أن ابن خفاجة كان لا يظن بالبحر خيرا ، اذ يقضي عليه بدون تردد فى بيت تضمن الشطر الثاني منه الشبيه الذي يهمنا فيقول :

2 ـ فَائِدهُ مثلُ قَعْرِهِ بعُـدا ورزقُه مثلُ مـا بـه طعمـا

(رقم 271)

وقد وردت بعض التشابيه التي يرجع معناها الى حاسـة اللمس ، فكثيرا ما أشار ابن خفاجة فى قصائده المدحية الى ندى

الغمامة وعذوبة النسيم العليل ليتغنى بما اتصف به ممدوحه من كرم وبشاشة وغيرهما مما لا يخفى علينا .

وينبغي أن نخص بالذكر على حدة ما سميناه بالتشبيه العقلي ـ وهي الصورة التي تتطلب لادراكها وفهمها أن يفكر فيهـا القارىء ، لأن المشار اليه فى المشبه به لم يكن محسوسا ماديا ، وان كان مصدره الجمع بين شيئين حسيين . وهذا النوع من الصور نادر جدا فى ديوان ابن خفاجة ، وقد عثرنا على تشبيه الأمير تميم ، فى صباه وما كان يمتاز به من ذكاء وفطنة ، بالهلال الذي تم يوم استهلاله . (أنظر ما سبق رقم 1 بيت 50) .

كما عثرنا على تشبيه الحباب الذي يعلو الخمرة فى كأسها بفتاة شابة علا رأسها الشيب (أنظر ما سبق ص 177) .

واليك أخيرا هذا المثل الذي يرد فى قصيدة مدحية :

10 ـ ولثمتُ ظَهْرَ يَدٍ تَنَدَّى حُـــرَّةً
فَكَأَنَّنِي قَبَّلتُ وجـــه السَّمــاء

(رقم 3)

ويعتبر من الصور العقلية كل تشبيه لا تظهر فيه العلاقة بين المشبه والمشبه به الا بعد التأمل ، وهكذا الحال فى تشبيه أبي اسحاق بالشمس ، فهو تشبيه يستلزم الرجوع الى ما يرمز اليه هذا الكوكب لنتوصل الى ما كان يعنيه الشاعر (رقم 57 بيت 1) والعلاقة بين المياه الجارية والدموع المنهمرة سهلة الادراك بخلاف العلاقة التي وضعها الشاعر بين الدموع السائلة على الخـد

والجيش فانها ليست جليـــة ولابد أن يتأمل فيها الانســـان . (رقم 269 بيت 4) . الا أننا فضلنا أن تتكلم عن هذه الصور فى التشابيه الحسية ليكون عرضنا واضحا .

ويبقى لنا أخيرا نوع آخر فى نطاق الصور العقلية الفكرية وهي التي يكون فيها المشبه به معنوي غير محسوس ــ والامثلة فى ديوان ابن خفاجة على ذلك غير قليلة ، اذ يقول الشاعر مثلا فى وصف فرس :

8 ــ أحمَى النجم من يوم معركة ظهرا وأجْرَى به من القَدَر

ويشبه ابن خفاجة فى موضع آخر ممدوحه بأنه طلق الوجه . كمن يستقبـــل الشبـــاب المـــدير (أنظر ما سبق رقم 6 بيت 49) . كما يشبه الكلام السلس على السماع بالنوم المترقرق بين جفني الناعس . (انظر ما سبق . رقم 173 بيت 23) .

واليك فى النهاية بيتا شعريا رائعا يذكر فيه ابن خفاجة حبيبته فيقـــول :

31 ــ وأقبل أشهى من قرار على نَوًى

وَغَمْضٍ على سُهْدٍ وَرَوْحٍ على جُهْدِ

(رقم 278)

ب) الاستعـــارة

استعمل ابن خفاجة الاستعارة فى شعره أكثر مما استعمـــل

التشبيه ، ويحتوي ديوانه على 1866 استعارة وهو ضعف ما يحتويه من التشابيه . وقبل أن تتعرض لدرس هذه الصورة البيانية عند شاعرنا ينبغي أن نحدد معناها تحديدا دقيقا حتى يظهر لنا الفرق بينها وبين التشبيه . وهذا عبد القاهر الجرجاني يقول : « الاستعارة أن تريد تشبيه الشيء بالشيء فتدع أن تفصح بالتشبيه وتظهره وتجيء الى اسم المشبه به فتعيره المشبه وتجريه عليه » وهكذا يمكن للشاعر أن يقول مستعملا التشبيه فى تعبيره : « بدت حبيبتي جميلة كالبدر » فاذا استعمل الاستعارة قال « بدا البدر » ومن الوسائل العادية فى الاستعارة هي أن نعتبر المشبه به أمرا حقيقيا ونأتي بالمشبه خبرا متعلقا به ، فمن التشبيه الآتي : « انتشر الليل كأنه طائر فتح جناحيه » يمكن أن نستخرج الاستعارة هذه : « جناح الليل » (انظر دلائل الاعجاز ص 45) .

وليتجلى لنا الفرق بين التشبيه والاستعارة واضحا رأينا أنه من المفيد أن نذكر قول ر . والتز 159 الذي وفق أكثر من غيره فى التعبير عن تباين هاتين الصورتين فقال : « ان الاستعارة تبدو قاب قوسين من التشبيه ولكن الفرق بينهما فى الحقيقة عميق . وليست الاستعارة تشبيها ملخصا موجزا،ولكنها صورة مستقلة . صادرة عن حركة فكرية مخالفة له كل الخلاف ، فعملية الفكر التي تتطلبها الاستعارة بل تفرضها فرضا ، عملية تتسم بمزيد من الشدة والسرعة » . وفضلا عن هذا فان الاستعارة تبرز عندما يعبر عن أهواء الانسان وعقائده أو عن عواطفه الفعالة .

ويسوغ لنا أن نقول ــ نظرا لضخامة عدد الاستعارات التي يتضمنها الديوان ــ ان ابن خفاجة كان متمتعا بخيال متوقد ، وباحساس شديد فباح بأسراره وعبر عن عواطفه بسهولة واخلاص . واذا اعترفنا بذلك نكون قد نسينا بسرعة مع الاسف أن أغلب الصور التي نجدها فى الديوان ما هي الا صور قديمة متداولة بين الناس يجري بها القلم دون أن يشعر بذلك صاحبه . الا أنه ينبغي أن نحتاط فى حكمنا هذا حتى لا نقع فى خطأ آخر ، فلا ننظر الى انتاج ابن خفاجة بعين الاعتبار ولا ننصفه بانكارنا كل ميل من جانبه الى الشعر الغنائي ولقد عثرنا فعلا فى ديوانه على مقطوعات شعرية رائعة حيث صارحنا ابن خفاجة باخلاص غير مشكوك فيه فأطلعنا على آلامه وأحزانه ، على سروره وسعادته ، وعلى أمانيه وآماله .

ودراسة الاستعارات فى شعر ابن خفاجة دراسة صعبة عويصة، وذلك لكثرة صور هذه الاستعارات واختلافها . وقد حاولنا ترتيبها حسب مضمونها فميزنا بين فريقين هامين : الصور التي ترجع الى الانسان (الذات والملابس وجميع مظاهر الانسان) ، ثم الصور التي ترجع الى الطبيعة .

ونزعة الشاعر الى احياء جميع الاشياء وتشخيصها سمحت له بأن يأتينا بعدد عديد من الاستعارات التي ينسب فيها ما يمتاز به الانسان الى الجماد ، أو الى أشياء معنوية وهكذا تأتى له أن يقول :

ـ وجه السماء (رقم 3 بيت 10) والليل (رقم 1 بيت 155)

والموت (رقم 5 بيت 41) والأزهار (رقم 2 بيت 17)

- فود الليل (رقم 1 بيت 24 و جبين النهار (رقم 2 بيت 1) والبدر (رقم 139 بيت 48)

- عين النجم (رقم 1 بيت 13) وعيون الرماح (رقم 126 بيت 19)

- ثغر الحسن (رقم 130 بيت 60) والدنى (رقم 57 بيت 6)

- لسان البرق (رقم 148 بيت 3) .

- جيد الغصن (رقم 130 بيت 49) نحر الثرى (رقم 31 بيت 1) والروض (رقم 130 بيت 49) .

- منكب الصبا (رقم 1 بيت 25) والجبل (رقم 164 بيت 11)

- ضلوع الليل (رقم 1 بيت 15) .

- معاطف الأنهار (رقم 2 بيت 13) .

- واعطاف القضيب المورق (رقم 180 بيت 1) .

- متون الربى وبطون البطاح (رقم 126 بيت 3) .

- أرداف الرّبى (رقم 2 بيت 17) .

- يد الهوى ويد الفجر (رقم 1 بيت 23) .

- قلب البرق (رقم 1 بيت 13) .

- أحشاء الليل (رقم 7 بيت 11) .
- لمم الربى (رقم 148 بيت 5) .

ونعثر على استعارات أخرى تزداد حيوية عندما ينسب إليها إبن خفاجة حركات الإنسان وعواطفه فيقول مثلا :

- مباسم النوار (رقم 2 بيت 15) وبشاشة الروض (رقم 4 بيت 1) .
- ودمع الطل (رقم 2 بيت 8) .
- وشجرة النارنج تبتسم وتغضب (رقم 19 بيت 8 .) الأرض تضحك والجوّ جهم قاطب (رقم 31 بيت 3) .
- ينام الدين (رقم 149 بيت 26) خطو الليل (رقم 47 بيت 10) .
- والدمع طليق والانجم أسرى (رقم 114 بيت 2)

والموجة فى حركاتها المستمرة آتية ذاهبة تذكره بالعشيقة المتدللة المتمنعة تارة الراضية تارة أخرى : فيقول : ولجة تفوق أو تعشق (رقم 90 بيت 1) . والريح تلطم ... وتلثم (رقم 2 بيت 17) .

وأما الالفاظ المختصة بالملابس فهي أقل عددا ، ولنذكر مثلا : ثوب الشباب (رقم 133 بيت 5) وقناع الكآبة (رقم 133 بيت 6) برد الدجنة (رقم 130 بيت 22) ورداء السحاب (رقم 1 بيت 25) وقلادة النور (رقم 65 بيت 10) . وقلائد الانجم

(رقم 31 بيت 3) وهو يستعمل ذيل الرداء ومعاطفه للتعبير عن التهادي فى السير ، ويستعمل التأني عن الجلالة ، والابهة عن الكبرياء والزهو بالنفس فيقول مثلا : ذيل ازار المجد (رقم 3 بيت 6) والليل (رقم 1 بيت 25) والسحاب (رقم 188 بيت 4) وذيول اللهو (رقم 182 بيت 1) .

وأما الاستعارات التي سمحت بها الطبيعة فهي عديدة جدا ومتنوعة ، وهذا مما لا غرابة فيه لعلمنا بتعلق شاعرنا بهذه الطبيعة بما فيها من رياض وأشجار ومياه وأزهار ، فجاءنا بصور بدل الاشياء التي كان يشاهدها أو الافكار التي كانت تخطر بباله .

فالماء بصفة عامة يعبر عن الكرم والجود (رقم 5 بيت 15) ، وهو تارة الندى أو المطر أو السحاب أو الامواج المزيدة أو العباب الطامي ؟ (رقم 2 بيت 24) . وأن شعر الغزل المفعم عنده بالصور التي يعبر بها عن جمال الحبيبة ومحاسنها الفتانة ، وقد رأينا فى دراستنا للتشبيه مختلف الازهار وما يرمز بها اليه كما رأينا البدر الساري ... والغصن الاملد يمثل القد اللطيف الرهيف (رقم 40 بيت 5) والكثيب الردف الريان (رقم 15 بيت 3) .

ولنذكر فى النهاية الصور الآتية :

ورق الشباب الاخضر (رقم 6 بيت 2) والظلام (رقم 167 بيت 2) ووادي الهوى (رقم 7 بيت 6) ، وظلال المنى وثمار الرضى (رقم 46 بيت 2) .

ان ابن خفاجة لم يستنجد بالحيوانات الا قليلا ، وذلك واضح من استعاراته، وهو يذكر الطائر فى عبارات شعرية عديدة فيقول : جناح النجاح (رقم 126 بيت 18) أو الهوى (رقم 160 بيت 2) وغراب الدجى (رقم 167 بيت 1) ونعثر على المقابلة بين الحمامة والغراب تعبيرا عن الشباب والشيخوخة (رقم 77 بيت 13) .

وهذه الكمية العظيمة من الصور ، استعارات وتشابيه ، تكاد تكون كلها مشتركة بين الشعراء خلال العصور . ولقد لفتنا الانظار ، اثر دراستنا الاغراض الشعرية ، الى بعض الصور الجديدة الطريفة التي ابتدعها ابن خفاجة . ويبدو لنا أنه من المهم أن نميز بين الصور التي هي معهودة يعثر عليها عند الكتاب والشعراء وبين تلك التي يرجع فيها الفضل الى شاعرنا . ولكن بحثا كهذا لا تتحمله رسالتنا هذه لامتداده وسعته .

2) علم البديع :

اهتم ابن خفاجة اهتماما خاصا بالعبارة والاسلوب ، فبذل جهودا جبارة فى اعطاء نظمه رونقا خاصا ، وذلك بتجديد صور قديمة ، أو بابتداع صور طريفة ، ومن الطبيعي أن يستعمل شاعر ، كانت رغبته التفنن فى انتاجه الشعري ، كل ما يسمح به علم البديع من وسائل تتيح لبيت الشعر تلك القوة الساحرة التي تطرب القارىء فى أعماقه .

ونذكر من أهم الصور البديعية التي استعملها ابن خفاجة ما يلي :

1 ــ الجناس : وهي صورة أتى بها شاعرنا مرارا . وقد أحصينا فى ديوانه 688 جناسا .

وينبغي أن نميز هنا بين نوعين من الجناس : النوع الأول : الجناس المماثل « وهو ما اتفق ركناه وتماثلا لفظا وخطا واختلفا معنى من غير تفاوت فى تركيبهما واختلاف فى حركاتهما سواء كانا من اسمين أو فعلين أو من اسم وفعل أو من اسم وحرف وكانا من نوع واحد » ، وهذا النوع ــ وهــو أكمل صورة للتجنيس وأرفعها رتبة ــ لم يتردد بكثرة فى الديوان ، اذ لم نعثر الا على نحو عشرة صور منه ، ولنذكر على سبيل المثال بعضا منها :

4 ـ نجمتْ تروق بها نجوم حَسبُهَا

بالأَيكة الخضراء مــن خضراء

(رقم 24)

ويقــول :

7 ـ وَالشهْب شهْبٌ والعجاجة سُدْفَةٌ

وَالشُّقْر جَمْرٌ والقتام دخـــان

(رقم 276)

ويقول أيضا :

8 ـ وللشِّعر عندى كلَّما ندب الصِّبى

فأَبكي محلَّ الحق الشِّعرَ بالشَّعــرَهْ

(رقم 105)

والنوع الثاني المسمى بتجنيس القلب وهو ما تساوت حروف ركنيه عددا وتخالفت ترتيبا . وحظه مثل حظ ما سبق ذكره .

وقد أحصينا كذلك نحو العشرة فى الديوان واليك بعضها :

1 ـ كتبتُ، وقد خَضِرَتْ راحتي

فهل من حريق لكأس الرَّحيقْ

(رقم 84)

ويقول :

5 ـ وأَركبُ أرداف الربى مُتَسَنِّمـا

فأَنشَقُ أنفاس الصَّبا مُتَنَسِّمَـا

(رقم 147)

اما الجناس الذي ورد ذكره مرارا فى الديوان فهو ما اختلف ركناه فى حرف واحد ويسمى الجناس المضارع اذا كان الحرفان متقاربين واما اذا كانا متباعدين فيسمى الجناس اللاحق .

ومثال ذلك :

10 ـ ولمَّا أَنْ نظرتُ مع اللَّيالـى

فلم أنظر بها إلاَّ مُليمـا

11 ـ عبامًا أَو كهامًا أَو جهامًا لئيمًا أَو دميما أَو ذميمـا

(رقم 67)

وهناك نوع آخر من الجناس استعمله ابن خفاجة بكثرة وهو المسمى بالجناس المشتق . وهو عبارة عن أن يؤتى بلفظين يجمعهما الاشتقاق ـ ونحن نعثر فى شعره بطبيعة الحال على جميع أنواع الجناس الاخرى ، الا أن الشاعر لم يكثر منها ، وذلك مثل الجناس الناقص ، والجناس المزدوج ، والجناس المحرف .

2 ـ الطباق : وهو صورة بديعية وردت فى الديوان مرات عديدة ، اذ عثرنا على 268 طباقا . ولنذكر بأن الطباق كما صرح به ابن المعتز هو « الجمع بين الشيء وضده » ويؤتى به لشدة وقعه تأكيدا لمعنى يريد صاحبه ابرازه . ويسمى الطباق حقيقيا اذا كان طرفاه بالفاظ الحقيقة فعلين أو اسمين أو حرفين ، ويسمى مجازيا اذا كان طرفاه غير حقيقيين . واليك بعض الامثلة :

1 ـ تجرَّدتْ عن غَسَقٍ وابتسمت عن فلق

(رقم 117)

كَأَنَّ لهيبا بين جَنْبَيَّ واقداً به وَرَكَايَا بين جَفْنَيَّ تُمْتَحُ

(رقم 205 فى الهامش)

3) وقد نجد صورة بديعة أخرى يستعملها ابن خفاجة كثيرا صورة تأتي فيها أسماء أو أفعال أو نعوت متوالية ، فيجيء البيت مقطعا غير مرسل وأحصينا من هذا النوع 210 صورة وفى كثير من الاحيان يقدم ابن خفاجة نعتا يضفه الى آسماء متعددة عن طريق العطف ، تشارك فيه كما ورد فى البيت الآتي :

3 ـ فَنَادمتُ حُلْوَ البرِّ واللَّفظ واللَّمى

جميل الْمُحَيَّا والْحُلَى والْعوارف

(رقم 129)

واليك مثال آخر حيث تتراكم أسماء التفضيل ، يقول :

7 ـ فما الغصن المطلول أشرف باسسما

وماد أَصَيْلاَنَا على الماء صافيا

8 ـ بألين أعطافا وأحسن هَشَّةً

وأعطر أخلاقا وأندى حواشيا

(رقم 131)

ونلاحظ فى هذا البيت توالي الاسماء ، وتأجيل أهم كلمة الى نهاية البيت .

2 ـ وانتحتْنا من طرفه ويديه ولَماه ووجنتيه مُداهه

(رقم 174)

4) رد العجز على الصدر : وهي صورة كثيرة الاستعمال كذلك وتحديدها أن يكون فيها لفظان مكرران والغرض من ذلك التأكيد على كلمة حتى لا تفوت القارىء أهميتها . وقد أحصينا فى الديوان 200 صورة من هذا النوع ـ يقول الشاعر مثلا :

1 ـ فتق الشَّبَابُ بوجنتيها وردةً

في فرع إسْحِلَةٍ تميد شبابا

(رقم 219)

ويقول أيضا :

40 ـ ولربّ طيّارٍ خفيف قد جـرى

فشلا بجار خَلْفَـــه طيَّــــار

(رقم 2)

5) المبــالغة : عثرنا فى الديوان على 200 صورة منها ، الا أن أكثرها ورد فى القصائد المدحية ، وهذا مما لا غرابة فيه ، لأن تقاليد ذلك العهد كانت تدفع الشاعر أن يبلغ أقصى ما يمكـن من وصف الشيء ، فان تجاوز حد الامكان سميت الصـورة اغراقا ، وأما الافراط الذي ينكره العقل والعادة فيسمى غلوا ، وغاية ذلك كله استرضاء الممدوح (راجع ما سبق ص 127) .

6) اللف والنشر : « وهو حمل اللفظ على اللفظ فى الترتيب ليكون ما يرجع الى المقدم مقدما والى المؤخر مؤخرا » .

ومثال ذلك قول ابن خفاجة :

2 ـ فإذا رنا وإذا شـــــدا وإذا سعى وإذا سَفَـــــرَ

3 ـ فضح الـمدامــة والحما مـة والغمـامـة والقمــر

(رقم 96)

أما الانواع الاخرى من الصور البديعية فقليلة الاستعمال فى ديوان شاعرنا بالنسبة لما سبق ، الا أننا نجد حوالي مائة مـن « المزاوجة » وكذلك الامر فيما يتعلق بالاعتراض .

3) العروض :

لم يفاجئنا ابن خفاجة بشيء جديد فى هذا الميدان ولو ألقينا نظرة على البحور التي استعملها يتجلى لنا أنه ، كشاعر تقليدي ، اكتفى بالاقتداء بالشعراء الاولين ، ونجد فى شعره جميع البحور ما عدا أربعة لم نعثر عليها فى الديوان وهي : الهزج والمضارع والمقتضب والمتدارك ـ وأما البحور الباقية فقد حاولنا ترتيبها بالنسبة لتردادها فأحصينا عددها ووضعنا النسبة المائوية لكل بحر منها : فجاء الجدول الآتي :

1) الطويــل	:	1302	بيت	أي	٪ 39،4
2) الكامــل	:	1032	=	=	٪ 31،33
مجزوء الكامل	:	76	=	=	٪ 2،3
3) المتقارب	:	272	=	=	٪ 8،23
4) الســريع	:	151	=	=	٪ 4،54
5) الـــوافـــر	:	131	=	=	٪ 3،96
6) البسيط	:	110	=	=	٪ 3،32
مخلع	:	70	=	=	٪ 2،14
مجزوء	:	4	=	=	٪ 0،12
7) المديد	:	68	=	=	٪ 2،05
8) الخفيف	:	48	=	=	٪ 1،44
9) المجتث	:	33	=	=	٪ 0،95

10) المنسرح	:	28	0،84 ٪
11) الرمــل	:	9	0،27 ٪
مجزوء الرمل	:	11	0،35 ٪
12) الرجز	:	8	0،24 ٪
مجزوء الرّمل	:	4	0،12 ٪

ومن اليسير أن نلاحظ بعد النظر فى هذا الجدول أن ابــن خفاجة قد أكثر من البحرين الطويل والكامل اذ يبلغ عدد الابيات التي قيلت فيهما ثلثي أبيات الديوان ، فهل تسوغ لنا هذه الملاحظة أن نقول بأن شاعرنا كان يفضل هذين البحرين على غيرهما ؟

الجواب عن هذا السؤال عسير جدا ، لأننا لو تأملنا شعر ابن خفاجة لتجلى لنا أنه استعمل هذين البحرين فى القصائد التي مدح بها أمراء المرابطين بخاصة ـ وهي قصائد كما لاحظنا عليه آنفا طويلة بالنسبة لما نظمه فى عهد ملوك الطوائف ، حين كان يتمتع بالحرية الكاملة ، لا حاجة به الى استرضاء رجال السلطة .

وأما البحور الاخرى فهي أقل عددا فى الديوان . ونجدها فى غالب الاحيان مستعملة فى مقطوعات شعرية قصيرة لا تزيد تارة على بيتين . ما عدا البحر المتقارب الذي جاء فى قصيدتين (رقم 5 و 58) الاولى جاءت فى 42 بيتا والثانية فى 58 ـ وهذه كتلك قالهما ابن خفاجة فى المدح .

ويتعجب الانسان من قلة استخدام بحر الرجز عند شاعــر

تغنى بالحياة وبالحب والخمر وهذا البحر عادة يستعمله الشعراء فى هذا المقام لخفته وموسيقيته .

ولو التفتنا الآن الى القافية فلن نجد ما هو جدير بالذكر سوى أن ابن خفاجة كغيره من الشعراء استعمل فى بعض الاحيان ما يسمى « بلزوم ما يلزم » ، حيث التزم بعض الشعراء فى القوافي اعادة ما لا يلزم اعادته ، طلبا للزيادة فى التناسب والاغراق فى التماثـــل .

ومثال ذلـــك :

1) عبرا ــ أخرى ــ بشرى ــ شكرى ... (رقم 105

2) ظلاما ــ غلاما ــ كلامــا ــ ... (رقم 101

3) مسرى ــ أسرى ــ حسرى ــ جسرى (رقم 114

الخلاصة

خلف لنا إبن خفاجة شعرا من لونين ، ويرجع السبب في ذلك إلى الظروف السياسية والإجتماعية . لقد كان في الشطر الأول من حياته شاعرا «أبيقوريا» يتمع بالسعة والشباب والحرية التامة إزاء أصحاب السلطة في عهده ، فنظم الشعر للشعر ليحس بالغبطة والإبتهاج الروحاني الذى تثيره ممارسة هدا الفن ، ولكن . كما قال هو بنفسه ، «إن أيام السرور قصار» لم يلبث أن عرف الجور والظلم وأحس بعبء الهموم والسنين في عهد المرابطين ، عندئذ فرض على نفسه ، رغم أنفته وحبّه لحريته سلوكا جديدا في الحياة ، فبذل جهودا جبارة في البحث عن أمير أو وزير يحميه في شيخوخته ، حتى لا يذوق مرارة الحاجة وهذا ما دفعه إلى نظم القصائد الطويلة في المدح حيث تغنّى وفي نغمة واحدة بجمال الأقوياء وعزّتهم وقوّتهم ، تلك القصائد التي تترك في نفس القارىء نوعا من الكآبة . وإنه لمن المؤسف أن نرى إبن خفاجة - لسوء حظه - يحال بينه وبين مثله الأعلى في الحياة ، فيتخلّي عما كان يحبه ويتذوقه ، ويضطر إلى أن يكون شاعرا رسميا ، شاعر بلاط في خدمة هذا أو ذاك . .

وميزة هذا الإنتاج الشعري هي تنوعه ، فقد مد إبن خفاجة يده أو كاد إلى جميع الأنواع الشعرية : كالرثاء والغزل والمدح والخمريات والزهد ، وغير ذلك بحظوظ متفاوتة . . والأنواع التي يميل إليها ظاهرة جلية ، فكان يرغب ، لرقّة احساسه وحبه اللذّة ، في نظم أبيات شعرية خفيفة يتغنّى فيها برغد العيش والسعادة ، وبما تثير في نفسه من اعجاب تلك المناظر الطبيعية الرائعة التي كانت نصب عينيه في الجزيرة مسقط رأسه .

ويؤكد لنا هذا ما استشهد به الخلف من شعره ، وهو شاهد على أنهم لم يتذوقوا منه الا ما نظم في المرحلة الأولى من حياة شاعرنا .

ورغم ما يتّسم به هذا الإنتاج الشعري من ازدواج ، فاننا نعي صوتا واحدا لشاعرنا يبرهن على وحدة عبقريته : فالطبيعة موجودة حاضرة ، حيث لا يتوقعها انسان تلك الطبيعة المبتسمة ذات الروائح المنتشرة ، الندية تارة المشمسة تارة أخرى ، تعرض أمام الأنظار حلتّها ذات الألوان الزاهية المنسجمة ، الا أنها لا تسمح للعين أن تغوص وراءها وتفضح أسرارها المكنونة انها كالفتاة الغيور على محاسنها ، لا تظهر للناظر الا لتختفي في الحين ، فجاءت تلك المشاهد لطيفة فريدة في نوعها . وقد اكتفى شاعرنا ، لمهارته وسلامة ذوقه ، باشارات خفيفة تستهوى الانسان وتثير خياله ، فاعرض عن الاوصاف الدقيقة

المفصلة الطويلة ، التي ربّما تسبب القلق وتبعث على الملل ففنّ إبن خفاجة ليس هو الوصف المحض وانما هوتأويل لكل ما يشاهده وتشخيص لكل ما يقع تحت بصره ، وكثيرا ما ينسب إلى الشيء الذي يهمّه حركات وأوصاف الإنسان .

وأول ما يلفت النظر في ذكر مشاهد الطبيعة عنده ، هو تعددّ الصور : فقد تتوالى هذه أنيقة رائعة متلونة ، يأتي البيت ، بفضلها لامعا ساطعا ،ا ن أمكن هذا التعبير ، ولكن هذه الصور تأتي في بعض الاحيان ، غامضة مبهمة ، لما فيها من تكلّف وتعقيد بالغ حتى ليعسر علينا فهم بعض الابيات ولهذا يتجلى لنا إبن خفاجة شاعرا مهتما بوشي نظمه وزخرفة أسلوبه ، أكثر منه شاعرا مبتدعا ذا مخيلة قوية .

وقصائد إبن خفاجة التي تستميلنا وتستولي على قلوبنا هي تلك القصائد التي يتجلّى لنا فيها صاحبنا مخلصا صادقا . وكم من مرة أفضى إلينا إبن خفاجة بأسراره وعواطفه مباشرة أو بواسطة الجوامد ، ولو أحصينا الأغراض الشعرية التى تتردد كثيرا في ديوان شاعرنا لاضطررنا أن نلاحظ أن إبن خفاجة كان رومانسيا قبل الأوان ، فقد صرح بما في الهوى من تبرّم وشقاء ، كما صرّح بسعادة الحب وعذوبة الصداقة ، وآلام الفراق ومرارة الوحدة ، والخوف من الموت وتعاسة الشيخوخة وفناء الحياة ، وهو يدعونا تارة إلى التمتع ، كل التمتع ، بشبابنا

الزائل ، وتارة أخرى يغضب لغفلة الرجال المنهمكين في الملاذ تسوقهم أقدامهم نحو الهاوية .

غير أن أغلب هذه الاغراض الشعرية ، ولا بدّ من التصريح بذلك ؛ أخذها إبن خفاجة عمّن سبقه من الشعراء ، وانما لـه فضل ابتداع نزعة شعرية سبق بها غيره ، وتتمثّل في التعبير عن حسّ الطبيعة ، لقد صوّر لنا – في مرارة تارة وفي شغف تارة أخرى – نتائج تأملاته حول الشباب والحب والصداقة والموت مستخدما في ذلك وسائل مختلفة ، كأنه في حاجة إلى من يساعده ، فهذا الجبل يئن ويشتكي من فرقة الاصدقاء ، ويشاهد في وحدة موحشة شعوبا متوالية «طوتها يد الزمان» ، وهذا البدر من جهة أخرى يعبّر عن التضادّ الموجود بين خلود الطبيعة وفناء الانسان ، ويبرهن على تغيّر حركة كل شيء ، وعن غفلة الرجال الذين يظنون بأنفسهم أنهم خالدون في الدنيا ، فينغمسون في الشهوات بدون مبالاة .

فالطبيعة كما أشرنا إليها مذكورة في كل مكان ، وقد يرمي الشاعر بنفسه في أحضانها فيأنس إليها ، فتنصحه وتسليه وتعلّمه الحكمة والصبر . فالوردة تجلي عنه همومه وأحزانه باهدائها اياه حلتها اليانعة المشرقة ، والجبل يشتكي إليه – كأنه صديق – من حياته الموحشة في انعزال لا نهاية له ، والبدر يرشده ويفيده بعبارات قيّمة تتراءى لنا خلالها فلسفة الوجود .

وأما البحر فإنه عكس ذالك يبعث في نفسه الخوف ويقضي على طمأنينته . فابن خفاجة لا ينشرح صدره ولا يصفو خاطره الا في تلك الطبيعة بمناظرها المألوفة من أودية وسهول ورياض مزهرة ، يجول فيها طويلا في طرب مستمر ، لقد أحبّها حب الحبيب لحبيبته ، وتغزل بها ، ونسب إليها محاسن الغانية ذات الجمال الفتان الذي يقضي على كل انسان ، وهذا ما سمح لشوقي أمير الشعراء أن يقارن بين ابن خفاجة ومجنون في حبهما لعشيقتهما .

كان شاعر الطبيعة هذا فنانا ماهرا فجاء شعره محلى بكل ما تسمح به البلاغة من بيان ، فطار صيته في المشرق والمغرب وهو مازال على قيد الحياة . اعترف له الخلف بالفضل فأثنى عليه وعده من زعماء الغزل ومن الجنّانين النادرين .

تعليقـــات

1 ـ أنظر ليفي بروفا نصال في دائرة المعارف الاسلامية ـ I ، 5 .

2 ـ أنظـر بـيراس . الشعر الإندلـسـي ص 398 وما بعدها .

3 ـ هو أبو الوليـد أحمد بن عبـد اللـه . . . . بن زيدون من أشهر شعراء اسبانيـا الإسلاميـة وكـان وزيـر العباديين باشبيليـة . نشأ بقرطبة سنـة 394هـ ـ 1003 م وتوفي سنـة 463 هـ أي 1071 م باشبيليـة .

أنـظـر أو غـوسـت كـور فـي دائـرة المعارف ـ II ـ 455 ـ وكتابـه في ابن زيـدون ، الـديوان ط : بيروت سنـة 1964 .

5 ـ أنظـر ليفي بروفانصال في كتابه « الحضارة » ص 26 .

6 ـ أنظـر بيراس : الشعر الإندلسي ص 55 وما بعـدهـا .

7 ـ عرفت بلاد الإندلس فريقا من العبيد يطلق عليهم اسـم « الصقالبة » وأصلهم من أوربـا الشرقية يعملون في المنظمات العسكريـة أوفي بلاط الإمـراء . وقد لعبوا دورا سياسيا هاما في الإندلـس بعـد ما كثر عـددهم . وبعد الخلافـة اندمج

صقالبة الإندلس ، وقد أسلموا منذ أجيال عديدة ، مع باقي الأمة الاسلامية الأندلسية .

أنظر ليفي بروفنصال في دائرة المعارف – IV ، 79 .

9 – أنظر عبد الله الزيري في « مذكراته » ص 104 .

10 – أنظر ليفي بروفنصال في دائرة المعارف : IV ، ص – 1128 مقالة « بلنسية » .

11 – القيسيون : من أعظم القبائل في شمالي جزيرة العرب : أنظر : فيشار في دائرة المعارف II ص 692 – مقالة «قيس عيلان» .

12 – أنظر الشقندي : الرسالة – في نفح الطيب للمقري .

13 – أنظر ليفي بروفنصال في دائرة المعارف IV ص 348 مقالة «شاطبة» .

14 – أنظر ليفي بروفنصال في دائرة المعارف III ص 783 .

15 – أنظر الشقندي في نفح الطيب II ص 149

16 – انظر نفس المرجع .

17 – أنظر ليفي بروفنصال في دائرة الايبيرية ص 126 التعليق الثاني .

18 – أنظر الأدريسي في كتابه – ص 192 .

19 ـ أنظر الجزيرة الايبيرية ص 126 .

20 ـ أنظر ويسي بيراندة في دائرة المعارف I ص 225 مقالة : «جزيرة شقر» .

21 ـ أنظر المقري في النفح : 2 ص 457 .

22 ـ ويتجلّى لنا هذا فيما يقوله إبن خفاجة في مقدمته :
فعطفت هنالك على نظم القوافي عناني .... اكتفاء بما في يدي من عطايا منّان وعوارف جوادٍ وهاب خلق فابدع ورزق فتبرع .... »
ولم يمتهن إبن خفاجة في علمنا أية مهنة .

أنظر الديوان ص 8 ـ سطر 6 ـ 7 .

23 ـ أنظر الديوان قصيدة رقم 205 .

24 ـ أسمه أبو عمران موسى بن عبد الرحمن .... بن أبي تليد توفي بشاطبة سنة 517 هـ أي 1122 م .

أنظر إبن بشكوان : الصلة : 2 ـ 576 .

25 ـ ويتجلّى لنا هذا من استعمال إبن الأبار الفعل «جالس» وقد أشار إبن بشكوان إلى قيمة هذا العالم .

26 ـ أسمه أبو بكر محمّد ابراهيم بن أسود ـ توفيّ سنة 536 هـ أي 1141 م .

أنظر الضبي ص 46 رقم 49 .

27 ـ أسمه أبو اسحاق ابراهيم بن أبي الفضل بن صواب المجري ـ وقد أصبح هذا العالم طبيبا فأقام بطنجة ثم بمدينة فاس قبل أن ينتقل إلى مكناس حيث توفي سنة 510 ه أي 1115 م .

28 ـ أنظر الديوان : رقم 16 .

29 ـ أنظر بيراس : الشعر الأندلسي ص 24 .

30 ـ أنظر الديوان رقم 305 .

31 ـ أنظر إبن الأبار في الحلة 2 ص 22 .

32 ـ كان تميم بن المعز الأمير الزيري الخامس شيعيا . وقد ولد سنة 425 ه أي 1048 م . وأصبح وليا على المهدية ثم أميرا على شمال أفريقيا الشرقية بعد وفاة أبيه من سنة 454 ه / 1062 م إلى سنة 501 ه / 1108 م . أي سنة وفاته . وكان أميرا شاعرا استقبل شعراء كثيرين من الأندلس ومن المغرب .

أنظر مارسي في دائرة المعارف 6 ص 679

وروجي أدريس في كتابه «بلاد البربر الشرقية في عهد بني زيري .

33 ـ قصيد مدحية في نسخة شخصية لبيراس

أنظر بيراس : الشعر في مدينة فاس في عهد المرابطين ص 8 ـ تعليق 1 .

34 ـ أسمه أبو الحسن علي بن محمد بن ثابت الخولاني المعروف بابن الحداد . عاش في بلاط تميم بن المعز بالمهدية ومات سنة 490 هـ / 1097 م . وهو شاعر لم يبق من شعره إلاّ شذرات قليلة .

أنظر : مراجع روجي أدريس في كتابه «البربرية الشرقية في عهد بني زيري القرن 10 إلى 12 ، الجزء الثاني ص 797 تعليق 132 .

: والمقري في النفح : 2 ص 526 .

35 ـ أنظر إبن خفاجة في مقدمة الديوان ص 6 من السطر 3 إلى 10 .

36 ـ مجنون : ينسب إلى قيس بن الملوّح ، وقصة غرامه بليلى بنت سعد مشهورة ، ومن المحتمل أن تكون وفاته حوالي سنة 80 هـ .

أنظر نيكالسون في دائرة المعارف 3 ص 99 .

37 ـ أسمه همام بن غالب بن صعصعة ، شاعر هجاء شهر بالفرزدق ولد بالبصرة سنة 20 هـ أي 640 م وتوفي سنة 114 هـ أي 732 م .

أنظر شاكد في دائرة المعارف 2 ص 64 .

ديوانه : طبعة القاهرة 1936 .

38 ـ اسمه حبيب بن أوس المعروف بأبي تمام ولد سنة 188 هـ أي 804 م وتوفي سنة 231 هـ .

أنظر ما رغوليوث في دائرة 1 ص 111 .

ديوانه ط القاهرة 1951 .

39 ـ اسمه أبو عبادة الوليد بن عبيد المعروف بالبحتري ولد سنة 206 هـ أي 821 م وتوفي سنة 284 هـ أي 897 م .

أنظر بيلا في دائرة المعارف : 1 ص 1328 .

ودراسة الدكتور الأشتر (أطروحة لم تنشر، باريس 1953) .

ديوانه : ط بيروت 1962 .

40 ـ أنظر إبن رشيق في كتابه العمدة : 1 ص 64 .

41 ـ اسمه الحسن بن هانيء الحكمي المعروف بأبي نواس ولد بالأهواز سنة 130 هـ أي 747 م وتوفي ببغداد سنة 198 هـ أي 813 م .

أنظر فاقنار في دئرة المعارف : 1 ص 147 .

ودراسة عمر فرّوخ ط . بيروت 1932 .

ديوانه : ط الاهورد بيروت 1932 .

42 ـ اسمه علي بن العباس بن جريج بن الرومي ولد ببغداد سنة 221 هـ أي 832 م ومات قتيلا سنة 283 هـ أي 896 م .

أنظر دائرة المعارف : 2 ص 435 ـ وديوان إبن خفاجة ص 111 .

ديوانه : ط . القاهرة 1924 .

43 ـ أ) أبو الطيب أحمد بن الحسين الجعفي المعروف بالمتنبي ـ ولد سنة 303 هـ أي 915 م بالكوفة وتوفي سنة 354 هـ أي 955 م

أنظر بلاشير في دائرة المعارف · 3 ص 834 وفي كتابه . ط . باريس 1936 .

ديوانه . ط بيرت 1955 ـ 1956 .

ب ـ وفيما يخص بلوغ شعره الأندلس أنظر بلاشير في كتابه «المتنبي» ص 293 .

44 ـ أنظر إبن خفاجة في مقدمته ص 16 سطر 13 .

45 ـ أ) اسمه أبو الحسن محمد بن أبي طاهر الحسين بن موسى الكاظم . ولد سنة 359 هـ أي 970 م ببغداد وتوفي سنة 406 هـ أي 1016 م .

أنظر كرانكوف في دائرة المعارف : 6 ؛ ص 341

ديوانه . ط -- بيروت 1961 .

ب ـ وفيما يخص بلوغ شعره الأندلس لم يذكر لنا ابن خيرشيئا عنه في فهرسته . بينما خصه المؤرخ إبن بسام بالذكر في ذخيرته القسم الرابع في الجزء الذي لم ينشر .

46 ـ أ) اسمه أبو محمد عبد المحسن .... بن غلبون الصوري شاعر شامي الأصل ولد حوالي سنة 340 ﻫ أي 951 م وتوفي سسنة 419 ﻫ أى 1028 م .

ويبدوا أن ديوانه قد ضاع ولا نعرف من شعره إلا مقطوعات معـــــدودة .

أنظر : الثعالبي في يتيمته : 1 ص 225 إلى 237 وص 238 .
: وإبن خلّكان في وفياته : 1 ص 365 سطر 19 .

ب) وفيما يخص بلوغ شعره الأندلس فان إبن خير لم يذكر شيئـــا عنــــه .

47 ـ أ) أسمه مهيار بن مرزوية الديلمي فارسي الأصل ولد سنة 394 ﻫ أي 1003 م كان مجوسيا ثم أسلم على يد الشريف الرضيّ ـ وكان شاعرا شيعيا متحمسا ، توفي ببغداد سنة 428 ﻫ أي 1037 م .

أنظر : بروكلمان : 82 والـــذيل : ص 132والبستاني في «الـــمجـــاني » 3 ص 193 .
ودراسة اسماعيل حسين ديوانه : ط : القاهرة 1925 .

ب) وفيما يخص بلوغ شعره الأندلس لم يذكر إبن خير شيئا عـــنـــه .

48 ـ أ) أسمه أبو بكر أحمد بن أحمد .... الضبّي المعروف بالصنوبري . شاعر شامي لا نعرف تاريخ ولا دته . ويبدو أنه توفي سنة 334 ه أي 945 م .

وقد جمع رجب الطباخ ما كان مبعثرا من شعره في ديوان عنونه بالرياضيات ط . حلب 1932 .

أنظر البستاني في المجاني 3 ص 211 .

ب) وفيما يخص بلوغ شعره الأندلس أنظر إبن خير في ـ الفهرسة ص 408 .

49 ـ اسمه أبو الحسين بن فارس مولى أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك ، ولد في أوائل القرن الرابع الهجري أي العاشر الميلادي وكان راوية لعلماء شاميين وبصريين وقد سافر إلى اسبانيا حيث توفي سنة 376 ه أي 987 م .

أنظر إبن خير : فهرسة ص 408 .

50 ـ اسمه الحكم الثاني بن عبد الرحمن الثالث ولقب

بالمستنصر بالله . وهو الخليفة الأموي التاسع ، والثاني بقرطبة . كان عالما متعففا ، وقد دام ملكه من سنة 350 ه أي 961 م الى 366 ه أي 976 م

أنظر شميتن في دائرة المعارف : 2 ، ص 237 .

51 ـ أنظـر المقـري : النفـح : 2 ، ص 328 .

52 ـ اسمه أبو القاسم محمد بن هـانـيء الأزدي المعـروف بابن هانـيء الأنـدلسـي للتمييز بينـه وبين ابن هانيء الحكـمي الشـاعر المعـروف بأبي نـواس . ولـد بقرطبـة سنـة 326 ه أي 937 م ومات قتيلا بافريقيـة سنة 362 ه أي 973 م .

أنظـر ابن أبي شنب في دائرة المعـارف : 2 ، ص 406 .

ديوانه . ط . بـيروت سنـة 1886 .

53 ـ اسمـه أبو محمـد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم وهو العـالم الأندلسي المشهـور . وقد كـان فقيها جدليا ومؤرخا متبحـرا وأديبا وشاعـرا . ولد بقرطبـة سنـة 384 ه أي 994 م وتوفـي سنـة 456 ه أي 1064 م .

أنظـر : فان أراندانك في دائرة المعـارف : 2 ، ص 407 .

54 ـ اسمـه أبو الوليد اسمـاعيل .. بن عامر الحميري ولـد باشبيلية سنة 418 ه أي 1026 م . وكان شاعرا وأديبا ماهرا وقد توفي في عنفوان شبـابه ، لايزيد سنـه على 22 سنة أي سنة 440 ه أي 1048 م .

ولا نعرف من شعـره الا مقطوعـات معـدودة أنظـر :

البديع في وصف الربيع » وابن الأبار في التكملة رقم 474 ط . الجزائر .

55 ـ أنظر بيراس : الشعر الأندلسي : ص 113 ـ 114 .

56 ـ أنظر ابن خفاجة : ديوان ص 283 ـ 284 .

57 ـ اسمه أبو الحسن علي بن رشيق الأزدي ، كان شاعر المعز الفاطمي ومؤرخا ولغويا ولد سنة 385 ه أي 995 م بالمسيلة في الجزائر وتوفي سنة 456 ه أي 1064 م .

أنظر ابن أبي شنب في دائرة المعارف : 2 ، ص 434 .

58 ـ من المحتمل أن يكون علي بن بشر هو الذي نظم هذه المقطوعة . ولكن الدكتور غازي محقق الديوان يرى أن الناظم هو عبد الله بن النعمان .

أنظر : الديوان ط . غازي ص 358 تعليق . 1

59 ـ أنظر ابن خفاجة : ديوان ص 290 .

60 ـ أنظر ابن خفاجة : ديوان ص 66 سطر : 8 و 9 .

61 ـ أنظر ابن خفاجة : ديوان : رقم 367 البيت الثامن والمقري في النفح : 2 ، ص 215 ـ 216 .

62 ـ أنظر ابن خفاجة : ديوان : رقم 78 و 88 و 277 .

63 ـ أنظر ابن خفاجة : ديوان : رقم 258 .

64 ـ أنظـر ابن خفاجـة : ديوان : رقـم 13 .

65 ـ أنظـر الضبي في البغية ص 202 رقـم 502 .

66 ـ أنظـر ابن خفاجة ديوان : رقـم 14 البيت الأول .

67 ـ أنظـر ابن خاقان في القلائـد ص 241 وابن خفاجة في الديوان ، رقـم 87 : وهي مقطـوعة شعرية من البحر الطـويل جاءت في ستة أبيات الا أن إبن خاقان ينسب الأبيات الأربعة الأخيرة إلى الشاعر إبن وهبـون .

68 ـ أنظر إبن خفاجة : ديـوان : رقـم 291 البيب الأول والثـانـي .

69 ـ أنظر إبن خفاجة : ديـوان : رقم 50 .

70 ـ أنظر إبن خفاجة : ديوان : رقـم 137 البيت الأول والثـانـي .

71 ـ أنظر إبن خفاجة : ديوان : رقم 182 .

72 ـ « « « « « « 86«

73 ـ « « « « 40

74 ـ « « « « « 71 البيت الثامـن .

75 ـ « « « « « 115

76 ـ اسمه محمد بن صمادح التجيبي ، وكان الأمير الثاني الذي

تــولى إمــرة المــرية من سنة 443 ﻫ أي 1051 م إلى سنة 484 ﻫ أي 1091 م .

أنظر ليفي بروفنصال في دائرة المعارف : 3 ص 839 .

77 ـ أسمه أبو محمّد عبد الجليل بن وهبون المرسي . تــوفي حوالي سنة 483 ﻫ أي 1090 م . وقد ضــاع فيما يبــدو ديوان شعره . فلم يبلغنا من شعره الا أبيات شوارد أنظر إبن خاقــان في الــقــلائد ص 253 .

78 ـ أسمه أبو عبد الله محمد بن ربيعة . توفي سنة 487 ﻫ أي 1094 م .

أنظر إبن الأبار في التكملة : 1 رقم 113 ط كوديــــرة .

79 ـ أبو عبد الله محمد بن عائشة توفي سنة 510 ﻫ أي 1108 ببلنسية .

أنظر إبن سعيد في المغرب 2 ص 314 . الذي يروي قــول المسهب وإبن بسام المخطوط 3 ورقة 140 .

80 ـ أنظر إبن بسام : في الذخيره . وقد روى قوله إبن ظافر ص 214 .

81 ـ أنظــر المقــري في الــنفح : 1 ص 424 .

82 ـ » » ياقوت في المعجم : 3 ص 307 .

83 ـ » » الديوان : رســالــة رقم 16 .

84 ـ أبو بكر محمد بن مفوّز ـ توفي بقرطبة سنة 505 هـ أي 1103 م .

أنظر إبن الأبار في المعجم : ص 94

وإبن بشكوال في الصلة : 2 ص 537 رقم 1249 .

85 ـ أسمه أبو علي حسين بن محمد . . . . بن سكّرة الصدفي توفي في وقعة كتندة بثغر الأندلس سنة 514 هـ أي 1112 م

أنظر إبن بشكوال في الصلة : 1 ص 143 .

86 ـ أبو أمية ابراهيم بن عصام . توفي سنة 516 هـ أي 1014 م بمدينة مرسية .

أنظر الضبي : في البغية ص 207 رقم 515 .

وإبن خاقان في القلائد ص 203 .

87 ـ اسمه أبو عبد الله بن السيد البطلوسي . توفي سنة 521 هـ أي 1119 م . بمدينة بلنسية .

أنظر إبن خلكان في الوفيات : 2 ص 282 رقم 320 .

88 ـ أسمه أبو الحسن بن علي ابراهيم بن عطيه البلقني المرسي المعروف بابن الزّقاق . توفي بمدينة أغمات قبل أن يبلغ الأربعين سنة 528 هـ أي 1138 م . الديوان ط الثقافة بيروت 1964 .

أنظر بروكالمان في الذيل 1 جص 481 .

إبن سعيد في المغرب 2 ص 323 .

ابن الأبار في التكملة ص 663 .

98 ـ أنظر المقري : في النفح : 1 ص 323 .

90 ـ اسمه الفتح أبو نصر ... بن خاقان القيسي : مات قتيلا بمدينة مراكش سنة 529 هـ أي 1134 م . حسب ما يبدو بأمر الأمير المرابطي علي بن يوسف .

أنظر إبن أبي شنب في دائرة المعارف : 2 ص 87 .

91 ـ ذكر إبن خاقان إبن باجة ذكرا قبيحا في كتابه قلائد العقيان لأن إبن باجة فيما ما يقال أبخله ولم يتكرّم عليه ولكن إبن خاقان قد عوّض ما جاء في القلائد بمقالة كلها مدح وثناء جاءت في كتابه مطمح الأنفس بعد أن أهدى إليه إبن باجة هدية ثمينة وأجزل صلته .

أنظر : بيراس في مقالة : الشعر بمدينة فاس في عهد المرابطين ص 3 تعليق 2 .

92 ـ أنظر إبن خفاجة : ديوان رقم 181 .

إبن خاقان : قلائد . ص 234 ـ 235 .

93 ـ اسمه أبو عبد الله محمد بن عثمان . توفي سنة 533 هـ أي 1138 م .

أنظر إبن الأبار في التكملة : 1 ص 169 ط كوديرة

94 ـ أنظر إبن خفاجة : ديوان ص 251 رقم 197 .

95 ـ اسمه أبو جعفر بن أحمد سعدون ولم نعثر على تاريخ وفاته

أنظر إبن سعيد في المغـــرب : 2 رقم 537 .

96 ـ هو لذريق دياث دي بيبار لقّبه الاسبـانيـون بالسيد والكمبيادور ، وفي المصـادر العربية القنبيطور ؛ ولعب دورا هاما في خدمة ملك سرقسطة ثم في خدمة ملـــك قشتالة المسمّى من بعد .

أنظر : شارل اندري جوليان في تاريخه ص 84 .

ومينندث بيدال في كتابه «اسبانيا في عصـر الـسيد .

97 ـ اسمه أبو جعفر بن الجحّاف بن عبد الله ... المعافـري البلنسي . خلف عبد القادر إبن ذي النون بمدينة بلنسية بعد ما قتله سنة 485 هـ أي 1092 م . ومات محروقا على ايد لسّيد سنة 488 هـ أي 1095 م .

أنظر دوزي في تاريخه : 3 ص 227 ـ 229 .

98 ـ أسمه أبو جعفر أحمد عبد الوالي البتى من بتة وهي قرية من نواحي بلنسية . مات محروقا على يد السيد سنة 488 هـ أي 1095 م . بمدينة بلنسية .

أنظر الضبي في الـبغيـة ص 183 رقم 442 .

99 ـ أنظر إبن خفاجة : ديوان رقم 285 .

100 ـ » » » » » » » 154 .

101 ـ » » » في مقدمته ص 8 سطر 12 وما بعده .

102 ـ أنظر بيراس : الشعر ص 451 .

103 ـ أنظر ليفي بروفنصال في « الاسلام في المغرب » .

104 ـ » » بيراس في مقالته : الشعر بمدينة فاس في عهد المرابطين

105 ـ أنظر إبن خفاجة في مقدمته ص 7 سطر 5 إلى 7 .

106 ـ » » » » » في ديوانه رقم 3 .

107 ـ » » » » » ص 65 سطر 5 إلى 7 .

108 ـ » » » المقري في النفح : 1 ص 451 ـ 452 .
بيراس: الشعر ص 116 تعليق 4 .

109 ـ أنظر إبن خفاجة : ديوان رقم 151 .

110 ـ » » » في مقدمته ص 10 ـ 11 سطر 14 وما بعده .

111 ـ أنظر ابن خفاجة : ديوان رقم 128 .

112 ـ علي بن يوسف بن تشفين توفي سنة 537 هـ أي 1143 م .
أنظر ليفي بررفنصال في دائرة المعارف : 1 ص 400 .

113 ـ أبو طاهر تميم بن يوسف بن تشفين توفي سنة 520 هـ أي 1125 م .

أنظر ابن سعيد في المغرب : 2 ، ص 116 تعليق 1 .

وابن القطان في نشر الجمان ص 9 تعليق 1 .

114 ـ أبو بكر ابراهيم بن تفلويت توفي سنة 510 ه أي 1115 م .

أنظر ابن سعيد في المغرب : 1 ، ص 61 تعليق 4 و 2 ، ص 119 .

115 ـ أنظر ابن خفاجة : ديوان رقم 128 .

116 ـ أبو اسحاق ابراهيم بن يوسف بن تشفين توفي بعد سنة 515 ه أي 1120 م .

أنظر ابن القطان في نشر الجمان ص 82 تعليق 5 .

ابن خلكان : وفيات : 3 ، ص 194 .

117 ـ أنظر ابن خاقان في القلائد : المقدمة ص 3 و 4 .

118 ـ » ابن خفاجة : ديوان رقم 9 .

119 ـ » : مقدمة ص 7 سطر 9 وما بعده .

120 ـ تفضل الاستاذ الجليل الدكتور أحمد الطاهر مكي أستاذ بكلية الآداب بالجزائر فأمدّنا بالمعلومات الآتية :

ابن زذمر لقب أطلقه المؤرخون العرب على الفونسو الأول وكان لبأسه يلقب بالمحارب وتولّى الملك بين عامي 1105 م و 1134 م وضمّت مملكته معظم الولايات المسيحية الشمالية فكان يحكم أرجون وبنرة وليون وقشتالة واشتورياش وفي شعبان سنة 519 هـ الموافق يولية 1125 قام بهجوم كبير على الأندلس الإسلامي ، فمن المفروض إذن أن تكون وفاة أبي اسحاق بعد سنة 519 هـ .

أما مدينة قورية التي أشار اليها ابن خفاجة في قصيدته فهي قرب مدينة « مريدة » (أنظر : الجزيرة : رقم 153) أي في منطقة لم يصل اليها الأرجونيون أبدا . هل يعني الشاعر مدينة « القورية » التي في في جنوب اشبيلية ؟

121 ـ الثغر ، وجمعه ثغور ، الناحية من الأرض ، وكل فرجة في جبل أو بطن واد ، والثغر ما يلي دار الحرب : وموضع المخافة من فروج البلاد وأطرافها .

122 ـ أنظر عنان في كتابه : عصر المرابطين : 1 ، ص 103 ـ 104 .

123 ـ أبو العلاء بن زهر توفي سنة 525 هـ أي 1130 م بقرطبة أو اشبيلية . أنظر قابريال كولان في دائرة المعارف : 2 ، ص 456 .

124 ـ أبو عبد الملك بن أبي الخصال توفـي سنة 539 هـ أي 1144 م . أنظر ابن القطان في نثر الجمان ص 111 تعليق 4 .

125 ـ أبو عبد اللـه محمد بن أبـي الخصال تـوفي سنـة 540 هـ أي 1145 م .

أنظـر : للابن الأبار في المعجم ص 144 ، والمراكشي في المعجب ص 97 والإحـاطـة 2 ، ص 264 .

126 ـ يصرح ابن خفاجـة بنفسـه انّـه بلغ السبعين مـن العمـر .

127 ـ أبو عامر محمد بن ينق توفـي سنة 547 هـ أي 1152 م .

أنظـر ابن الأبـار في التكملـة : 1 ، ص 198 .

128 ـ أبو اسحاق ابراهيم بن ميمون توفي بعد سنة 560 هـ أي 1165 م .

أنظر إبن الأبار في التكملة : ص 182 .

129 ـ أبو عبد الله محمد بن علي بن عبد العزيز بن حمدين التغلبي توفي بقرطبة سنـة 508 هـ أي 1106 م .

أنظر الضبي رقم 230 وإبن بشكوال في الصلة : 2 ص 539 رقم 1254 .

130 ـ أنظر إبن خفاجة رقم 67 بيت 12 و 13 .

131 ـ « « « « « 288 .

132 ـ « « « « 303 الأبيات 7 إلى 13 .

133 ـ منتزهات بالجزيرة كان إبن خفاجة يتردّد عليها .

134 ـ أنظر إبن خفاجة : رقم 123 بيت 5 .

135 ـ « « « « « 300 .

136 ـ لثام كان المرابطون يجعلونه على وجوههم ليتميزوا به عن غيرهم .

137 ـ الأنصار : أهل المدينة المنورة الذين نصروا النبي صلعم وسمّوا بالأنصار ليميزوا عن المهاجرين أي أهل مكة المكرمة .

أنظر : متنتقومري وات في دائرة المعارف : 1 ص 529 .

138 ـ تميم الأمير ، وتمام البدر أي إكتماله . يشير الشاعر هنا إلى البدر في الليلة الرابعة عشر وإلى كمال الأمير ، مع أنه لازال هلالا .

139 ـ القطاة : طائر في حجم الحمام ج قطا ـ ويضرب المثل بهداية القطافي المجاهل فيقال : أهدى من قطا .

141 ـ أنظر مونتاني في كتابه «ايسي» 3 ص 4 .

142 ـ مدينة بالمغرب توفي بها إبن أخت الشاعر .

143 ـ جزيرة شقر : مسقط راس الشاعر .

144 ـ جرهم : قبيلة عربية عريقة ويقال أنهم من سلالة يقطان أو قحطان . كانت الكعبة تحت سيطرتهم إلى أن طردهم منها بكر بن عبد مناة من أهل خزاعة .

أنظر منتقومري وات في دائرة المعارف : 2 ص 618 .

ـ عاد : قبيلة موغلة في القدم ورد دكرها مرارا في القرآن الكريم ، وكانت دولة قوية جاءت بعد سيدنا نوح عليه السلام طغت لما كانت تتمتع به من أموال غزيرة ، وكانت سيرتهم مع النبي هود عليه السلام سبب غضب الله عليهم ، فقضت عليهم عاصفة عنيفة ونجا النبي هود وأتباعه المخلصون .

أنظر : بوهل في دائرة المعارف : 1 ص 174 .

ارم ذات العماد : قبيلة قوية أو مدينة مترامية الأطراف تمتاز بأسوارها القائمة كرمز للزهو الممقوت .

ونذكر أحد الأخبار التي تشير إلى ارام ذات العماد : «أن شدّاد بن عاد قد تسيطر على ملوك العالم ولما بلغه ما كان يقال عن الجنة أمر بتشييد مدينة في نواحي عدن تماثل هذه الجنة

ولما أراد أن يزورها ـ رغم تحذير النبي هود عليه السلام ـ فوجيء برياح عاصفة فهلك وحاشيته على مسافة مسيرة يوم من ارم التي توارت تحت الرمال .

أنظر : وانسيلك في دائرة المعارف : 2 ص 553 .

145 ـ أنظر جمال الدين بن الشيخ في كتابه : «خمريات أبي نواس » ص 38 .

148 ـ نقل : وهو ما يتنقل به على الشراب من حلويات وفستق ومربّب وفول وغير ذلك

أنظر دير منغام في كتاب « أجمل نصوص العربية» ص 544 تعليق 120 .

149 ـ عنم : شجر له ثمرة حمراء يشبّه بها البنان المخضوب والواحدة : عنمة .

150 ـ أنظر نفح الطيب : 2 ص 184

151 ـ رموز الغراب : الوقار والحكمة والقدرة على الايحاء بالمتقبل (انائر أبو لون) .

حديث النفس شؤم الموت .

ـ رموز الغربان : غدر الجماعة ، الطمع : عدم الاحسان إلى الغير خيانة الباعة ، عقوبة الرذائل .

أنظر . موريي في القاموس البلاغي مقالة «رمز» ص 425 .

152 ـ أنظر بلاشير : سورة : 3 أية 5 ص 187 .

153 ـ أنظر بيراس : الشعر الأندلسي ص 165 ـ 166 .

155 ـ أنظر بلاشير في كتــابه «تاريخ الأدب العربي :» 3 ص 554 .

156 ـ الأراك : واحدته أراكة : وهو شجر من الحمض يستاك بفروعه .

ـ أيــك : وهو شجر ملتف كثيــف . متشعب الفر وع .

ـ طلــح : واحدة طلحة وهي أشجار عظام حجازية لها شــوك أحجن منابتها بطون الأودية .

157 ـ أنظر مجلة «تاريخ الأدب» شهر أكتوبر ـ ديسمر سنــة 1966 ص 595 (باللغة الفرنسية) .

159 ـ أنظر الابداع الشعري باريس 1953 ص 119 .

فهرس الاعلام

فهـرس الاماكـن

الفهـرس

الشركة الوطنية للنشر والتوزيع
3 ، شارع زيروت يوسف
الجزائــر